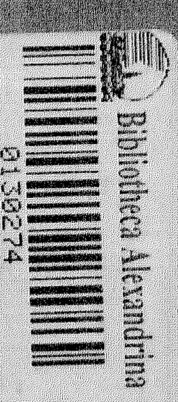
عادل حمودة

سيد قطب

من القرية الى المشنقة

سيرة الأب الروحى لجماعات العنف

دار الخيال





سيد قطب

سيرة الأب الروحي لجماعات العنف

سيد قطب

سيرة الأب الروحى لجماعات العنف

الطبعة الثالثة: يوليو ١٩٩٦

رقم الإيـــداع: ٥٨٣١ / ٩٦

الترقيم الدولى: x - 9915 - 19 - 977

دار الخيّـــال

تصميم الغلاف: محمد الصباغ

جرافيك: محمد كامل مطاوع

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

كمبيوتر : كايرو ميديا

عـــــادل حمـــــودة

سيد قطب

من القرية إلى المشنقة

سيرة الأب الروحي لجماعات العنف

مطبوعات دار الخيّال



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾

صدق الله العظيم

{الآيتان ١ـ٢ من سورة طه}



ملاحظات جديدة في طبعة أنيقة

لغة الموت المرعبة بين سيد قطب .. والحشاشين!

يصوره البعض شيخا من مشايخ الطرق الصوفية.. ويصوره البعض مفكرا إسلاميا جاء فى وقته للخروج من الجاهلية.. ويصوره البعض متمردا سياسيا يرمى الحجارة على شبابيك كل النظم الاجتماعية.. والسياسية.. والثورية.. ويتصوره البعض معقدا نفسيا خرج على السلطة الأبوية العسكرية.. لإحياء التقاليد القبلية.

لقد كان لسيد قطب أكثر من وجه.. وأكثر من لون.. وأكثر من لقب.. فهو معلم.. وشاعر.. ومفكر.. ومفسر.. وملحد.. ومسلم.. ومتطرف.. ومصلح.. ومبدع.. ومجاهد.. ومجتهد.. وشهيد..فتحولاته حادة.. وتغيراته مذهلة.. وصورته لم تحبس نفسها فى إطار ثابت.. وأفكاره لم تجمد فى قالب واحد.. ولو لم يعدموه لواصل رفضه لما سبق واستقر عليه.. ولخرج من جلده.. وفكره.. فهو أشبه بممثل متميز الشخصية.. يرفض دائما النص المكتوب فى السيناريو حتى ولو كان هو كاتب السيناريو.. وهو أشبه بقائد دراجة

نارية يقودها بأقصى سرعة فى شوارع المدن النائمة ويستعمل آلة التنبيه فى الساعات المحظور فيها استعمالها.. ويكتب بالطباشير كلاما غاضبا.. ساخنا على كل الأبواب المغلقة.

لذلك... أعدموه.. شنقوه.. فرملوا أفكاره وتحولاته وتغيراته.. ووقف متطرفا.. متشددا.. غاضبا.. ساخطا.. فتحول شاهد قبره.. أو ضريحه إلى مزار للجماعات والتنظيمات الإسلامية المتطرفة.. تستلهم منه الوحى.. وتحاول تفسير أقواله وأفعاله على هواها.. فهى فى حاجة إلى أب روحى تستند إليه فى حيثيات حكمها على جاهلية المجتمع.. وتستخدمه فى تبرير الرصاص الذى تطلقه.. ملعلعا فى السماء.. والدماء التى تريقها أنهارا.. والحلم الذى تسعى إلى تحقيقه بعناد.. حلم السلطة..

إن العنف الدينى سبق سيد قطب.. وكان سيواصل وجوده حتى لو لم يولد سيد قطب.. كان سيبحث عن مفكر آخر .. ومبرر آخر.. ومفسر آخر يسند إليه وهو يقتل ويذبح ويفجر القنابل ويحصد الأبرياء ويهز النظم والحكومات.

وأغلب الظن أن ذلك هو ما جعل شاعرا حساسا مثل نزار قبانى لا يندهش من أننا نمارس العنف كما نمارس الجنس والتنفس.. «كم من رسول قتلنا؟.. وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء»... إننا نقتل.. و«ليس بغريب علينا قتل الصحابة.. والأولياء».

والقتل ذروة الدراما الإنسانية.. والاغتيال ذروة الدراما السياسية.. فى القتل نتخلص من فرد.. وفى الاغتيال نتصور اننا سنتخلص من نظام.. فى القتل ينكر القاتل جريمته.. وفى الاغتيال يفخر القاتل بجريمته .. فهو صاحب فكرة أو عقيدة أو مذهب يريد أن يعبر عما

يؤمن به.. ويريد أن يقول أنه أقوى من السلطة التى يمثلها القتيل.. الحاكم.. أو الرئيس... أقوى من الأمن الذى يحرسه.. ومن الدعاية التى تمجده.. ومن الصحافة التى تدارى عوراته.

وأخطر أنواع الاغتيال.. الاغتيال باسم الله.. أو باسم الرب.. فهو فى نظر من ينفذه.. حلال.. اغتيال حلال.. على الشريعة.. وحيثيات الحكم فيه مستخرجة من الكتب المقدسة.. أو من الكتب التى تشرع وتفسر الكتب المقدسة.. تأويلا أو تحريفا .. لا يهم . المهم أن هناك حيثيات وأسبابا فى حاجة لجهد لنقضها.. لكنه جهد ضائع.. يأتى بعد فوات الأوان.

ولعل.. أخطر ما فى سيد قطب أنه كان الشماعة التى علق عليها أعضاء الجماعات المتطرفة عملياتهم وأخطاءهم.. إنهم لم يجدوا فى سيد قطب سوى تبرير الموت.. أو الذبح.. أو التفجير... مع أن سيد قطب هو المفكر الإسلامى الوحيد الذى ترك نظرية إسلامية جديدة فى الحياة الاجتماعية.. والسياسية.. والاقتصادية.. وكان ذلك فى كتابه«العدالة الاجتماعية فى الإسلام».. وهو ما لم يفعله غيره منذ أن أغلق باب الاجتهاد فى الإسلام.. منتهى الظلم أن نترك كل ما أنتجه سيد قطب فكريا.. ونأخذ منه فقط ما قاله ـ فى وقت شدة ـ عن الجاهلية.. والحاكمية.

وخاصة أن الاغتيال والعنف ليس غريبا علينا.. وتراثنا فيه قديم.. وعميق.. إن ثلاثة من الخلفاء الراشدين (كانوا خمسة) اغتيلوا.. هم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب.. وكان القتلة يتصورون أنهم ينفذون شرع الله.. أستغفر الله.. وهذا ما جعل سعد ابن أبى وقاص يقول: «لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان وشفتان

فيقول هذا مؤمن وهذا كافر»... إن السيف أعمى.. لكن العقول يجب أن تكون مبصرة..

وفى قضية اغتيال الجنرال الفرنسي كليبر، خليفة نابليون فى مصر قال قاتله سليمان الحلبى: لقد قتلته لأننى نذرت نفسى فى سبيل الله.. وقدم للمحقق بعض الآيات للتدليل على صحة اعتقاده.

وفى قضية اغتيال السادات وقف خالد الإسلامبولى رافعا المصحف وهو يقول: أنا قاتل السادات.. أنا قاتل فرعون.. أنا قاتل الطاغوت.. أما حيثيات الاغتيال فكانت فى كتاب «الفريضة الغائبة» الذى ألفه زعيم تنظيم «الجهاد» محمد عبد السلام فرج.. الذى أُعدم هو الآخر مثله مثل الذين أطلقوا النار على السادات.

وفى قضية قتل إسحاق رابين فى إسرائيل، وصفه القاتل إيجال عامير بأنه كافر.. لا يحكم بشرع الله.. ولا ينفذ تعاليمه.

وهكذا..

قبل سيد قطب وبعده..

وفى الإسلام والأديان الأخرى..

كان القتل.. والاغتيال.. كثيرا ما يستند إلى الكتب المقدسة.. فلا مبرر ألا نجد فى سيد قطب سوى ذلك.

إن الاغتيال باسم السماء كان وسيظل لعبة من ألعاب السياسة فى الشرق الأوسط.. أرض النبوات.. والمعجزات.. والمؤامرات.. والمخابرات.

والمذهل.. أن أصل كلمة الاغتيال فى اللغة الإنجليزية لا علاقة له بالرب.. أو الحلال والحرام.. أو الكتب المقدسة... فى كتابه «لغة السياسة فى الإسلام» يقول المستشرق الأمريكى برنارد لويس.. إن كلمة اغتيال فى اللغة الإنجليزية ASSASSIN وتقرأ بالعربية أساسين هى تحوير فى النطق لكلمة «حساسين» أو حشاشين.. والحشاشون فرقة من الإسماعيلية.. والإسماعيلية إحدى الفرق الشيعية.. وقد كانوا موجودين فى القرون الوسطى.. واستخدموا الحشيش وباقى المتع الحسية فى السيطرة على الشبان واستخدامهم فى تصفية خصومهم السياسيين.. لقد مزجوا بين الدخان الأزرق.. والأفكار السوداء.. واستغلوا الدين فى السيطرة على الدنيا.. وكانوا أعمق وأشد عنفاً.

لا مبرر لتحويل لغة سيد قطب إلى لغة مرعبة.. لا مبرر لتحويل أفكاره إلى دين ودنيا ميت.. صحيح أن من الممكن الوصول إلى ذلك أحيانا.. لكن.. لو فهمنا ظروف سيد قطب.. ومتاعبه.. وعقده.. وأحزانه فإن كل شيء يصبح فى حجمه الطبيعى.

وهذا الفهم.. أو الرغبة فى هذا الفهم.. أو محاولة هذا الفهم.. هو ما جعلنى أفكر فى البحث عن سيد قطب، ووضع هذا الكتاب عنه.. لقد نشرته قبل حوالى ١٠ سنوات.. وطبع أكثر من مرة.. وكان الأول من نوعه فى المكتبة العربية.. لكننى ظللت أعمل فيه قبل نشره.. ثلاث سنوات.. فجهد الكتاب الأول دائما هو الجهد الشاق والأصعب.. وأحمد الله أن كل ما كتب عن سيد قطب بعد ذلك ،كان يستخدم هذا الكتاب مرجعا أساسياً.. فقد كنت حريصا على أن أقدم بحثا وسيرة

يخضعان لأقصى درجات العقل والحياد.

وقد كان هذا الكتاب «سيد قطب من القرية إلى المشنقة» حبة من حبات مسبحة غير متفرقة.. تضم ثلاثة كتب أخرى هى «اغتيال رئيس» و«قنابل ومصاحف» و«الهجرة إلى العنف».. كما أن هذا الكتاب طبعته أكثر من دار نشر.. «سينا».. و«روزاليوسف».. لكننى أشعر باعتزاز خاص لهذه الطبعة بالذات والتى تنشرها «دار الخيَّال».. فهى- كما هو واضح- تبدو أنيقة.. وواضحة.. وتعفى القارىء من الأخطاء المطبعية.. ولعل حماسى لتقديم هذه الطبعة ـ وليس من عاداتى تقديم طبعات كتبى الجديدة إلا قليلا ـ هو أن هذه الدار الجديدة تحترم الكتب التى تنشرها وتطبعها.. وتعاملها بحساسية لا نجدها فى معظم دور النشر الأخرى التى لا تفرق كثيرا بين الكتاب وأكياس البطاطس.. ولا بين المكتبة والبقالة.

عادل حمودة

صيف ١٩٩٦
مصر الجديدة

قبـــــل أن تــــقـــــرأ

سيد قطب.. من القريـة إلى المشنقة

مـن يـعرف بداية سيد قطب، كان من عاشر المستحيلات أن يعرف، أو يتوقع، أو يتخيل، أو يتصور.. أو حتى يتنبأ بما ستكون عليه خاتمته!

بدأ معلماً وانتهى زعيماً..

بدأ ناقداً للأدب، وانتهى ناقماً على الثورة..

بدأ شاعراً، رقيق الحس، مرهف الانفعال، ينظر إلى الحياة نظرة فنان، وانتهى غاضباً، ساخطاً، متمرداً، محرضاً على الكفاح المسلح ضد نظام حكم جمال عبدالناصر..

بدأ ملحداً، لايثق فى موهبة الدين على تغيير البشر، وانتهى متطرفاً، بعد أن جزم بتكفير المجتمع وجاهليته..

بدأ متفتحاً على الدنيا، متحمساً للمعارك الفكرية، وانتهى معلقاً فى إحدى مشانق «الستينيات»، حاملاً ـ منذ ذلك الوقت وحتى الآن ـ لقب «شهيد»!

بداية لا علاقة لها بالنهاية..

أو.. بداية لايمكن أن يتصور أحد ـ ولاهو ـ أنها يمكن أن تؤدى إلى هذه النهاية!

فهل ـ ياترى ـ كان سيبدأ، لو قدر له أن يعرف ما سينتهى إليه؟!

إن مشوار حياته ـ من القرية للمشنقة ـ يمتلىء بالانعطافات الحادة، والانقلابات الحادة، والتغيرات الحادة.. مشوار «حياة» كان يدفعه فى كل تقاطع يقابله فيه للهتاف من أعماق أعماقه: «هذا هو الطريق».. ثم.. إذا به بعد مئات الأميال يكتشف أن الطريق «مسدود».. وأن عليه التحول إلى طريق ثان.. وثالث.. وعاشر.. وعندما قدر له أن يموت شنقاً، لم نعرف هل وجد طريقه أخيراً.. أم أنه كان سيواصل البحث عن طريق جديد إذا ما امتد به العمر؟!

أغلب الظن أنه كان سيغير الطريق.. طبيعته الإنسانية تؤكد ذلك.. وتحولاته المتعددة أيضاً.. ثم إنه كان ابن الظروف.. ولو تغيرت لتغير معها.. ثم.. إنه «كان رجاعا للحق».. لايكابر.. ولايعاند.. لكن.. من سوء الحظ.. أو هى مشيئة الله، ألا تنتهى تلك الظروف قبل أن ينتهى هو.. ثم.. إنه دفع حياته ودمه وأنفاسه ثمناً لما انتهى إليه من أفكار.. وهذا ضاعف من قيمتها فى موازين البشر.. خاصة عند الشبان الباحثين عن النموذج الجرىء، والبطل الذى يواجه، والإنسان الذى يصبح شهيداً.. إن المفكر إذا ما دفع حياته ثمناً لفكرة، كتب له، ولها «الخلود» مهما كان، ومهما كانت.. هذه سنة البشر.. وطبيعة الحياة وحكمة التاريخ.. لكنها حكمة لايفهمها إلا العقلاء!

■■

ولابد أنه كان مثل سفينة بناها قانون خاص، وسيرها قانون خاص، وحطم ضلوعها قانون خاص.. لابد أنه كان مثل سفينة تتحكم فيها رياح قدرية.. لاتعرف من أين تهب؟.. ولا متى تشتد؟.. ولا إلى أين سيكون المصير.. لذلك فهو يستحق التفرد والتأمل.. يستحق الانتباه والدراسة.. يستحق الاهتمام والمتابعة.. وخاصة أنه فرض نفسه وأفكاره وتحدياته على أجيال عرفته وأجيال لم تعرفه.. أجيال سمعت «منه».. أجيال سمعت «عنه».. وخاصة أنه فرض نفسه على ماض لم نحسمه. وحاضر نتحسسه، ومستقبل نخشاه ولانعرفه.

لكن.. رغم شهرته، وتكاثر أتباعه، وذيوع أفكاره.. فإن غالبية الناس لاتعرف عنه وعن حياته وتحولاته وتغيراته الكثير.. وهم معذورون.. فما كتب عنه، مقالات عابرة،

متناثرة لم تصل إلى حد الكتاب.. ونصف كتاباته - على الأقل - لم يعاد نشرها.. وهناك إصرار ما على ذلك.. ولا شك أنه أمر يوصل إلى حد الجنون أن تصدر الكتب عن نجوم الكرة ، والسينما، والطرب، ولايصدر كتاب واحد عنه.. إنها كارثة.. لكنها كارثة لها ما يبررها وإن كان التبرير أقبح من الذنب.. فأنصاره يرون - عن عمد - أن فى حياته ما لايجوز أن ينشر.. ويقصدون أيام كان على خلاف مع الدين.. بعيداً عن حظيرة الإيمان.. مندفعاً كالفراشة ناحية الضوء المبهر للحضارة الغربية. أيام كان يكتب عن المرأة، والعشق، وموسيقى «الجاز» ويدعو أن تكون فى مصر مستعمرات عراة.. وهم يتمنون أن يفقد من ذاكرة التاريخ ذلك الجزء من أيامه.. يذوب كفص الملح فى نهر عظيم.. يتلاشى.. كأن لم يكن.. لتبدأ قصة حياته من لحظة الهداية، والعقيدة، وبداية الطريق إلى الاستشهاد.. وكأنه ليس إنساناً يتبدل ويتغير.. يخطىء ويصيب.. يضل ويهتدى.. وهذا نوع من الظلم له، ولهم.. وإصرار لامعنى له على ألا نرى من ألبوم حياته سوى آخر صورة.. ألا نعرف عن «حزمة» أفكاره سوى آخرها.. وكأن رجولته كانت بلا طفولة.. وكأن أفكاره كانت نبتاً شيطانياً.. نام الناس واستيقظوا ليجدوها فى عقله، وأمام عيونهم.

وهذا التصرف ليس شاذا ولاغريباً عنا.. فهو عادة «مصرية» أصيلة جداً ولن نشتريها أو نستوردها.. فنحن نقدس زعماءنا ومفكرينا وأبطالنا إلى حد غير إنسانى.. فلانتصور أنهم ضعفوا مرة .. أو بكوا مرة.. أو شعروا باليأس مرة.. ولانتصور أنهم مثل باقى البشر، يمكن أن يقعوا فى الحب.. ويمكن أن تهزهم امرأة.. ويمكن أن يفكروا فى خطيئة.. ويمكن أن يرتكبوها.. بل.. ربما لانتصور أنهم يمكن أن يدخلوا «الحمام» مثلنا.. إننا نراهم - دائماً - غيرنا.. فنتعامل معهم «بالشوكة» و «السكينة».. ونكتب سيرتهم ونحن نرتدى «القفاز».. ولاننطق أسماءهم إلا بعد أن نغسل أفواهنا «بمعجون الأسنان».. ونرمى - من يشير إلى إنسانيتهم - بأبشع الاتهامات!!

وهى عادتنا ولن نشتريها أو نستوردها أيضاً، أن نبرز عيوب من نختلف معهم، ومع أفكارهم، ومعتقداتهم، فنشطبهم من خانة الملائكة، ونضعهم فى خانة الشياطين.. ونشطبهم من ذاكرة التاريخ أيضاً.. ولانعترف بحسنة واحدة من

حسناتهم، ولافضيلة واحدة من فضائلهم.. لذلك فإن خصوم سيد قطب وقفوا بالمرصاد لكل كلمة تقال أو تنشر عنه.. وتمنوا ـ أيضاً ـ أن يكون كفص الملح فى نهر عظيم.. يذوب.. يتلاشى.. كأن لم يكن.. وقد أزعجهم كثيراً.. ولايزال.. وتجاهله - ربما ـ يضعف تأثيره.. أو يلغى هذا التأثير.. وهؤلاء مثل النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال حتى تبعد عن نفسها خطر الصياد.. ومثل الذى يصد القطار المندفع نحوه بإغماض عينيه.. وكأن عدم رؤية الخطر يلغيه.. يوقفه.. يمنعه!!

وكان.. أن راح أنصار سيد قطب وخصومه يسيرون فى نفس الطـــريق، ليحققـوا ـ دون اتفاق أو تدبير ـ نفس الهدف.. هدف ألا نعرفه ولا نعرف حياته ولا تحولاته.. فقد راح أنصاره يمنعون نشر كتبه التى لا تعجبهم.. ومقالاته التى تجاوزها.. ومزقوا المجلات والصحف القديمة التى لم تعد تناسبه.. ولا هم أيضاً.. فلم تصل إلينا قصة حبه الفاشلة التى ابتعد بسببها عن المرأة.. وأضرب عن الزواج .. ولم تصل إلينا انطباعاته عن أمريكا بعد زيارة شهيرة لها.. ولم تصل إلينا معاركه الفكرية والأدبية ضد بعض الكتاب الإسلاميين.. باختصار.. لم تصل إلينا سنوات طويلة من حياته، تصل إلى ١٥ سنة.. وربما أكثر.

أما خصومه فقد راحوا ـ قدر استطاعتهم فى وقت من الأوقات ـ يمنعون نشر مؤلفاته التى توجعهم، وتؤرقهم وتزعجهم.. وكانوا فى وقت آخر.. وبقرار من السلطة العليا ـ يجمعون كل مؤلفاته، ويتبارون فى حرقها.. ونزعت ـ بمحاضر رسمية ـ صفحة من كتاب «القراءة والنصوص»، طبع عليها نشيد وطنى حماسى، من تأليفه عن مصر.

وهكذا.. قطع الجميع ـ بالقهر أو بضيق الأفق ـ الطريق بيننا وبينه.. ثم.. بعد أن ارتكبوا جريمتهم بنجاح وإتقان، تركوا الأجيال التى لم تعاصره، ولم تفهم سر تحوله، ولا الظروف التى أثمرت آخر أفكاره، فى تخبط.. وتوتر.. فى غضب واستنفار.. ثم.. ما إن حمل بعضهم السلاح، وراح يقتل، ويفجر، ويواجه المجتمع الجاهلى الكافر الذى أشار إليه «الأستاذ».. «الشهيد»، حتى اتهموهم بالجهل، والتسرع، والفهم الخاطىء، والسير فى عكس الاتجاه.. فى الممنوع!

مع أن أحدا من أنصار «الأستاذ» ولاحتى خصومه، لم يقل لهم: من هو؟.. ولا ماذا يريد بالضبط؟.. فهم إما يمجدونه إلى حد التقديس.. أو يهاجمونه إلى حد الإسفاف.. وكتاباتهم العابرة عنه إما تمجده.. أو تلعنه وليس من بينها ما يشرح ـ بإنسانية ـ طبيعته!

وكان.. أن أصبحنا أمام حالة فريدة من نوعها.. أن نعرف أفكاره ونناقشها.. نؤيدها أو نهاجمها.. دون أن نعرف ـ أو نحاول أن نعرف ـ صاحبها!

وذلك.. إما جنون العظمة.. أو جنون اضطهاد.. وفى الحالين.. كان سيد قطب ضحية!..

ومفترى عليه!

■■

لاأنا مصاب بجنون العظمة.. ولابجنون الاضطهاد.. لذلك أنا أكتب عنه.

لم أعاصر بدايته.. ولم أشهد تحولاته.. وعندما أعدم، كنت طالباً صغيراً لم يتح له أن يعرف سوى أنه أراد أن يقتل ويحرق وينسف ويظلم البلاد، ولهذا شنقوه.. وعندما رحت كصحفى أتابع قضايا العنف الدينى الأخيرة وجدت أنها ـ بصورة أو أخرى ـ تنتمى إلى أفكاره وفلسفته ونظريته التى مات عليها.. أى أنها خرجت من تحت عباءته.. فكان أن رحت أقرأ تلك الأفكار.. وكان أن رحت أدرس الظروف العامة والخاصة التى خرجت فيها تلك الأفكار.. وكان أن رحت أدرس المفكرين الإسلاميين الذين أثروا فيه وتأثر بهم.. وكان أن رحت أتراجع خطوة وراء أخرى حتى وصلت إلى لحظة ميلاده.. ثم.. كان أن سرت عكس الطريق، وبدأت أقطع الأميال والمسافات من قريته إلى المشنقة، بعد أن حملت على ظهرى شبكة كبيرة ثقيلة فيها ماجمعت من معلومات وكتابات، ووثائق، ومخطوطات، وأحاديث قالها من عاصروه وعرفوه عن قرب، وبعد أن أصبح فى ذهنى الكثير من التأملات والتفسيرات.. ثم.. كان أن رحت أفرغ ما حصلت عليه على الورق.. مرة.. ومرتين.. وثلاثاً.. وأخيراً كان هذا الكتاب.

كتاباته القديمة جداً فى مجلة «الرسالة» و «المقتطف» وصحيفة «الإخوان

المسلمون».. كتبه التى نفد بعضها ويتداول أغلبها.. الملف الكامل لقضية صيف ١٩٦٥ .. كتابات الإخوان المسلمين التى تردد أفكاره.. وتناقشها.. وتفندها.. أحاديث بعض الذين عرفوه.. هذه هى أهم مصادرى.. وهى كل ما أتيح لى من مصادر.. ثم يضاف إليها انطباعاتى.. وتأملاتى.. ورؤيتى الإنسانية الواقعية له، ولظروفه، ولأحلامه، ولتقديراته الخاصة والعامة.. فهل أنا أخطأت؟..

هل أنا تجرأت؟!

ربما..

لكن.. من المؤكد أننى اجتهدت.

ومن حقى أن أنال ثواب الاجتهاد.. وهو عند الله.. خير حافظ.. وخير معين.. مع عظيم الشكر والتقدير لكل من أعطانى ورقة.. فكرة.. مقالاً قديماً.. كتاباً غير متداول.. وأوراق قضية أصبحت فى ذمة التاريخ.. مع أن بعضهم كان متحمساً.. وكان البعض الآخر منذراً.

لله.. للتاريخ.. للبشر.. هذا هو سيد قطب الإنسان والأديب والناقد والمفكر والمتمرد، كما عرفته، وكما فهمته وكما تصورته.. هذا هو سيد قطب المفترى عليه.

عادل حمودة.

القاهرة ـ ربيع ١٩٨٧

١

طفل القرية المدلل..!

- قريته
- إهداء إلى طه حسين
- المجذوب العارى
- حلاق الصحة
- عسف الحكومة
- أسرته
- نظرة إلى «أم الدنيا»
- وحيد أبويه
- شائعة فى مدرسة القرية
- الفرار من «سيدنا»
- حفظ القرآن قبل المراهقة
- البسطاء لا يفهمون الزمخشرى
- الحب الأول
- رأى فى المرأة الأمريكية

لا بد أن سيد قطب كان ابن ظروفه ومجتمعه..

لابد أنه كان ابن القرية التى اختلطت فيها المعتقدات بالخرافات.. والتى فقدت فيها أسرته ما تملكه من ثروة ، فراهنت عليه، ليعوضها بالتعليم، والانتماء إلى «الأفنديات» عما ضاع منها بالإسراف.

ولابد أنه كان ابن عالمه الذاتى.. الخاص.. الشعر الذى مس أوتار ذوقه.. الأدب الذى راح يغترف - باستمتاع - من نبعه.. المرض الذى طارده منذ صغره، وحرمه الكثير من متع الحياة.. الحب الذى صدمه.. والمرأة التى ردّت مشاعره نحوها.. باقة من الأشواك.

ولابد أنه كان ابن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التى كانت حوله «الخلافة الإسلامية» .. العلمانية الغربية.. ثورة ١٩١٩ .. الليبرالية.. الديمقراطية.. الدستور.. البرلمان.. الاحتلال.. الفساد.. انهيار الوفد.. صعود الإخوان.. الفساد ... تغير العالم بعد الحرب الكونية الأخيرة.. انفتاح أمريكا على العالم.. التهاب التنظيمات الشيوعية.. حرب فلسطين.. ثورة يوليو.. أزمة مارس ١٩٥٤ .. ثم.. المحن المتلاحقة التى عاشها هو وغيره فى السجون والمعتقلات.. إنها ظروف متغيرة.. أدت به إلى أفكار متغيرة!!

ولابد أنه كان خير مثال للحكمة الشهيرة التى تقول .. إنه على قدر ما يعرف الإنسان من معلومات وبيانات ، على قدر ما يصل من أفكار .. وأن زيادة المعرفة قد تقلب هذه الأفكار وتغيرها .. تؤكدها .. أوتنفيها .. أو تحولها فى حياته إلى تراث!!

فى قرية صعيدية، صغيرة غير شهيرة ولد سيد قطب سنة ١٩٠٦ .. القرية تسمى «موشا» .. تقع فى زمام مديرية (محافظة أسيوط - ٣٧٥ كيلو مترا جنوبى القاهرة).. وقد شاءت الأقدار أن يشهد مسقط رأسه - بعد ثلاثة أرباع قرن على ميلاده - تطبيقاً عملياً، حياً لآخر الأفكار الدينية التى انتهى إليها، ومات عليها «الجهاد لفرض حاكمية الله ونزع حاكمية البشر » .. شاءت الأقدار أن تكون أسيوط المسرح الدائم،لعرض هذه الأفكار بالصوت والصورة.. بالخنجر والجنزير.. بالرصاصة والقنبلة.. بالعنف والقسوة.

القرية كانت بيئته الأولى.. إليها تمتد جذوره.. عاش، تعلم، قرأ، أحب، وصدم فيها.. إنها البذرة الأولى التى غرست فى تربته البكر.. المشهد الأول الذى رآه.. الدرس الأول الذى تعلمه.. ولابد أن ذلك كله أثر وأثمر.. هذا طبيعى جداً.. وطبيعى جداً أن نتخيل قريته، أو نعرفها دون أن نراها.. فالريف المصرى، خاصة فى الصعيد لم يتغير كثيراً منذ مئات السنين.. ولن يتغير كثيراً بعد مئات السنين.. هذا قدره، المكتوب على جبينه. لكن.. رغم تشابه الريف فى الصعيد، فإن كل قرية فيه لها ملامحها المميزة التى لا يلحظها إلا أهلها.. وقد كانت تلك القرية - كما رآها سيد قطب - «ثرية» بالقياس لغيرها من القرى المجاورة.. لم تكن تعرف الإقطاع، ولا الملكيات الكبيرة الفاحشة.. أكبر ملكية زراعية كانت ٢٠٠ فدان، لذلك فالظلم كان أقل.. ومن النادر أن توجد عائلة لا تملك قطعة أرض.. كبيرة أو صغيرة.. ومن النادر أن توجد أسرة لا تملك بيتها.. ونصف هذه البيوت كان مبنيا بالطوب الأحمر.. وكلها تتألف من أكثر من طابق.. ولابد أن ذلك دليل على أن مستوى المعيشة كان مرتفعاً.. هذا صحيح ، فأفقر بيت يذوق اللحم كل أسبوعين.. وأحياناً كل أسبوع.. والفاكهة تدخل البيوت جميعا مع اختلاف المقادير.

إنها ليست قرية معدمة كقرية طه حسين.. لكن.. هذا الثراء - الذى لا يزيد كثيراً على «الستر» - لم ينقذها من تلك الشخصيات المميزة فى كل القرى.. عريف الكتاب.. سيدنا.. حلاق الصحة.. والمجذوب الذى يعامل معاملة أولياء الله الصالحين.. [1] كما لم تمنعها من التعثر فى الخرافات، والخوف من العفاريت.. وارتكاب الأخطاء والخطايا أيضاً.

---

(١) معظم ما أسجله عن حياة سيد قطب فى قريته مصدره كتاب «طفل القرية» الذى صاغه على طريقة «الأيام» وأهداه فى أول يوليو ١٩٤٥ إلى الدكتور طه حسين.. «إلى صاحب كتاب الأيام.. إلى الدكتور طه حسين بك.. إنها ياسيدى كأيامك، عاشها طفل فى القرية، فى بعضها من أيامك تشابه، وفى سائرها عنها اختلاف، اختلاف بمقدار ما يكون بين جيل وجيل، وقرية وقرية، وحياة وحياة، بل بمقدار ما يكون بين طبيعة وطبيعة.. واتجاه واتجاه.. ولكنها - بعد ذلك كله - أيام من الأيام ». ورغم أننا سنعرف فيما بعد أن سيد قطب كان خصما عنيداً للدكتور طه حسين، فإن هذه الخصومة الأدبية لم تمنعه من الإعجاب بكتاب «الأيام» وتقليد أسلوبه الذى اعتبره «أسلوبا سهلا هينا ساذجا » تلك السذاجة الحلوة التى تحتمل التقليد.. ولابد من الاعتراف بأن الفقرات الموضوعة بين علامات التنصيص مأخوذة من سيد قطب نفسه فى «طفل القرية».

مجذوب القرية أكثر الشخصيات غير المعتادة التى استفزت سيد قطب فى طفولته.. اسمه الشيخ «النقيب» .. كان - هو وأقرانه - يخافونه.. يمشون وراءه.. يعتقدون أنه يسمِّر العفاريت فى أماكنهم.. يسمعون من الكبار أنه يجتمع بباقى «الأولياء» فوق قمة جبل كبير، بعيد، ينظرون فى أحوال العالم. وقد كانت هذه الأساطير تثير خياله أحياناً.. لكنها بالقطع كانت تثير استغرابه دائماً. فهذا «الولى» الذى ينظر فى أحوال العالم، يبدو أمامه مجرد رجل.. «مشعث الشعر، ممزق الثياب، عار أحياناً من كل ما يستر الجسد، ينطلق فى شوارع القرية وطرقاتها ، ينال بها كل شىء ، وكل أحد، ويرسل همهمة مختلطة، مخيفة أو يقهقه فى صوت عال مرهوب».. ولا يملك من أمر نفسه شيئاً.. لكنه بحكم طفولته البيضاء، وعمره الذى لم يكن قد تجاوز السادسة، كان مضطراً أن يصدق الكبار الذين يثقون به.. ويعتمدون فى حياتهم على كثير من بركاته.. بل على كثير من ضربات عصاه التى يتوكأ عليها، وله فيها مآرب أخرى.. إن تلك العصا لا تزيد على «قطعة من جريد النخل».. لكن خرافات الجهل، جعلتها «من شجرة من الجنة»، وغمستها فى «بئر زمزم سبع مرات».. وأكدت «أن من نالته منها ضربة فهو السعيد السعيد، فإنها لا تتناول إلا عضوا «مضروراً» أى مريضاً - ولو لم يشعر صاحبه بمرضه - فما إن تمسه هذه العصا حتى يبرأ من كل داء».. إن مثل هذه الخرافات، لم يستوعبها سيد قطب إلا فيما بعد.. وكان أن رفضها، وسخر منها، ومن أبطالها والمؤمنين بها.. وكان أن اعتبرها أكبر دليل على التخلف واستغلال الدين.. وكان أن دفعته فى صدر شبابه إلى رفض هذا الدين، واعتباره عائقا، أمام المسلمين لنفض الجهل والتخلف.. وكان فى حاجة إلى وقت طويل ليعرف الفرق بين الدين كمحرك «اجتماعى» والدين - على طريقة الدراويش - كمثبت اجتماعى.. أو كمسكن اجتماعى.. لقد استفزه - حتى وهو طفل - أن يقبل الناس - بدعوى الكرامات - ما يرفضونه بالدم والرصاص.. إن الرجل فى مثل هذه القرية الصعيدية، المتزمتة كان لا يتردد فى قتل من يخدش حياء امرأته.. أو يمسها بنظرة، أو حركة.. والمرأة كانت تعتبر عرضها مثل النسيم، يمكن أن تجرحه النسمة الطرية.. لكن.. رغم ذلك قبلوا الشيخ «النقيب» بينهم عاريا معظم الوقت.. «دون غضاضة من رجل أو حياء من امرأة لرؤية الجسد العارى»..

ولابد أن التفسير الذى توصل إليه سيد قطب عندما كبر قليلاً أفزعه.. وأثر فيه كثيراً.

إن الشيخ «النقيب» طارده سنوات وسنوات ، حتى بعد أن ترك القرية.. وكان لابد أن يروى قصته ويكتبها ليتخلص من هذه المطاردة.. لقد كان يشمئز من مجرد التخيل أنه يمكن أن يصافحه، أو يقترب منه، فإذا بالظروف تقترح، وتكاد تفرض عليه أن يبيت - وهو طفل - بالقرب منه.. «كان يلعب لعبة تقتضى لى الجسم، وتحريك العنق إلى الخلف، فأصيبت مفاصل عنقه بالانحراف، ومال رأسه إلى إحدى كتفيه، فأصبح لا يستطيع أن يحرك رقبته إلا فى اتجاه واحد.. واقترحت امرأة على أمه أن تدعه ليلة للشيخ «النقيب» حتى يبرأ.. فمات فى جلده.. ووقف شعر رأسه.. واقشعر بدنه.. وبدا مستعدا أن يتحمل كل شيء إلا هذا الدواء.. وكان أن طارده التخيل سنوات وسنوات.

أفزعه أيضاً أن يسلم الناس أولادهم وأنفسهم لحلاق القرية.. إن هذا الرجل الذى يثق الناس فى حكمته، ووصفاته وعلاجه، مهما بلغ ضحاياه، كان تمورجيا فى المستشفى الأميرى بالبندر ، وفصل عن العمل .. فآثر أن ينتقم من الذين فصلوه ، ويتحول إلى مستشفى كامل، يعالج أهل القرية.. إنه لا يختلف كثيراً عن ذلك الرجل الذى أفقد الدكتور طه حسين - بجهله - نعمة البصر، فكان مثل الذى أراد أن يكحلها.. فأعماها.

على أن أكثر ما لفت انتباهه أيام القرية.. عسف السلطة الحكومية وقهرها، وبطشها، وقسوتها، وتعاملها مع الناس كما لو كانوا.. «مواشى».. أستغفر الله.. إن الصعيد منذ وصول اختراع البارود بر مصر والرجال فيه يحتفظون بالسلاح.. البندقية هناك مثل الزوجة.. علاقة لابد منها.. ومثل الشرف، صفة لا يمكن العيش بدونها.. لكن.. الحكومة.. منذ وصول اختراع البارود بر مصر أيضا، ترفض أن يحتفظوا بالسلاح.. وتقوم - بدون تفاهم - بحملات مفاجئة، وشرسة لجمعه.. ولا يزال هذا يحدث حتى الآن.. وربما بنفس الأسلوب الذى أثار انتباه وبراءة وطفولة سيد قطب.. وربما أسوأ.. لقد جاء إلى القرية ٢٠٠ جندى، يقودهم ضابط «تعهد للسلطات بجمع السلاح من قرى المديرية جميعاً».. بالذوق.. بالقهر.. لكنه وجد أن

القهر هو الأفضل.. فقبض على الناس بالعشرات، كلهم مكتوفو الأيدى بالحبال، تتلقاهم الأيدى بالصفع، والأرجل بالركل.. «دون أن يعلموا شيئاً عن حقيقة ما يراد بهم سوى أن الحكومة هنا.. والحكومة تصنع هذا وسواه».. فكان أن أدرك الناس أن الحكم التركى - الذى انتهى - قد انتقلت أساليبه إلى المصريين.

قبض أيضاً على مشايخ القرية.. و«لعلع» الرصاص فوق رءوسهم.. وأمر كل منهم أن يملى على «الشاويشية» أسماء مائتى رأس أسرة ممن يملكون سلاحا فى البلدة، وأن يعين نوع قطع السلاح ومواصفاتها.. ثم.. راحت السياط «تطرقع» فى الهواء لتهوى بعد ذلك على أجسادهم وأجساد الفلاحين. فكان «أن بدأ الناس يعترفون بما ليس عندهم، ويطلبون مهلة لإحضاره من مكمنه البعيد.. وفى هذه المهلة ينطلق أبناؤهم وأقاربهم لشراء قطعة سلاح مطابقة للبيانات»، لإنقاذهم من هذا الجحيم.

إن الجهل. الخرافة. التخلف. الشيخ «النقيب» حلاق القرية. إرهاب السلطة.. أشياء حفرت فى داخل سيد قطب الكثير.. وفجرت فيه الكثير.. وغيرت فيه الكثير.. حتى أنه فى سنوات متأخرة، تالية لطفولته، لم يكن يستطيع أن يسترجع تلك الصور القديمة.. «دون أن يحس فى جسده بقشعريرة، تتخلل عظامه فى صمت، كأنما استحال دمه إلى ماء مثلوج»!

■ ■

على حد قوله.. نشأ فى أسرة «ليست عظيمة الثراء».. ولكنها «ظاهرة الامتياز».. ومن الممكن أن نقول إن والده الحاج «قطب إبراهيم» كان ممن يطلق عليهم «أعيان القرية» .. وقد اكتسب هذه الصفة الاجتماعية المتميزة بسبب سلوكه. وشخصه. واستنارته. والجريدة التى كان مشتركا فيها، وتصل إليه بانتظام، ليتجمع الرجال والشباب فى بيته يستمعون لما فيها من أخبار وتعليقات وقصائد شعر.. كما أنه كان ميسور الحال وإن لم يسلم من تناقص الثروة والأطيان بسبب تزايد الإنفاق.. إن عائلة الأب كانت فى وقت من الأوقات «عظيمة الثروة» ولكنها «توزعت وتضاءلت بالميراث».. كان نصيبه لا بأس به.. إلا أنه أخذ ينكمش، ويتضاءل حتى كاد أن

يتلاشى.. فالأب صار «عميد الأسرة، المكلف بحفظ اسمها ومركزها».. عبء كبير، أكبر من نصيبه المحدود في الميراث.. نفس الأعباء.. نفس تكاليف المظهر في الريف.. لكن بثروة أقل.. راحت بمرور الأيام تقل.

ثم.. إن الأب تزوج أكثر من امرأة.. أنجب من الأولى ابنه الأكبر «محمد قطب».. وأنجب من الأخرى «سيد» وشقيقتيه «حميدة» و«أمينة».. وكانت إحداهما تكبره بثلاث سنوات، والأخرى تصغره بثلاث سنوات أيضاً.. ثم.. إن الأب كان يقدر قيمة التعليم، فلم يبخل في الإنفاق عليهم.. ثم إن بيته كان مفتوحا لعدد كبير من الخدم، والفقراء.. يعملون فيه مقابل الطعام، والكسوة، والوقود.. ويلقبون صاحبه «عمي الحاج».. ثم إنه جريا على عادة أثرياء الريف كان يفتح بيته في المواسم والأعياد الدينية وطوال شهر رمضان للفقراء.. يأكلون ويشربون ويسمعون القرآن.. إن ذلك كله كان أكبر من قدرة الأب المالية.. فكان لابد من الاقتراض.. ومع عسر السداد، بدأت الأفدنة والمواشي التي تمتلكها الأسرة تتطاير.. وكان أن راحت الأم تبكي.. وتتهم زوجها بالإسراف.. ولم تكن لتملك سوى تحذير ابنها من تلك العادة التي أفقدت الأسرة معظم ما تملك!

الأم كانت من أسرة مماثلة لأسرة الأب.. أو «أعرق» على حد تعبير سيد قطب.. وقع لها ما وقع لأسرة الأب «حرفاً بحرف».. و.. «لكن زاد عليها أن اثنين من أخواله كانا قد أوفدا إلى الأزهر في القاهرة، شأن غالبية الأسر الريفية الثرية فأنشآ في الأسرة نوعا من الرقي العلمي بجانب الوجاهة الريفية».. وقد كان هذا يكلف الكثير.. لكنه كان يأتي باحترام وتقدير لا حد له.

إن القاهرة في ذلك الوقت بالنسبة للريفيين، ليست فقط «أم الدنيا»، وإنما «نهاية الدنيا» أيضاً.. وكان الذاهب إليها، ينظر له بعين الاعتبار كالذاهب إلى «الحجاز».. وقد قضى جد سيد قطب لأمه، هو وزوجه، سنوات طويلة من حياته في القاهرة.. عاشر أهلها.. تطبع بسلوكها.. وبعد أن عاد إلى القرية، وجد على أول الطريق أن مكانته قد تضاعفت.. وكان عليه، وقد جاء من مدينة المدائن.. ألا ينسى ما تعلمه منها وما عاشه فيها.. فشيد بيتا كبيوتها.. نظيفاً، منسقا، مميزا، تدور الحياة المعيشية فيه على

تقاليد ومستوى الناس فى القاهرة.. «وساعده المال على تحقيق ما أراد».

كان من الطبيعى - وسط هذا المناخ - أن يشعر سيد قطب «أنه فى وسط آخر غير وسط القرية».. ويسر له هذا الكثير.. وأعفاه من الكثير.. لكن.. لابد أن نكون قد أدركنا أن مميزات أسرة الأم الإضافية - التى جعلته يصفها بأنها أعرق - قد شدته أكثر إلى أمه.. ولا ننسى أنه كان «وحيدها».. وأن هذه الصفة لها مغزاها فى الأسر المصرية، الريفية، الصعيدية، خاصة فى تلك الأيام.. وقد ضاعف قربه من أمه وتأثيرها عليه أنها كانت تعده لأن يحقق حلمها الكبير، ويعيد لأسرته ما ضاع منها من ثروة وتميز.. ولا شك أن هذا الحلم تحول إلى خطة فى الذهن بعد أن عاد شقيقاها من الأزهر يحملان شهادة «العالمية».. ولا شك أن هذه الخطة جعلتها تصر على أن يكمل تعليمه إلى أقصى مرحلة ممكنة.. ومهما كان الثمن.

لم يمنعها هذا الحلم من حلم آخر، هو أن يحفظ ابنها القرآن.. فقبل أن يدرك الطفل ما حوله، كانت تجلس وهو معها، من وراء «الشيش» والقراء يتلون القرآن، فإذا ما حاول أن يلهو - كالأطفال - ويعبث، كانت ترده بإشارة حازمة، وهمسة حاسمة، فينصت معها إلى الترتيل لتشرب نفسه موسيقاه، وإن لم يفهم - بعد - معناه.. كانت تتمنى أن يفتح الله عليه، ويحفظ القرآن، وأن يرزقه الصوت الرخيم فيرتله لها [٢].. ويعلو شأنه.. ثم ... تضاعف الحلم بعد افتتاح المدرسة الأولية فى القرية.. فتحمست لأن يدخلها ابنها، فيعرف علوم «الأفنديات»، ويحفظ القرآن أيضاً!!.. أى أن الحلمين يمكن أن يتحققا معا.. فى مكان واحد.

حدث ذلك عندما ناهز السادسة من عمره.. وأصبح فى السن المعتادة التى يبدأ فيها الصغار مشوار التعليم.. وعندما حانت لحظة القرار انقسم الرأى.. «فريق يؤيد ذهابه إلى «الكتاب» ليحفظ القرآن، ويفوز بالبركة التى يفوز بها من يحملون كتاب الله على قلوبهم».. وفريق آخر «يؤيد ذهابه إلى المدرسة الأولية لأنها أرقى وأنظف، والقرآن يعلم فيها كذلك إلى جانب العلوم الأخرى».. وطال الجدل وهو لايدرى.. وعندما حسم الأمر، كانت الغلبة من نصيب فريق المدرسة.. الفريق الذى تزعمته

(٢) انظر إهداء سيد قطب لأمه فى كتاب «التصوير الفنى فى القرآن».

الأم.. استقر العزم على المدرسة.. وأبلغوه القرار.. فتلقاه بالقبول.. ولكن بغير حماسة ظاهرة.. فقد كان بالطبع يفضل اللعب فى الدار مع أخته التى تكبره.. والتى سترتبط به.- فيما بعد - ارتباطا قويا.. وتلعب دورا لا يستهان به فى توصيل أخباره وأفكاره وكتاباته من داخل سجنه إلى من يتلهفون عليها فى الخارج.. وكان بالطبع أيضاً يفضل اللهو مع أقرانه، واكتشاف سر «العفاريت» التى تمرح بحرية وثقة فى حوارى القرية.

إن الطفل الذى يلعب فى الريف طفل مدلل. لأنه لاينزل «الحقل»، ولا يجمع «الدودة».. وقد اعترف بنفسه أنه كان كذلك.. أو«كان مدللا بعض الشىء ».. ليس السبب يسر أسرته المادى فقط. وإنما لأنه «وحيد أبويه بجانب بنتين هو أوسطهما» أيضاً. لذلك فالتعليم بالنسبة له مشقة لم يتعودها.. مشقة لا مفر منها.. ولا سيما أنه كان يسمع من الكبار أن الكتاب «يقرض» الأولاد.. «أى يضعف صحتهم، ويعوق نموهم».. أما المدرسة «فقد كان يسمع عنها حديثا آخر لا يجعله آمنا فيها على العموم».

لم تمض أيام، حتى هُيئ للمدرسة.. جئ له بالطربوش بعد أن كان يلبس «الطاقية».. اشتُرى له حذاء جديد بدلا من حذائه الذى كان «نصف عمر» .. فصل له «قفطان» صغير بدل «الجلابية».. زى غريب، مبتكر يجمع بين ما يرتديه المشايخ والأفنديات، ه لا عهد للمدرسة به.. «جئ له به للترغيب والتدليل».. «وكان لهذا كله أثر حاسم فى اتجاهه للمدرسة، فبسببها كان هذا «العز».. و«التكريم».

الكتاتيب فى ذلك الوقت، كانت هى دور العلم الوحيدة فى الريف.. وعندما افتتحت المدرسة لم تؤثر عليها.. فحفظ القرآن كان قيمة.. وكان بداية الطريق للأزهر.. أعلى كيان علمى.. لذلك بقى الكتاب مع وجود المدرسة سنوات طويلة.. بل إن المثير للدهشة أن «سيدنا»، عريف الكتاب، انتقل للتدريس فى المدرسة دون أن يوقف نشاطه فى الكتاب ،عملا بقاعدة «زيادة الخير» .. كما أن المدرسة لم يذهب إليها إلا من فشل فى حفظ القرآن فى الكتاب .. باستثناء سيد قطب الذى دخلها بقناعة أهله.. وقد شاء القدر أن يبدأ عهد التعليم العام، المدرسى، العصرى، فى وقت

مناسب جداً بالنسبة لعمر سيد قطب.. حتى أن القول بأنه من الجيل الأول لهذا النوع من التعليم فى الصعيد، قول لا يجافى الحقيقة.. ولا يبتعد عنها.. ولابد أن ذلك أثر فى تحويل مجرى حياته ..فلو لو تكن المدرسة قد افتتحت فى القرية لكان فى أفضل الأحوال قد حفظ القرآن فى الكتاب، ثم سافر مثل أخواله للقاهرة ليدرس فى الأزهر، لينتهى به الأمر شيخاً، معمماً، لا يقرب العلوم العصرية - مثل الفلسفة والمنطق وعلوم النفس والجمال والاجتماع - إلا بقدر ما تقتضيه العلوم الدينية!

تقسيم فصول المدرسة كان مرتبطاً بسن الأولاد لا بمستوى الفهم والاستيعاب.. الأطول قامة هم المرشحون للسنة الرابعة. الأصغر والأقصر منهم فى السنة الثالثة.. وهكذا.. ولكن.. هذه القاعدة «لم تكن متبعة مع أبناء الأسر المعروفة ولا الأسر الثرية» فقد كان هؤلاء بحكم أسرهم يحتلون مقاعدهم فى الفرق العليا، ولو لم تؤهلهم لذلك أجسامهم».. كانت تلك الفرق من نصيب سيد قطب بالطبع، لكن ناظر المدرسة الذى أنس فى والده «شيئاً من التنوير والمعرفة»، تحدث إليه بصراحة.. وبين له أن مصلحة ابنه أن يبدأ من أول السلم.. من السنة التحضيرية.. وقد كان.

فى السنة الثانية، حدثت مفاجأة لم تكن متوقعة.. استغنت المدرسة عن خدمات عريف الكتاب.. لم يكن يحمل شهادة.. ولم يكن يعرف شيئاً من الحساب ولا المواد الأخرى.. واستبدلوه بمعلم متخرج فى «كلية المعلمين» .. وكان هذا القرار كالقنبلة «الموقوتة».. انطلقت الشائعات تهز القرية هزا عنيفا.. «الحكومة تحارب القرآن».. «الحكومة تريد محو القرآن بعدم تحفيظه فى مدارسها».. وتحولت الشائعات إلى فزع لا يقل خطراً عن فزع الأوبئة.. فراح الناس يخرجون أبناءهم وراء «سيدهم الشيخ أحمد».. «فراراً بدينهم من مدرسة الكفر والضلال التى تسرق الحكومة دينهم فيها.. وهم لا يشعرون»!

ولم يصل دوى القنبلة إلى الحاج «قطب إبراهيم».. حماه تفتحه من الانسياق وراء الشائعات.. فلم يخرج ابنه من المدرسة، لكنه - ودون أن يدرى - قابل «سيدنا» مصادفة، ودون أن ينتبه وعده بأن ينتقل «سيد» من المدرسة إلى الكتاب...وثارت الأم.. وغضبت.. وبكت.. وتوسلت.. فها هى أحلامها الكبرى تجهض وتتحطم قبل

أن تبدأ.. إنها كانت - على حد اعتراف سيد قطب نفسه - «مصرة على بقائه فى المدرسة لأنها مفتاح تلك الآمال الطوال العراض التى تعلقها على طفلها الصغير».. لكن.. كل انفعالات الأم طاشت.. تلاشت، أمام إصرار الأب.. لقد وعد.. «وما يجوز أن يرجع الرجال في وعودهم».

نفذت مشيئة الأب.. وصباح اليوم التالى، كان على «سيد» أن يأخذ طريقه إلى الكتاب.. إنه لا يذكر «أن قلبه الصغير قد عرف من قبل مثل هذا الهم الذى عرفه فى ذلك اليوم، ولا أن صدره قد ضاق وحرج واكتأب كاليوم أيضاً».. لقد اعتاد كل صباح - مع الندى والخضرة - أن يستقبل مبنى المدرسة النظيف.. الأنيق.. ذا الحجرات المطلية «بالجير» والفناء المفروش بالرمل.. واعتاد أن يجلس على مقاعد المدرسة وأمامه «قمطره».. وفيه الكتب والأدوات والكراسات.. ولوحة الإردواز الأنيق.. إن من المحزن والمؤسف ألا يذهب إلى المدرسة بكل ما فيها.. ومن المحزن والمؤسف أكثر أن يذهب إلى الكتاب.. حيث لا مقاعد «ولا حجرات ولا جرس ولا صفوف ولا كتب ولا أدوات ولا كراسات» ،«وإنما هو لوح من الصفيح، يكتب فيه التلاميذ بحبر مصنوع من زهرة الغسيل أو «هباب» المصابيح، أو من مواد تشبههما.. وهم يحملون الدواة والقلم فى أيديهم أينما ذهبوا فإذا «سمع» لهم سيدنا «الألواح» ووجدهم قد حفظوا، أذن لهم أن يمسحوها وأن يكتبوا آيات أخرى من القرآن فيها» ... كانت طريقة المسح قذرة أيضاً.. بل كانت أشد قذارة.. «إذ يبصق التلاميذ فيها ، ثم «يدعكونها» بأيديهم، ويمسحونها بطرف ثيابهم.. لذلك تبدو ثيابهم دائماً ملوثة بالحبر».

إن حب سيد قطب - الذى ظهر بوضوح فيما بعد - للحياة المريحة، المرفهة، قد بدأ معه منذ طفولته.. كما أنه - ومنذ الطفولة أيضاً - كان من الرجال الذين يراعون المظاهر، ويحافظون عليها، ويعمل لها ألف حساب.. ولعل هذا يفسر لنا سر فزعه من السجن فى الخمسينيات والستينيات، وانعكاس ذلك على الكثير من أفكاره.. وتصرفاته!!

لقد هاله.. فى ذلك الصباح.. الذى عاد فيه إلى الكتاب - أن سيدنا حين يصحح

الألواح للأولاد بالمداد الأحمر «ويلاحظ فيما كتبوا غلطا، يبادر بلحس الكلمات المغلوطة بلسانه، ومسحها بطرف كفه، ليكتب بدلا منها الكلمة الصحيحة».

إنه لخص مشاعره فى كلمة واحدة موحية : الاشمئزاز!

بعد انتهاء اليوم، صمم ألا يعود إلى الكتاب.. إلى ذلك «المكان القذر»!

وصباح اليوم التالى أخذ طريقه إلى المدرسة!

بعد الظهر «عاد إلى الدار مع زميلين له، وأقنعوا والده بأن ابنه خسارة فى الكتاب».. كان الزميلان من قرية أخرى مجاورة.. غرباء عنها.. ضيوفا عليها.. فاضطر الأب إلى قبول رجائهما.. واعتذر لسيدنا بهذا العذر حينما جاء يسأل عن «سيد».. لم يعجبه ذلك العذر.. «فانصرف وهو يحوقل ويستعيذ من رسل الكفر والضلال».

إن حجة «الكتاب» الكبرى أنه يعنى بتحفيظ القرآن.. بينما المدرسة تهمله، ولا تستطيع أن تخرج تلميذا واحداً يحفظه ، وهى حجة كانت قوية بالفعل فى بيئة متدينة محافظة ، ترفع من يحفظ القرآن إلى مرتبة لا يطولها معظم الناس.. حجة لا يمكن النفاذ منها.. فماذا يفعل، وهو يريد المدرسة ويرفض الكتاب، ويخشى أن يتكرر ما حدث؟!.. أرهق نفسه وصحته - المرهقة أصلاً - وراح يسهر الليل إلى منتصفه ليحفظ القرآن.. بجانب الدروس الأخرى.. استكمل بنفسه ما ينقص المدرسة.. وما يكاد العام يكتمل حتى يكون «قد حفظ ثلث القرآن، حفظاً جيداً، يباهى به من يتحداه».

فى نهاية السنة الرابعة كان قد حفظ القرآن، وانتهى من دراسته الأولية معا.. كان لا يزال طفلاً.. فى نحو العاشرة تقريباً!

لابد أن نلاحظ هنا أنه شرب من نبعين، وتعلم فى اتجاهين، وتعرض - دون أن يدرى - لما يسمى «الازدواج الثقافى والتعليمى» .. وكان ذلك فى سن مبكرة.. على عتبة المراهقة.. وهذا التناقض يجعل من يتعرض له فى تناقض حاد.. يفرض عليه التأرجح أحياناً.. والانتقال الحاد من الضد إلى الضد أحياناً أخرى.. وقد حدث له هذا بالفعل - فيما بعد - عندما انتقل من مرحلة «الشك» والتحليق فى آفاق

الحضارة «الغربية» إلى مرحلة «الكفر» بها والانقضاض عليها، رافعا فى مواجهتها نموذجه الإسلامى المتطور.. أو عندما انتقل من مرحلة الإلحاد والإباحية والجدل المطلق إلى مرحلة «حاكمية الله» ورمى المجتمع بالكفر والجاهلية.. إن الانتقال بتطرف على هذا النحو استغرق ٤٠ سنة من حياته : أى حوالى ثلثى عمره.. وهى فترة غير هينة!

إنه كان فى حاجة لكل هذه السنوات ليفض الاشتباك الثقافى الذى تعقد فى داخله.. كان فى حاجة لكل هذه السنوات ليكتشف أن التناقض الذى عاشه، والتحولات التى تردد بينها، كان سببها أنه عاش على مصدرين فى التلقى.. لقد قال وهو يبرر آخر ما انتهى إليه من أفكار ونظريات :

«إن الذى يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة، كان عمله الأول فيها القراءة، والاطلاع فى معظم حقول المعرفة الإنسانية.. وما هو من تخصصه، وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً، ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك - وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين فى التلقى! [٣]

جيل سيد قطب كان أول الأجيال المعاصرة التى عانت من تلك المشكلة.. مشكلة ازدواجية التعليم وانقسامه «المدرسة - الجامعة - ومعاهد وكليات الأزهر» وقد راحت هذه المشكلة تتفاقم وتتفاقم حتى امتدت من المفكرين إلى البشر العاديين.. ومن البشر العاديين إلى المجتمع كله.. فحدث الكثير من التناقض والكثير من الانفصام الثقافى، والحضارى، والاقتصادى.. فى الأفكار «العلمانية والشريعة» .. فى الزى «الملابس الأفرنجية والجلباب وملابس الشيوخ».. فى أساليب فض النزاع «القوانين الوضعية وحدود وقوانين الشريعة الإسلامية».. فى الاستثمارات «الشركات المساهمة والفردية والشركات التى تحمل الصفة الإسلامية »فى

---

(٣) سيد قطب - «معالم فى الطريق» - طبعة دار الشروق ١٩٨٠ -ص ١٤٣ وص ١٤٤ .

السلوكيات اليومية «الفرنجة والمحافظة».. فى صورة الحكم «الديمقراطية الغربية والحكومة الإسلامية» .. فى كافة نواحى الحياة.. فكان من الطبيعى أن نعرف القلق والاضطراب. التكفير. العنف. الصراع الذى لايتوقف بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين المجتمع!!

ما حدث لسيد قطب حدث لغيره.. وسيحدث.. فالكثير من المفكرين والأدباء والسياسيين انتقلوا ١٨٠ درجة دفعة واحدة.. كان منهم الملحد الذى أطلق لحيته.. والشيوعى الذى تطرف فى إسلامه.. والفاشستى الذى قاتل فى جبهة ثم انتقل للقتال فى الجبهة الأخرى.

إنه ذلك الازدواج الذى يحولنا إلى حبات «فشار» نتراقص فى كل الاتجاهات على صفيح تسخنه الظروف والأحداث.. ثم هو ذلك الانفصام الذى يجعل الشاب راديكاليا، والرجل ليبراليا، فإذا ما وصل إلى مرحلة الشيخوخة تصوف أو ظل فى المسجد أطول وقت ممكن.

مشكلة حسمها، قارئ ومفكر، ومطلع فى أربعين سنة، فكم من العمر يحتاجه المجتمع الذى ترعى فيه الأمية، والخرافة، ليحسمها؟!

■■

ثلاثة ممن تخرجوا مع سيد قطب فى مدرسة القرية، قرروا الالتحاق بمدرسة «المعلمين» المتوسطة فى البندر.. «المدينة».. كانوا أكبر منه بخمس سنوات.. دخلوا المدرسة بعد أن حفظوا القرآن فى الكتّاب، فتخرجوا فى سن لائقة للقبول فى مدرسة «المعلمين».. اهتزت القرية لهذا الحدث اهتزازاً.. «إذ سيصير هؤلاء بعد سنوات أفنديات كأفنديات المدرسة الذين تخرجوا من تحت أيديهم».. أما هو فلم يكن يملك إلا أن يحلم بتلك المدرسة التى يتخرج فيها الأفنديات.. كان «يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيرى نفسه فى مثل سنهم فتقبله مدرسة المعلمين».. فقد حال صغر سنه دون قبوله فورا .. وكان عليه أن يترك المدرسة ليخلى مكانه لقادم جديد ..أحس بالألم .. فلا هو سيدخل مدرسة المعلمين، ولا سيستمر فى مدرسة

القرية.. فماذا يفعل؟ .. بسبب علاقة والده بناظر المدرسة كان الحل الوحيد المناسب أن يعاد قيده فى السنة الرابعة مرة أخرى على أنه طالب مستجد!

■ ■

تمر الأيام..ويحضر العلماء وطلاب الأزهر فى العطلة إلى القرية.. إنهم منتفشون، يحسون بالزهو والتميز .. وفى تواضع يكاد يتفجر غروراً، يتطوع عالم منهم بإلقاء درس من دروس «التفسير» على الفلاحين فى أحد مساجد القرية.. يجلس على مقعد.. يلتف حوله الفلاحون الأميون.. يسحب من صدره «ملزمة» من تفسير «الزمخشرى» .. ثم .. «يروح يتلوه عليهم».. وبين آن وآخر يصفق بيده.. ويقول:

- مفهوم ؟!

فيجيب البعض:

- مفهوم.

ويمضى يصب عليهم «ما فى الزمخشرى من بلاغة ونحو وصرف وتأويلات لا يدرون منها شيئاً! ».

ولأنه كان حريصا على تقليد الكبار ويريد أن يستعجل الرجولة، كان يحضر هذه الدروس.. وكان أن سأل الشيخ مرة عن حذف حرف «الباء» من إحدى الكلمات التى قرأها فى الزمخشرى.. رفع الشيخ رأسه بلا اهتمام، ثم مضى يقول وكأنه يستمر فى التلاوة: «ياسيدى حذفت الباء اعتباطا للتسهيل».. وكان أن تصور الصغير أن «اعتباطا للتسهيل» شيء من علم الأزهر لا يصل إليه مستواه فى القرية.. ولم يعرف مدى جهل الشيخ إلا بعد أن كبر.

إن تلك المشاهد والمواقف لرجل الدين الذى لا يعرف كيف يمد جسر التفاهم بينه وبين الناس، جعلته يؤمن - فيما بعد - أن رجل الدين ليس «ببغاء» يكرر ما يحفظه دون أن يعرف مستوى الناس من حوله.. كما أنه لايجب أن يكون متعاليا، منتفخاً على من حوله.. كذلك لا يجب أن يقول ما لا يعرفه.. لقد بقيت هذه المشاهد والمواقف محفورة فى ذاكرته.. وأثرت فيه كثيرا.. جعلت أسلوبه سهلاً،

مفهوماً، رغم جماله لا ينفصل عن لغة العصر.. وجعلته يضاعف من اعتقاده بعدم جدوى قراءة كتب الفقه والتراث لأنها شديدة التعقيد.. ولأنها تتحدث عن زمن غير الزمن.. لبشر غير البشر.. ولأنها تجعل رجال الدين يدورون حول العصر ومشاكله. ولا يخترقونه.. فكانوا مثل «سيزيف» الذى كتب عليه أن يرفع حجرا إلى قمة الجبل، فإذا وصل القمة، تدحرج الحجر إلى السفح.. وعليه أن يرفع الحجر من جديد.. ليسقط الحجر من جديد .. وهكذا.. مجهود هائل .. لكنه ضائع!

لقد خشى سيد قطب أن يكون مثل أولئك المشايخ.. يدور حول نفسه ولا يصل إليها.. يدور حول الناس فلا ينفعهم.. يدور حول المجتمع فلا يقترب منه.. فكان أن رفضهم .. وهاجم أزهريتهم.. وانتقد أسلوبهم.. بل.. إنه حتى رحل عن العالم ، لم يكن يرى أن من الضرورى أن يكون لهم زى مختلف.. وهو بهذه المناسبة قال : (٤)

«.. حتى تلك الأزياء الخاصة للمشايخ، والدراويش.. إنها ليست شيئاً فى الدين، فليس هنالك زى إسلامى وزى غير إسلامى، والإسلام لم يعين للناس لباسا، فالملبس مسألة إقليمية، ومجرد عادة تاريخية. ومحمد بن عبدالله لم يلبس جبة وقفطانا، أو قفطانا و«كاكولة» وإنما لبس ثيابه العربية التى كان يلبسها قومه وجيله. كذلك لبس المسلمون فى فارس ثيابهم الفارسية، والمسلمون فى مصر ثيابهم المصرية»... وفيما بعد.. وهو ينتظر حكم الإعدام.. لم يكن قد خلع ثيابه الأفرنجية.. التى أصبحت بحكم العادة.. مصرية!

■ ■

قبل أن يغادر مدرسة القرية، فتحت المدرسة أبوابها للبنات ليتعلمن مع الصبيان.. بعض الآباء قبلوا أن يرسلوا بناتهم إلى المدرسة.. لاسيما وهن بنات صغيرات لا يتجاوزن العاشرة.. كان عددهن فى المدرسة سبع بنات.. ورغم أنهن لا يمتزن بشىء عن بنات القرية.. فإن «وجودهن فى المدرسة أشاع جوا غريباً».. وعطرا خاصا.. على حد قوله فيما بعد.. إن ذلك الجو «كان مزيجا من الحساسية الحادة، والرغبة المكبوتة فى محادثة هذا الجنس الغريب فى المدرسة».

---

(٤) سيد قطب - مقال بعنوان «شبهات حول الإسلام» .

لم تمنع التقاليد الصارمة ولا عقاب الناظر بعض التلاميذ - لاسيما الكبار منهم - أن يعاكسوا البنات «عند انصرافهن من المدرسة».. بالكلمة العابرة.. بالكلمات النابية.. بالحركات.. بالأصوات.. كان خجولاً فلم يجرؤ على مجاراة أقرانه.. كان يمتلئ - مثل الآخرين - رغبة فى أن تلتفت البنات إليه.. أن ينجذبن نحوه.. مساحة كبيرة بين الرغبة والخجل قطعها ببراعة وبذكاء يتناسبان مع طباعه وتكوينه النفسى.. راح يلعب دور «الفارس» .. «الشهم» الذى يتدخل فى الوقت المناسب ليدافع عن كرامة البنات «إذا ما وجه لهن اعتداء».. فكان أن كسب «الموقعة بلا نضال ».. وإذا به يجد البنات السبع يطرقن باب بيته، ويسألن عن شقيقته الصغرى.. فأحس «بنشوة لم يشعر بمثلها قط».. بعد أن أدرك أنه المقصود بهذه الزيارة لا أخته الصغيرة!

من بين البنات السبع اختار قلبه الصغير إحداهن.. كان يميل إلى فتاة وصفها بأنها.. «خمرية اللون. ذات طابع خاص. غير مكرر فى الوجوه. لم تكن حسب مقاييس القرية جميلة. فليست بيضاء البشرة. وليس أنفها دقيقا بالقدر المطلوب. وليس فمها كذلك «خاتم سليمان».. ولكنها هى وحدها «من بين بنات المدرسة، بل من بين بنات القرية جميعاً التى كانت تبدو فى نظره جميلة».. كان سر جمالها عنده. «أنها ذات طابع خاص».. وإن لم يدرك فى ذلك الحين معنى «الطابع الخاص».

فيما بعد.. عندما ترك القرية إلى القاهرة.. لم ينس حبه الأول.. فى فوران العاصمة كان وجه الفتاة يصل إليه عبر الخيال.. فينتفض قلبه.. إن مدينة المدن بكل ما فيها من جمال وأنوثة لم تُنسه هذا الوجه، ولم تفرض عليه نموذجا للجمال غير هذا النموذج.. بعد ثلاث سنوات عاد - فى زيارة - إلى القرية.. حياته وثقافته ونظرته إلى الأمور تغيرت.. لكن حبه - على ما يبدو - لم يتغير.. بعد طول تردد سأل عن الفتاة.. جاءت الإجابة المتوقعة.. تزوجت وتعيش فى جهة نائية عن القرية.. وكان أن انسحب بمفرده واختلى بنفسه، ودون أن يدرى رأى عينيه تغرورقان بالدموع!

إن علاقة المفكر والأديب بالمرأة علاقة حيوية.. تكشف لنا الكثير من أفكاره

وتكويناته.. إنها تجعلنا نضع أيدينا بسهولة على شخصيته.. وغالباً ما تكون فى حياته أكثر من امرأة.. وغالبا ما تولد وتنمو وتموت علاقته بالمرأة فى داخله.. والهزيمة العاطفية قد تجعله متطرفا فى التعامل معها.. متعاليا عليها.. مندفعا لتأكيد ذاته من الناحية الاجتماعية.. فيوصف أحيانا مثل العقاد وتوفيق الحكيم بأنه «عدو المرأة» فيسعده الوصف، وينفخ ذاته.. وأحيانا يستسلم ويوقع على عقد الزواج.. وأحيانا يفوته القطار فيسعد أكثر لأنه قاوم كثيراً.

ولا نعرف الكثير عن حياة سيد قطب العاطفية.. فهل كان مثل صديقه العقاد عدواً للمرأة.. إن هناك من يؤكد أنه عاش سنوات طويلة عاشقاً مهزوما بعد تجربة اهتز لها كيانه.. وأنه لم يتخلص من قسوة ما عاش إلا بعد أن حول التجربة إلى أدب، وصاغ ما جرى فى رواية لا يكاد يمسها الخيال من بعيد أو قريب أسماها «أشواك» صدرت عام ١٩٤٧ .. فهل كانت تلك التجربة السبب فى إضرابه عن الزواج؟!

والذى يقرأ - بعد صفحات - ما كتبه عن رحلته إلى أمريكا، سيجده يصف بإتقان المرأة هناك.. ويتحدث عن خبرتها فى إبراز فتنتها.. يتحدث عن «العين الهاتفة، والشفة الظامئة».. يتحدث عن «الصدر الناهد، والردف المليء ، والفخذ اللفاء والساق الملساء».. يتحدث عن الفتنة الحية الصاعقة، الضحكة المثيرة، والحركة الجريئة.. فهل دفعه ما رآه للتطرف فى الفضيلة؟!

ولابد أنه شيء يثير الدهشة والاستغراب أن يعترف بأنه إنسان له قلب ومشاعر مثل باقى البشر .. يحب ويهزم .. يتأمل ويتوب .. ينفعل ويهتز ،ثم يسحب منه تلاميذه ومن ساروا على نهجه هذا الاعتراف .. ويأبون عليه أن يكون مثلنا .. أن يكون بشرا .. ويكتفون بما يفيد فقط صلابته ، وصرامته ، وتجهمه .. وكأن على المفكر المتطرف أن يولد بلا قلب .. وألا يحس ، ولا ينفعل ، ولا يضعف .. كأن تلك الانفعالات ضد الفكر .. ضد التطرف !.

بين الحين والآخر كان «عم صالح» يصل القرية.. وما يكاد يسمع بخبر وصوله، حتى يقفز من مكانه، تاركا كل ما فى يده، ويعدو حتى يصل إليه فى السوق.. «عم صالح» هو بائع الكتب المتجول الذى يحمل على كتفه «زكيبة تمتلئ بالكتب المنوعة.. يصل عددها أحيانا إلى ثلاثين كتابا.. قصص أبى زيد الهلالى.. الزير سالم.. الزناتى خليفة.. البردة.. سيرة سيدى إبراهيم الدسوقى.. «السيد البدوى مع بنت برى».. «إعلام الناس فيما جرى للبرامكة من بنى عباس» «الأميرة ذات الهمة».. «دلائل الخيرات».. «دعاء نصف شعبان».. «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» .. روايات بوليسية تحكى مغامرات شرلوك هولمز.. واللص الشريف أرسين لوبين.

فى زكيبة عم صالح أيضاً كانت قائمة أخرى من الكتب السرية التى كان يخفيها.. وما خفى كان أغلى وأكثر إثارة.. «ألف ليلة وليلة».. كتاب «أبى معشر الفلكى فى التنجيم».. كتاب «شمهورش» فى السحر.. كتاب «الفوائد الطبية» فى الطب.. والطائفة الأخيرة من الكتب لم يكن عم صالح ليكشف عنها إلا للخواص من زبائنه. وقرائه، ولا يسلمها لهم إلا بعد أن يأخذ عليهم عهد الله ألا يستخدموها فى مضرة الناس.. ولأن كل ممنوع مرغوب.. كان لهذه الكتب «جو سحرى» غامض.. يتم فيه التبادل بنفس الخطورة التى يتم فيها توقيع المعاهدات.

لقد قرأ كل ما كانت تحمله «زكيبة» عم صالح من كتب .. كان ينفق كل مصروفه عليها.. وكان يشترى بعضها، حتى أصبح يقتنى مكتبة ضخمة، تملأ «صفيحة» كاملة.. تضم خمسة وعشرين كتابا.. ولابد أن ما قرأه، وما اقتناه كان منوعا.. منتميا لأكثر من عصر، وأكثر من حضارة.. ولابد أن هذا التنوع زاد - دون أن يدرى - من حجم بذور الانفصام الثقافى.. فانتقل «الشرخ» من التعليم إلى الثقافة.. من المدرسة وكتاب تحفيظ القرآن إلى «زكيبة» عم صالح.

■■

بسبب القراءة، واقتناء الكتب اشتهر سيد قطب فى أوساط المثقفين فى القرية.. ارتفع فى نظرهم.. طالت قامته فى عيونهم.. وتنبأ الجميع له بمستقبل زاهر.. وقد كان!

فتحت الكتب نوافذ وعيه الأدبى.. وحسه الثقافى.. وفى دار والده بدأ فهمه السياسى والوطنى.. إن دار الحاج «قطب»، كانت مقر اجتماعات لجنة الحزب الوطنى «أسسه المحامى الشاب، الجرىء مصطفى كامل» فى القرية.. وقد كان الحزب «الوطنى» لا يطالب بجلاء «الانجليز فقط» ، وإنما بالعودة إلى الخلافة الإسلامية فى تركيا أيضاً.. لذلك كانت ملامحه الوطنية متداخلة - كفن المنمنمات - مع ملامحه الدينية.. لذلك أيضاً .. لم يكن غريبا أن يسمع الفتى فى بعض هذه الاجتماعات اسم «أفندينا عباس» لأول مرة.. ولا أن يسمع أسماء أخرى - لم يعرف أصحابها إلا فيما بعد - مثل «الشيخ عبدالعزيز البشرى».. و«محمد فريد».. و«أنور باشا رستم»!

شعور القرية - فى تلك الأيام - كان متجها إلى تركيا.. دولة الخلافة.. وكان ضد «الحلفاء» الذين يمثلون - فى رأى الفلاحين - «الكفرة»، الذين «يصارعون دولة الإسلام».. وكان هذا الشعور يترجم إلى اجتماعات سرية لم يكن مسموحا له بحضورها.. رجال يتسللون، وأبواب مغلقة، وأصوات تجرى همساً.. شىء مثير غامض، يلقى فى روعه إحساسا لايدريه ، ولكنه «اللذيذ».. يفرض عليه ترقب شىء ما سيحدث مع الأيام!

شيئاً فشيئاً أخذ يشارك الكبار فيما يخوضون فيه.. إنه الآن وقد وصل السنة الرابعة الأولية.. ثم .. إنه يقرأ الكثير من الكتب والأشعار.. ثم.. إنه كثيرا ما يتولى - بدلا عن والده - قراءة الجريدة للجمع الحاشد الذى يحضر لاستماعهم فى منزلهم، فلماذا لا يشارك فيما يخوض فيه الكبار؟!

مرت الأيام .. انفجرت ثورة ١٩١٩..

أغلقت المدرسة لأجل غير مسمى.. وخطب الناظر فى التلاميذ قائلاً: «إنه وزملاؤه ذاهبون للعمل فى الثورة، فهذا واجب على كل إنسان!» .. لا مدرسة .. وإنما ثورة .. فماذا يعمل فى هذه الثورة ؟!

لم يجد أمامه سوى كتابة الخطب الحماسية، التى راح يلقيها فى المساجد والحقول، وضمنها «أبياتا من الشعر كان يحسبها موزونة، وهى متهالكة»!

«لقد نفخت الثورة المقدسة فى الجميع، فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة ولو كان طفلاً صغيراً مثله لم يتعد العاشرة إلا بقليل»!

وفى تلك الأيام ، كان الاسم المقدس الجديد هو اسم سعد زغلول!

■ ■

دائما.. كان يرى أمه تبكى..

لكنه.. ما يكاد يسألها : «مالك يا أمى؟»، حتى تتكلف البشاشة، وتجيبه، وهى تضمه إلى صدرها فى حنان:

- «لا شىء ! لا شىء ! متعبة قليلاً».

هذه المرة كانت تبكى «بكاء صريحا» .. كان فى العاشرة.. وعندما سألها، لم تتكلف البشاشة، ولم تدار الألم، وراحت دموعها «تنحدر من مآقيها انحداراً».

طلب منها ألا تبكى..

قالت :

- «لن أبكى يابنى مادمت تعيش».. البركة فيك أنت وأبيك.. أنتما عندى كفاية.. بالدنيا!

حاول أن يعرف منها ما جرى..

قالت له:

- أقول لك يا «سيد» وتعدنى أن تكون رجلاً؟!

هزته كلمة «رجل» فقال:

- بكل تأكيد!

قالت :

- لقد باع أبوك اليوم قطعة أرض!

تساءل فى براءة:

- «ولكن لماذا يبيع أبى هذا الطين؟».

قالت:

- «لأنه كان عليه نقود للناس، ولابد أن يردها لهم!

لم يكن الجواب شافيا.. «فلماذا يكون عليه نقود للناس؟.. وكيف يكون ذلك وهو يرى النقود دائما فى كيسه الأبيض الطويل، كثيرة. وهو يشترى كل شىء من هذه النقود».. أسئلة بريئة.. محرجة.. أدركت الأم بعدها أنها أخطأت. وتعجلت ميعاد الإفضاء إلى الطفل الصغير بما هو أكبر من قدرته على الاستيعاب.. فكان لابد أن تنهى المناقشة.. تصرفه عنها.. لكنه أصر على أن يعرف.. تبسطت معه فى الشرح.. قالت:

- إن والدك ينفق كل عام أكثر من إيراده.. ولابد أن يؤدى الفرق ببيع بعض الأطيان!

أفزعته الحقيقة.. أدرك الكارثة.. قال :

- «لا يا أمى لن نبيع بيتنا ولا حقلنا ولا بهائمنا.. لن نبيع بقرتنا الكبيرة!!»

كأنما استروحت الأم ريح الأمل فى كلمات طفلها الساذجة.. قالت:

- «ربنا يسمع منك يابنى»!

ضمته إلى صدرها.. أضافت:

- «اسمع يا «سيد».. أنت عليك أن ترجع ما يفقده أبوك»!

تعجب :

- كيف؟

قالت:

- «حين تكبر ستذهب إلى مصر عند خالك، فتتعلم هناك وتصبح «أفندى»، ويكون لك مرتب، وعندئذ تتذكر أن أطياننا فى البلد تباع بسبب إسراف أبيك فى

النفقات، فتحرص على النقود، ولا تبذر كأخيك الأكبر أيضاً، بل تنفق الضرورى فقط، وعندئذ يكون فى جيبك نقود كثيرة فنشترى بها هذه الأطيان التى نفقدها..».

اندفعت فى أحلامها.. آمالها.. خيالها.. بينما كان هو يسبح بخياله فى اتجاه آخر.. سافر بخياله إلى القاهرة.. إلى عالم «الأفنديات» الذى سينتمى إليه.. فلم يسمع منها باقى ما قالته.

إن فى القاهرة خاله المتخرج فى الأزهر.. المعلم.. الصحفى.. الأفندى.. والذى سيقيم معه.. وسيرعاه.. والذى تقيم معه جدته التى «يحبها إلى درجة العبادة، ويراها فى فترات بعيدة»!!

■■

بعد سنوات، وسنوات، أمسك سيد قطب قلمه ليكمل بأسلوبه العذب، الموحى، السهل، القصة.. قال:

«آن له أن يهجر القرية فما عاد له فيها بقاء» ..

إن هناك مهمة تنتظره.. إنه مجند أعد للكفاح.. مجند لهذه المهمة التى أعدته لها أمه، وأخفتها عنه منذ أول يوم ذهب فيه إلى المدرسة، ثم كشفت له عنها يوم دخل عليها فرآها تبكى.. إن عليه أن يسترجع للأسرة ما تفقده من مركز ومال..

تلك كانت الكلمات التى سمعها من أمه وهى تعده للرحيل.. للسفر إلى القاهرة، عند خاله ليتعلم.. فلقد بدأ يراهق وغادر المدرسة فى القرية منذ عامين، ولولا الثورة، وانقطاع المواصلات، واضطراب الأحوال، لسافر منذ ذلك الحين، ولكن هاهى ذى الحالة تهدأ، وتساعده، وهو يشتد، والمهمة التى جند من أجلها تستعجله.. فليسافر على بركة الله..

«وسمع نساء القرية يقلن لأمه.. «مبروك يا اختى مبروك».. إن هذا الصغير هو الذى سيرجع ما ضاع كله، وسيكون شأنه شأن.. فلان!»

كان «فلان» ابن رجل فى القرية، أنفق عليه والده بسخاء

حتى حصل على شهادة «العالمية».. ثم «فتح الله عليه، فطار صيته، وحالفه الحظ، واسترجع ثروة أبيه الضائعة، وزاد عليها أضعافاً»!

■■

حانت لحظة الرحيل..

كان الترتيب أن يسافر إلى القاهرة مع ذلك الأفندى الذى يتعلم فى الحقوق، وتربطهم به صلة المصاهرة العائلية، ليسلمه إلى خاله.

الأم - التى ظلت تستعجل السفر - أحست الآن فقط أن «الفراق الحقيقى شىء غير الفراق فى الخيال».. الأب، ظل متماسكا متجملا «ما ظل صامتا، فإذا تحدث اختنقت فى صوته الكلمات».. أما هو فكان «مختلط الإحساس، موزع النفس، شارد الفكر، لايدرى أهو مستبشر بالسفر إلى القاهرة التى حلم بها سنوات أم هو آس على فراق عالمه الذى صاحبه سنوات».

ودعه الأب.. ثم عاد إلى الدار.

سألته الأم:

- سافر؟

قال:

- سافر!

ثم.. انفجر يبكى كالأطفال.. وراحت الأم تواسيه.. ثم.. خلت إلى نفسها.. وانفجرت بالبكاء!

صغيرا. قلقا. مضطربا. مشدودا. حالما. سافر سيد قطب إلى القاهرة.. أم الدنيا.. آخرها.. مصنع الأفنديات.. وعندما دخلها لم يكن يعلم أن كتيبة كاملة من الأقدار كانت فى انتظاره!

٢

وعلى الدنيا .. السلام!

- الذين عرفوه
- القاهرة فى الوقت المناسب
- فى كلية حسن البنا
- فترة الضياع
- أيام الإلحاد
- مع العقاد ضد الرافعى
- طه حسين مدرسة بلا تلاميذ
- النقد يسبق الإبداع
- انحياز لشعراء الغزل
- حماس لنجيب محفوظ
- نداء المجهول
- إلى الحكيم من أمريكا
- كيمياء بدون فلسفة وميكانيكا بدون أخلاق
- الرحيل الإجبارى إلى الدفء

«كان لونه يتغير سريعاً عند الانفعال والمفاجآت التى تسره.. أو التى تزعجه» !

هكذا.. قال الذين عرفوا سيد قطب عن قرب.. وهم كثيرون.. أكثر مما نعرف، ومما نتصور.. عدد هائل من نجوم الأدب والشعر والصحافة، الذين نعرفهم، عرفوه.. بعضهم رحل.. مثل العقاد. طه حسين. أحمد حسن الزيات. محمد مندور. عزيز أباظة. أحمد شوقى. الرافعى .. توفيق الحكيم .. يحى صقر .. حسين فوزى .. إحسان عبد القدوس وبعضهم نحمد الله على أنه لايزال بيننا.. نجيب محفوظ.. مصطفى أمين.. ولأنهم آثروا الصمت، ولم يكتبوا عنه، ولم يتحدثوا عنه، تخيلنا أنهم لم يعرفوه.. أو حتى سمعوا عنه.. ولأنهم تعاملوا معه كما لو أنه لم يمر عليهم، فنحن لا نعرف الكثير عن حياته.

عدد كبير أيضاً من زعماء الأحزاب القديمة عرفوه.. بعضهم على قيد الحياة، وأغلبهم صعدت روحه إلى السماء.. لكنهم من شدة الصمت الذى فرض عليهم، حتى تعودوا عليه لم يفتحوا ذاكرتهم، ولا ذكرياتهم.. فلم يذكروه من بعيد أو من قريب.. وكأنه ما كان هنا.

حتى رفاق المحنة من الإخوان المسلمين.. رفاق الزنزانة والرطوبة والأيام السوداء لا يتحدثون عنه كثيراً.. وإذا ما فرض عليهم الحديث عنه، تحدثوا فقط عن آخر أفكاره.. وكأنها كل حياته.. أو كأن هذه الأفكار نمت فجأة.. وقفزت فجأة.. كأنها بلا مقدمات.. بلا بيئة وظروف أفرزتها.. وهم يحترمونه جداً، ولكن.. مع جزيل الشكر وعظيم الاحترام ينسفون أفكاره..

لا الأدباء الذين عرفوه حدثونا عن أدبه.. ولا الزعماء الذين اقتربوا منه حدثونا عن موقعه بينهم.. ولا رفاق المحنة قالوا: لماذا فعل ما فعل؟!

والذين قبلوا الحديث عنه اختلفوا حوله.. بعضهم أكد أنه بقدر ما يختلف معه «يحترمه».. والبعض الآخر قال : إنه بقدر ما يختلف معه «يحبه».. أى أنهم جميعاً يختلفون معه، ويختلفون عليه.. إلا أنهم أجمعوا أن ما يقولونه لا يجوز أن ينسب

لهم بالاسم.. ظروفهم لاتسمح.. ومواقفهم القديمة أيضاً.. فكان علينا أن نأخذ ما اتفقوا عليه، وأن نترك ما يشتم منه رائحة خاصة.

■■

ليس بجديد أن يقول الذين عرفوه إنه كان فصيح اللسان.. جرىء التعبير.. لا يمل الجدل.. يمارس فراسته ببراعة.. ويملك حاسة سادسة توجه تصرفاته.. فهذا بديهى.. وهذه صفات معظم الذين ألقوا بأنفسهم فى أتون الثقافة والسياسة.. لكن.. الجديد.. أن يقولوا أنه كان «نادراً ما يخطئ، لكن إذا أخطأ يكون خطأ كبيراً».. أى كان الخطأ عظيماً بحجم موهبته، وثقافته، وطموحه، وتأثيره.

وليس بجديد أن يقول الذين عرفوه أنه كان لا يقبل أى عمل لا يناسبه.. وأنه كان يتقلب مثل الهواء.. تارة يمرح وتارة يكتئب.. تارة يثق فى الآخرين وتارة ينفر منهم.. فهذا من طبائع الأدباء والشعراء.. لكن.. الجديد.. أن يقولوا إنه كان «لاينسى من أساء إليه».. و«لا يهدأ إلا إذا قال كل ما فى قلبه ضد من أساء إليه».. أى أن إحساسه بذاته يدفعه إلى الثأر.

وليس بجديد أن يقول الذين عرفوه أنه كان من الباحثين عن الحقيقة، وعن المتاعب مهما كان الثمن.. لا يتلمس مدى صلابة الأرض تحت قدميه، ولا يحدد كيف ينجو بنفسه قبل أن ينزل المعركة.. فهذا طبيعى جداً.. ومن أبرز خصال النقاد والمفكرين.. لكن.. الجديد.. أن يقولوا إنه كان «لا يقبل النصيحة» حتى من أقرب الناس إليه، أى إنه كان عنيداً لا يلين إلا من تلقاء نفسه.

ومن حقنا أن نقبل هذه الصورة.. أو نرفضها!! فهى ملتقطة بعدسة إنسانية لا تعرف الحياد، وتتأثر بمليون اعتبار!!

لكن.. مما لا شك فيه أنه كان جريئاً.. حاد الألفاظ أحياناً.. عباراته عيدان نار.. قلمه سوط.. لا يعتقد من يراه أنه هو نفسه الذى يكتب.. فهو مع الناس أرق من النسمة.. مع الورقة والقلم جحيم لا يبرد.. فى الخمسينيات، كان يلقى محاضرة فى قاعة «على مبارك».. كلية الآداب - جامعة القاهرة.. ولأن الجامعة صورة من صور

الحضارة الغربية، ولأنه - فى ذلك الوقت - كان قد كفر بهذه الحضارة.. فإنه لم يتردد فى أن يصف «الأساتذة» الذين جلسوا فى الصفوف الأولى يستمعون له، بأنهم «جهل يحمل الدكتوراة».. ومما لا شك فيه أنه كان أحياناً، يلخص أصعب الأشياء، وأكبر الأشياء فى كلمة، أو كلمتين.. فيها براعة، وابتكار، واقتدار، ومن حقه أن تسجل باسمه.. ففى رسائله من كاليفورنيا إلى توفيق الحكيم، وعباس خضر - سنة ١٩٤٩ - يصف أمريكا بأنها «ورشة العالم».. أى إنها ماكينات ومخارط وتروس تديرها تروس.. لا بشر.

ومما لا شك فيه أنه كان يبدو شديد التطرف دائماً.. فى كل مرحلة من حياته.. فقد كان يقفز من الضد إلى الضد دون أن يعبر على جسر الوسط.. أى أنه كان يبدو مثل ظاهرة «التسامى» فى الكيمياء.. ينتقل من الحالة الصلبة إلى الحالة الغازية دون أن يمر بالمرحلة السائلة.. لكن.. هذا غير صحيح.. فكل تحولاته تمت بهدوء وإن بدت فى نهاية الأمر أنها تمت بحدة، فقبل أن تنتهى أى مرحلة، كانت تتكون بذرة المرحلة التى تليها.. وهكذا.. كما أن كثيراً من التفاعلات كانت تفاعلات داخلية.. فى أعماقه.. فى ذهنه.

على أنه فى نهاية الأمر.. بدا لنا أن تحولاته عنيفة.. متطرفة.. من الانتماء الشديد للحضارة الغربية .. للهجوم الشديد عليها.. من التطرف فى الإلحاد إلى التطرف فى وصف غيره بالإلحاد.. من الغرق فى بحار العلوم الإنسانية إلى المبالغة فى تكفير من يقربها!!

هكذا .. بدت المحصلة النهائية له ولأفكاره وقفزاته . وهو يعترف بذلك.. لكنه لا يفسره.. أو لم يجد الوقت ليفسره.. مع أن التفسير بين السطور، أو بين المراحل.. والوصول إليه يحتاج أن نبدأ من وصوله القاهرة.. مودعاً أيام وعالم وأصحاب القرية.

■ ■

وصل سيد قطب القاهرة فى فترة ثرية.. مناسبة كالعادة..

فها هى ثورة ١٩١٩ - التى تحمس لها - تثمر فاكهة كانت محرمة على

المصريين.. الليبرالية.. العلمانية.. الدستور.. الأحزاب.. البرلمان.. الانفتاح الثقافى والحضارى على الغرب.. ازدهار الدراسات الإنسانية.. ترجمات الأدب العالمى.. الإيمان بحريات التعبير والرأى والمعارضة.. إن تلك البذور التى كانت تزرع - لأول مرة وبعد طول كفاح - فى التربة المصرية - التى تخلصت بالكاد من الضغوط التركية - كانت فى حاجة إلى أجيال جديدة.. شابة.. أجيال بيضاء.. متحمسة.. قادرة على رعايتها حتى تثمر.. وتنضج وتصبح فى متناول الجميع.. وكان أن بدت كل هذه الظروف الانقلابية كما لو كانت مهيأة خصيصاً لهذا الفتى الذى ينزل العاصمة حاملاً أمل أسرته فى إنقاذها.. وإعادتها إلى القمة من جديد.

إن سيد قطب كان دائماً على موعد مع القدر.. فالمدرسة تصل القرية فى سن مناسبة.. ووالده يملك أن يشترى له الكتب التى يحملها «عم صالح».. وأمه تعرف قيمة التعليم فى القاهرة.. وخاله يمكن أن يوفر له الإقامة والرعاية فى القاهرة.. كما أنه بحكم اشتغاله بالصحافة وحماسه للوفد كان يمكنه بسهولة الوصول لمراكز الثقل فى المجتمع.. وجدته التى يحبها تعيش معه.. ظروف مناسبة جداً ليسترد بالتعليم الأطيان التى فقدتها الأسرة.. وليعيد فى القاهرة ما ضاع من الأسرة فى الريف.

وها هى القاهرة تعلن أنها فى خدمة «البرجوازية» التى كان سيد قطب واحداً من أبنائها.. ها هى القاهرة تعلن أنها فى حاجة للموهوبين، الذين يصعدون على «سلم» التعليم إلى مناصب شاغرة، فى حاجة لمن يشغلها فى الأدب والصحافة.. وباقى فنون الإبداع.. فى سنة ١٩٢٥، دخل سيد قطب كلية «المعلمين».. كانت فى مستوى المعاهد المتوسطة.. وبعد أن تخرج فيها أمضى عامى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ فى الفصول التمهيدية لكلية «دار العلوم».. وبعد ٤ سنوات تخرج فيها «١٩٣٣» وكان عمره ٢٧ سنة.. وكلية «دار العلوم» أنشئت سنة ١٨٧٢ لإعداد المعلمين بطريقة حديثة، لتلافى النقص فى التعليم الأزهرى.. وقد تخرج فيها «حسن البنا» الذى سار «سيد قطب» فى طريقه الوظيفى.. فعمل مثله سنوات طويلة فى وزارة «المعارف» العمومية، التى أصبحت - فيما بعد - وزارة «التربية والتعليم».. إن سيد قطب استمر فى سلك التعليم ١٨ سنة متصلة، جاب خلالها بعض المديريات - مثل حسن البنا أيضاً - وقبل أن يقدم استقالته فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢، كان يشغل منصب المراقب

المساعد للبحوث الفنية والمشروعات بالوزارة.. مثل حسن البنا كذلك، مارس سيد قطب حياته العامة - الفكرية والسياسية - دون أن يترك وظيفته الأساسية التى كان راتبها يسد حاجته، وحاجات الأسرة.

فى نفس عام التخرج، كون «سيد قطب» مع رفاق الدفعة جماعة «دار العلوم».. ولعبت تلك الجماعة دوراً بالغ الأثر فى الدفاع عن اللغة العربية، والدين الإسلامى.. وعلى امتداد ١٤ سنة (١٩٣٣ - ١٩٤٧) أصدرت مجلة فصلية، قدمت - على صفحاتها - عدداً كبيراً من الأدباء والنقاد.. كان على رأسهم «سيد قطب».

إن «سيد قطب» لم ينشر مقالاته، ودراساته فى تلك المجلة ككاتب مبتدئ.. فقبل أن تصدر بسنوات طويلة، وقبل أن يتخرج فى دار العلوم، كان قد نزل بقلمه فعلاً إلى ميدان الكتابة.. ويحلو للبعض أن يصف تلك الفترة من حياة «سيد قطب» - (١٩٢٥ - ١٩٣٩) - بفترة «الضياع».. وهى الفترة ما بين دخوله كلية المعلمين، وبداية كتاباته فى الصحف وبين الانتهاء من بحث «التصوير الفنى فى القرآن» الذى حوله - فيما بعد - إلى كتاب يحمل نفس العنوان.. ولابد أن «سيد قطب» كان أكثر جرأة من هؤلاء، إذ أنه وصف تلك المرحلة، بصراحة شديدة بأنها كانت «فترة إلحاد».. وقد سمع منه الكاتب «سليمان فياض» بأذنه وهو يروى سيرة حياته : «أنه ظل ملحداً أحد عشر عاماً» (١) حتى «عثر على الطريق إلى الله».. وخرج «من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان». (٢)

لقد «كان هذا الشاب الذى سوف يدخره القدر ليلعب أعظم دور إسلامى، وليجئ فى القمة مع كبار دعاة الإسلام ومفكريه فى عصرنا الحديث، غارقاً أيام الطلب «الدراسة»، وبعد تخرجه، فى المذاهب والتيارات الثقافية الأوربية التى أخذت تتدفق على مصر مع الاحتلال، والبعثات، والترجمة، وتقبل عليها صفوة المثقفين بحسن نية أحياناً، وفى غفلة أحياناً أخرى، ويدفعون إليها دفعا فى أحايين كثيرة» . (٣)

---

(١) و (٢) سليمان فياض - مقال : سيد قطب بين النقد الأدبى وجاهلية القرن العشرين» - مجلة «الهلال» - سبتمبر ١٩٨٦ - ص ٥٨ .

(٣) د. الطاهر مكى - مقال: «سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر بعد» - مجلة «الهلال» عدد أكتوبر ١٩٨٦ - ص ١٢١ .

فى تلك الفترة ، أصدر د. طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» وفيه اعتبر مصر جزءاً من جغرافية، وثقافة، وحضارة البحر الأبيض المتوسط.. «وعليها أن تعود إلى الثقافة اللاتينية، وأن تعطى ظهرها لما عداها» - د. مكى ، المرجع السابق..

فى تلك الفترة أيضاً كان «العقاد» فى مرحلة «الشك».. وفى عنف معاركه الفكرية مع الكتاب الإسلاميين، وعلى رأسهم «مصطفى صادق الرافعى».. ومنهم «محمود محمد شاكر» و«سعيد العريان».. وقد بدأت أشهر هذه المعارك وأشرسها وأكثرها جرأة وصراحة بين «العقاد» و«الرافعى» قبل تلك الفترة بسنوات قليلة، عندما أصدر الرافعى كتابه عن إعجاز القرآن.. ولم يعجب الكتاب العقاد.. حتى أنه أنكر هذا الإعجاز.. وغضب الرافعى الذى رد على العقاد فى كتاب تال «كتاب على السفود» وصف فيه غضبته بأنها «غضبة لله والقرآن».. وكتاب الرافعى «على السفود» كان كتاباً فى النقد المعاصر، إلا أن سيد قطب اعتبر هذا التصنيف من باب التجاوز.. إذ أن الكتاب كان مكانه الحقيقى فى رأيه هو «فصل الهجاء».. وكان هذا الوصف - على ما يبدو - امتداداً لقضية إعجاز القرآن، التى ناصر فيها العقاد.. وعندما وصف موقفه بأنه «مجانبة للدين والتقوى والحياء»، رد قائلاً: «إن الأدب والشعر كالفنون مترجمة عن النفس البشرية وأحاسيسها وآمالها، ولا دخل للدين فيه.. لأننى أدرى من غيرى بحقيقة الدين». (٤)

وكما انحاز «سيد قطب» للعقاد فى معركته مع الرافعى.. انحاز له فى معاركه مع طه حسين.. بل لا نكون قد تجاوزنا الحقيقة لو قلنا إن جزءاً كبيراً من شهرة «سيد قطب» النقدية، ترجع لهجومه القاسى على طه حسين.. وقد كان يرى أن «مذهب الدكتور طه حسين : هو (فقط) الدكتور طه حسين نفسه» (٥).. أى أن الدكتور طه حسين موهبة بلا امتداد.. بلا تلاميذ.. موهبة منفردة محبوسة فى حدود صاحبها.. ولا يمكن أن تنقلب إلى «مدرسة» أدبية تحمل اسم وخصائص ومميزات «العميد».. ورغم أن الدكتور طه حسين له عدد كبير من المريدين.. يحاولون التشبث

---

(٤) انظر د. الطاهر مكى - مرجع سبقت الإشارة إليه.. وسيد قطب: «كتب وشخصيات» - دار الشروق الطبعة الثالثة - ١٩٨٣ - ص ٥ .

(٥) سيد قطب ـ كتب وشخصيات - ص ١٠٥ .

بخصائصه.. والنسج على منواله.. فإن واحداً منهم لم يحقق «خصائصه» إلى اليوم على الوجه المطلوب».. «ومن بين هؤلاء من يبذل جهداً مضنياً يثير الإشفاق ليصبح نسخة أخرى منه، فتكون قصاراه أن يخرج نسخة «مشلفطة» كالصورة التى تنطبع على ورق النشاف». (٦).. لأن مذهب الدكتور طه حسين هو مذهب الاستعراض التصويرى.. ولأن الدكتور «فى خير حالاته يرسم لوحات متتابعة، أدواته فيها الكلمات والجمل» فإن «سيد قطب» يرى أن كتابه «على هامش السيرة» يجمع أفضل خصائصه، وأحسن مزاياه، وينجو فيه من كل «عيوبه» التى توجد فى بعض الكتب الأخرى» (٧) .. ونستطيع أن نلاحظ أن إعجابه بالدكتور طه حسين، بدأ يتزايد، وقسوته فى نقد أعماله، بدأت تقل، عندما غير اتجاهه، وراح يكتب مؤلفاته الإسلامية.. مثل «على هامش السيرة» و«الشيخان» و«الوعد الحق».. الخ.. ولم يكن إعجاب «سيد قطب» – على هذا النحو – إعجاباً إسلامياً.. وإنما كان نقدياً أيضاً..

كان موقفه من العقاد مختلفاً تماماً.. كان معجباً به.. ونصيراً له.. ومؤيداً لكل مواقفه.. وكان بينهما الكثير من أوجه التشابه.. فكلاهما اعتمد على نفسه فى القراءة والثقافة.. وكلاهما كان وفدياً ثم انقلب على الوفد بعد أن رحل سعد زغلول وجاء مصطفى النحاس.. وكلاهما لم يتزوج.. وكلاهما انقلب من الضد إلى الضد.. فى موقفه من الدين.. وقد كان العقاد وراء تقديم سيد قطب إلى معظم الصحف والمجلات التى كان يكتب فيها.. وبعد علاقة قوية استمرت ربع قرن.. انفصلا.. واختلفا! وكان السبب رفض العقاد أن يكتب مقدمة كتاب له!

وحتى نعرف إلى أى مدى كان سيد قطب معجباً بالعقاد لابد أن نقرأ له بعضاً مما كتبه عنه.. خاصة ما كتبه عن شعره.

فقد قال :

«فى وضح النهار يعيش العقاد، صاحى الحس ، واعى الذهن، حى الطبع، لا يهوم إلا نادراً، ولا يتوه فيما وراء الوعى أبداً.

«ومعالم الإحساس والتصور عند العقاد واضحة، وهى على رحابتها وانفساحها وعلى عمقها ودقتها، يحدها إطار من الوعى المتيقظ، فلا تهيم فى وديان مسحورة،

(٦ و ٧) سيد قطب ـ كتب وشخصيات – ص ١٠٥ .

ولا تنطلق فى متاهات مجهولة.

«على أن للمجهول حسابه فى نفس العقاد، ولكن هذا المجهول نفسه يحيط به الوعى، .وهو فكرة يدعو إلى فرضها العقل، وليس الإيمان بهذا المجهول توهاناً روحياً، ولا صوفية غامضة، إنما رحابة نفسية وفكرية.

«ومن هذه الينابيع ينفجر شعر العقاد، فيكثر فيه تصوير الحالات النفسية، وتسجيل الخواطر الفكرية، وإثبات التأملات المنطقية (إذا جاز التعبير)، بقدر ما تقل فيه السبحات الهائمة، والانطلاقات التائهة، والظلال الشائكة، فكل شيء واضح، وكل شيء له حدود». (٨)

لكن .. رغم ذلك كله، فإن إعجاب «سيد قطب» بالعقاد كشاعر يقل كثيراً عن إعجابه به كناقد أدبى، وكدارس للشخصيات.. حتى أنه يصفه بأنه «دارس الشخصيات الأول إلى اليوم».. ويضيف : إن أفضل مواهبه -العقاد- تنصرف إلى هذا اللون من الإنتاج الذى يتسع لتجاربه النفسية والفنية على السواء.. «وفصل الشخصيات التى درسها فى أعماله الأدبية هو أبرزها بجانب فصل النقد الأدبى - وهو نوع من هذه الدراسات - وإذا جاز لى أن أمد ببصرى إلى المستقبل قلت : هو أخلدها كذلك» (٩).

وكان عنده حق!

ويضيف :

إن دور العقاد «فى الدراسات - وفى الدراسات النقدية - هو الأصيل الباقى، الذى أحسب أن الزمن لن ينقص من قيمته كثيراً، على حين أن الكثير من أعماله الأخرى قد لا يحتفظ بكل قيمته، كما أن بعضها سينسى نهائياً، فلا يذكر إلا فى معرض التاريخ، بوصفه أعمالاً تمهيدية فى مرحلة الانتقال. (١٠).. وبعد مرور أكثر من أربعين سنة على هذا الكلام، أثبت التاريخ - مرة أخرى - أن سيد قطب كان على حق.

---

(٨) كتب وشخصيات - ص ٨٤ .

(٩ و ١٠) كتب وشخصيات - ص ٢٩٨ .

وكما كتب «سيد قطب» عن العقاد كتب عن غيره.. وليس من الصعب الآن أن نتعرف عليه كناقد أدبى.. فكثير من مقالاته ودراساته النقدية محفوظ فى أرشيف دوريات «دار الكتب».. فى دوريات لم تعد تصدر الآن مثل «الرسالة» و«المقتطف».. وقد جمع البعض منها فى كتب، أعيد طبعها من جديد.. أبرزها كتاب «النقد الأدبى أصوله ومناهجه».. وكتاب «كتب وشخصيات».. ولا بد أن نذكر بالمناسبة أنه حاول أن يسرد سيرة حياته، هو وشقيقه وشقيقتيه فى كتاب «الأطياف الأربعة»، ونشر باسمه وأسمائهم.. ثم كان أن أفرد سيرته على طريقة «الأيام» فى كتاب «طفل القرية».. ثم كان أن حاول تجريب نفسه كروائى فى كتاب «أشواك».. ثم كان أن حاول أن يجرب نفسه كشاعر.. إلا أنه لم يبرع، وإن كان بعض المجلات المحترمة مثل «الرسالة» قد نشرت بعض قصائده.. لكن أغلب الظن أن النشر كان بسبب اسمه ومكانته لا بسبب مستوى شعره.. إن قصائده كانت أقرب للخواطر والانفعالات ولم يكن فيها ما كان يحرص عليه وهو ينقد شعر الآخرين.. الصور البلاغية.. وعندما قرأت بعضها تساءلت : ترى لو أنه تعامل معها كناقد فماذا كان يكتب؟

فى قصيدة بعنوان «هتاف الروح» - كتبها سيد قطب «فى ليلة دافئة من ليالى كاليفورنيا» كما ذكرت «الرسالة» فى عدد ٢٤ أبريل ١٩٥٠ (ص ٤٧٢ - العدد ٨٧٧) يقول :

فى الجو لمصر دفء ... يدنى إلى خيالك
ويستجيش حنينى ... إلى الليالى هنالك
للأمسيات السكارى ... نشوى ترف خيالك
ونسمة منك تسرى ... ريانة من جمالك
نجواك ملء فؤادى ... ترى خطرت ببالك

* *

فى النفس يا مصر شوق ... لخطرة فى رباك
لضمة من ثراك ... نفحة من جواك

لومـضة مـن سـماك	لهـاتـف مـن رؤاك
لليلـة منـك أخـرى	مـع الـرفـاق هناك
ظـمآن تهتـف روحـى	متـى تـرانـى أراك

لقد كتبها وهو فى سان فرانسسكو.. ومن الأفضل أن ننظر إليها من باب خواطر الشوق، وأحاسيس الغربة، لا من باب النقد الشعرى.. أو التصوير الفنى الذى كان يحكمه كناقد صارم، لا يجامل!

ولابد لمن يقرأ أعمال سيد قطب الأدبية والنقدية أن يجد فيه صورة مختلفة عن الصورة التى فارقنا عليها.. ولا تزال سائدة فى أذهاننا ومسيطرة عليها حتى الآن.. إنه فى تلك المرحلة المبكرة من حياته، كان يلتهم كل ما يقع تحت يده من كتب، كان يقرأها، وينتقدها، ويتأملها، ويجادل أصحابها فى حرية، ودون تحفظ أو حرج.. بما فى ذلك الكتب المقدسة مثل التوراة «العهد القديم».. والقرآن..

ففى معرض حديثه عن «الصور والظلال فى الفن» (١١)، يتعجب من «أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول، ثم لا يستفيد الأدب العربى من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله، وتيسيره للذكر فى أيديهم، إلا فلتات فى ديوان كل شاعر، هى امتداد للتصوير فى الأدب الجاهلى، وعلى طريقته، لا على طريقة القرآن الرفيعة».. يبرر ذلك قائلاً : «ولعل مرد ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأفق الرفيع، فلعلنا أن نكون اليوم أحق بهذا التطلع من جميع من مضوا من شعراء العربية خلال أربعة عشر قرناً».

فى هذه الدراسة أيضاً، نجده يختار فى إعجاب مقطوعة من نشيد الإنشاد المشهور فى التوراة.. والتى تقول فيها بطلته «شوليت» : (١٢)

«كتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبى بين البنين، تحت ظله اشتهيت أن أجلس، وثمرته حلوة بحلقى، أدخلنى إلى بيت الخمر، وعلمه فوقى محبة، أسندونى بأقراص

---

(١١) المرجع السابق ص - ٢٨ .

(١٢) المرجع السابق ص - ٣٧ .

الزبيب، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة حبا، شماله تحت رأسى، ويمينه تعانقنى، أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء، وبأيائل الحقل: ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء»!

ويقول حبيبها الراعى فى مقطوعة أخرى من النشيد :

«ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات. قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وثدياك بالعناقيد، قلت إنى أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم، ورائحة أنفك كالتفاح، وضحكك كأجود الخمور السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين».

ويصف «سيد قطب» هذه الصور الحسية بأنها : «صورة للحب الفطرى».. «كأنما هو قطعة من حب الطبيعة.. يتفتح حين تتفتح، ويفوح حين تفوح».. ويعتبرها «أعلى فى آفاق الفن على كل دعاء بالغزل على طريقة المعانى الذهنية» التى يلجأ إليها شعراء العذريين.

ويدلل سيد قطب على أن الشعر الأوربى تأثر وانتفع «بكتابهم المقدس».. وهو تأثر واضح « فى طريقة الإحساس وفى طريقة التعبير على السواء» .. ثم يضيف مستنكرا : « ونحن نجد القرآن بين أيدينا، وهو يتبع فى التعبير طريقة التصوير الحى الذى يزيد مساحة المعنى النفسية، ويحيله صورة حية».. فلا ننتفع بها.. إننى أدعو إلى تملى طريقة القرآن فى التصوير والتظليل. فهى أعلى طريقة فنية للأداء».. «فإن نقلها إلى عالم الأدب خليق بأن يرفع هذا الأدب إلى آفاق رفيعة، لم نصل إليها حتى الآن». (١٣)

ويزداد إحساسه بالصور الحسية (أكثر من المعانى الذهنية) عندما يتعرض إلى غزليات الشاعر الفارسى «حافظ شيرازى» وهى أربعمائة وست وتسعون مقطوعة، ترجمها إلى اللغة العربية الدكتور «إبراهيم أمين الشواربى» الذى لم يعرف سيد قطب - على حد قوله - كيف يشكره على ذلك .. بعد أن عاش أياماً جميلة مع ما ترجمه.. «فهذه الساعات الحلوة التى أتاحها لى الدكتور لا تقدر بثمن».. ثم يضيف :

---

(١٣) المرجع السابق ص ٤٠ .

«لقد أخلدت – مع حافظ إلى الغناء العذب بروح صادقة لا تكدرها شوائب الحياة، ولا هموم العيش، ولا أحقاد الناس، ولا تفسدها كذلك غواشى القلق ولا هموم الفكر ولا الجدل الذهنى العقيم». (١٤)

ثم.. يختار منها تلك الأبيات : (١٥)

«كأس من الخمر، ووجه جميل، ورفاق مسعدون، وطبيعة باسمة وعلى الدنيا السلام!!

« أى شىء أجمل من رفقة الأحباب والتمتع باللهو والرياض والربيع الجميل؟

«فأين الساقى؟

«قل له : ما هذا الانتظار الطويل؟

«واعتبر ما يتهيأ لك من طيب الوقت فرصة غزيرة وغنيمة كبرى..

«فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور».

ويختار سيد قطب غزلية أخرى لحافظ شيرازى أكثر حسا.. والتـهابا.. غزلية تقول: (١٦)

«إن شفة الحبيب ياقوتة ظمأى إلى الدماء.

«وأنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح، وهذا هو عملى وشغلى الشاغل»

ويختار غزلية ثالثة تقول : (١٧)

« مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر ، سكران ، ممزق القميص ، يتغنى بالألحان ، فى يده إبريق من بنت الحان ..

«ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كؤوسنا.

(١٤) المرجع السابق – ص ٦٨ – دراسة بعنوان «نفحات من فارس».
(١٥) المرجع السابق – ص ٦٨ أيضاً.
(١٦) المرجع السابق – ص ٧٣ .
(١٧) المرجع السابق – ص ٧٤ .

«سواء كانت خمرة من خمور العربدة أو من خمور الفردوس والجنان..

ويعلق سيد قطب على هذا الغزل الحسى، المنافس لغزل عمر الخيام، فيقول : «إنها لعجيبة مدهشة تلك التى تجعل القارئ يتابع حافظاً فى لذة وارتياح، فلا يمل ، ولا يسأم ذلك التكرار الذى لا ينتهى فى الغزليات، وذلك اللعب بالنكات اللفظية، والتعبيرية التى تزحم الديوان، والتى كانت نظائرها فى شعر البديعيين فى اللغة العربية كفيلة بإسقاط هذا الشعر ، وكفيلــة كذلك بالسأم، والضيق إلى حد الاختناق» . (١٨).

ثم يتجرأ أكثر، فيقول : إن كاتب هذا الشعر «مستهتر فى عشقه الصوفى أو الغزلى، نشوان بخمره الإلهية أو النواسية، وليقل من شاء كيف شاء، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين والمنافقين، ومن الوعاظ الثقلاء» .. (١٩)

■ ■

ولابد أن تكون مفاجأة مذهلة أن أكرر أن سيد قطب دعا فى تلك المرحلة المبكرة إلى العرى التام.. أقول وأكرر، لأن أول من نشر هذه المعلومة، عضو الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين «محمود عبدالحليم».. لقد قرأ الرجل فى ذلك الوقت مقالاً لسيد قطب فى جريدة «الأهرام» ... «يدعو فيه دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم» (٢٠).. كانت بدعة نوادى العراة.. وشواطئ العراة قد انتشرت فى أوروبا وأمريكا.. وكان وراءها فلسفة مضادة للتكتيف الحضارى المتزمت الذى تفرضه القواعد الصارمة للرأسمالية.. ويبدو أن سيد قطب قد أعجبته تلك الفلسفة.. وما وراءها.. وكان أن فزع الكثير.. ومنهم «محمود عبدالحليم» فسارع إلى الورقة والقلم وكتب رداً.. إلا أنه قبل أن يرسله إلى «الأهرام» عرضه على الشيخ «حسن البنا».. لكن حسن البنا رفض أن ينشر الرد.. وكان رأيه أن سيد قطب «شاب متأثر بالبيئة» الغربية و«هى التى تغذيه بمثل هذه الأفكار».. وأن هدفه

---

(١٨) المرجع السابق - ص ٧٢ .

(١٩) المرجع السابق - ص ٧٩ .

(٢٠) محمود عبدالحليم - الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ - جـ١ - ص ١٩٠ - الناشر دار الدعوة ١٩٧٩ .

«من كتابة المقال ليس هو مجرد التعبير عما يؤمن به، وإنما هو محاولة جذب الأنظار».. ونشر الرد يحقق له ما يريد.. ثم إن نشر الرد سيجعل من لم يقرأ المقال يقرأه.. ثم.. إن الرد نوع من التحدى، والتحدى يخلق نوعاً من العناد.. «وهذا العناد يجعله يتعصب لرأيه مهما اقتنع بخطئه، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خط الرجعة، وفى هذا خسارة نحن فى غنى عنها».. ثم.. إن «هذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجه.. ولعله يفيق من غفلته.. ويفئ إلى الصواب، ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام».. وقد كان.

■■

فى مرحلة النقد الأدبى، نجده يتعرض لكتب العمالقة الذين نعرفهم.. «أحلام شهر زاد» و«شجرة البؤس» للدكتور طه حسين.. «بيجماليون» و«الرباط المقدّس» ، لتوفيق الحكيم.. والرواية الشعرية بين أحمد شوقى، وعزيز أباظة.. وفى تلك المرحلة، نجده يتحمس لقاص شاب يطرق أبواب الرواية. بملامح مصرية أصيلة.. وهو نجيب محفوظ بعد أن كتب «خان الخليلى».. وقد اعتبرها «خطوة حاسمة فى طريقنا إلى أدب قومى واضح السمات متميز المعالم، ذى روح مصرية خالصة من تأثير الشوائب الأجنبية - مع انتفاعه بها - نستطيع أن نقدمه - مع قوميته الخالصة - على المائدة العالمية، فلا يندغم فيها، ولا يفقد طابعه وعنوانه، فى الوقت الذى يؤدى رسالته الإنسانية، ويحمل الطابع الإنسانى العام، ويسساير نظائره فى الآداب الأخرى». (٢١)

فى تلك المرحلة أيضاً، لا ينكر سيد قطب إعجابه بقصة عادل كامل «مليم الأكبر».. وهى من أوائل القصص فى الأدب العربى التى تتعرض للصراع بين الطبقات «فى قالب فنى»، وتمثل بداية ما يمكن أن يوصف بأدب «الوعى الطبقى» الذى كان يدعو إليه جمهور من المفكرين، فى جميع أنحاء العالم، بعد نجاح الثورة «الروسية». ويعترف سيد قطب بقيمة هذا الأدب، وإن كان يرفض الغلو فيه والمبالغة فى فرضه على جموع الفنانين.

---

(٢١) «كتب وشخصيات» - مرجع سبقت الإشارة إليه - ص ١٥٩ .

وعندما أصدر د. حسين فوزى كتابه «سندباد عصرى» وجدها سيد قطب فرصة ليقدم تفسيراً نفسياً.. أدبياً .. ممتعاً.. وشديد العذوبة لأسطورة السندباد.. أو لخرافة السندباد.. إن السندباد فى رأيه «المخلوق الذى يناديه المجهول فيلبيه، ويجذبه الخطر فيستجيب إليه، ويتعرض للأهوال الشداد الجسام فى كل رحلة من رحلاته، ثم يبلغ مأمنه بعد اليأس، ويسترد ثروته بعد الفقدان، ولكن المجهول يناديه، والخطر يجذبه إليه، فما يلبث أن يودع الأمن، ويستصغر الثروة، ويعود إلى المجازفة من جديد، وراء ذلك المجهول، المحجوب، وخلف هذا الخطر المحبوب». (٢٢) إن «فى قرارة كل نفس إنسانية «سندباد» أو شعرة من «السندباد».. ولو لم يطوِّف مثله فى بحار الأرض ويتعرض فى طوافه لشتى الأخطار».. إن هذا السندباد المستقر فى داخلنا - الذى يشير إليه سيد قطب - يدفعنا إلى أرض المجهول.. والمجهول قد يكون فكرة.. رغبة.. مغامرة.. علاقة.. إن هذا السندباد الذى يعيش معنا هو الذى يستجيب إلى ذلك النداء السحرى، الذى لا يقاوم.. نداء المجهول.

وفى الحقيقة لم يكن فى داخل سيد قطب شعرة من «السندباد».. وإنما كان نموذجاً، عصرياً، مكتملاً منه.. كان نموذجاً للسندباد «الفكرى»، الذى لم يستطع مقاومة نداء المجهول السحرى، الذى لا يقاوم.. إلى مغامرات فكرية متنوعة.. كلما حط رحاله على واحدة منها، وبلغ مأمنه بعد اليأس، جذبه الخطر إليه، فودع الأمن، وعاد إلى المجازفة من جديد، وراء فكرة أخرى مجهولة.. وهكذا.. حتى دفع حياته فى النهاية ثمناً لواحدة منها. وهو نفسه يعترف بهذه الحقيقة.. حينما يقول : «من منا لم يجذبه المجهول مرة أو مرات، ولم يستهوه الخطر لحظة أو لحظات، ولم يستعذب «المعرفة» ولو كلفته التضحية والتضحيات؟».

إن هذا الأسلوب السلس.. الجذاب، كان يميز سيد قطب فى تلك المرحلة النقدية، الأدبية.. وكان يميزه - أيضاً - إحساسه الشديد بالعدل والتجرد بقدر الإمكان.. وهذا بالقطع إحساس ضرورى للناقد.. بدونه يتحول إلى جلاد.. أو حامل مبخرة».. وهذا الإحساس جعله يؤمن بقيمة العقل.. والحجة.. وجعله لا يفرض على الآخرين أفكاره بالقوة.. ولا

---

(٢٢) المرجع السابق - ص ٢٢٢ .

«بالأمر.. وإنما بالإقناع والمنطق.. وجعله يقبل الاختلاف بين البشر.. ويعتبر الاختلاف من طبائع الأمور.. فهو - مثلاً - لا ينكر إعجابه بأسلوب د. حسين فوزى فى «سندباد عصرى» ولا بمشاعره الإنسانية، ولا بقدرته على استيعاب المعرفة، وإن أنكر، واعترض على إعجابه بحضارة الغرب.

والغريب أن سيد قطب قد ضاعف من هجومه على الغرب.. وعلى حضارته بعد أن سافر إلى أمريكا.. التى كانت تمثل ذروة تلك الحضارة فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الأخيرة.. وقد حدث أن كان هناك، وأرسل إليه «توفيق الحكيم» نسخة من كتابه «الملك أوديب».. بإهداء : «إلى سيد قطب.. ممن يذكرك دائماً».. فكان أن تلقف الكتاب.. قائلاً للحكيم فى خطاب مفتوح نشرته مجلة «الرسالة» (٢٣) : إن كتابك «شيء عزيز ثمين بالقياس لى هنا فى تلك «الورشة» الضخمة ، السخيفة التى يسمونها العالم الجديد».. ثم.. كان أن وجدها فرصة ليناقش الحكيم - الذى درس فى باريس - فى ضرورة التخلص من رواسب الحضارة الغربية.. ثم.. قال له : (٢٤) «آه ياصديقى، ليتك لم تذهب إلى فرنسا..

ولكنك ما كنت بمستطيع الآن أن تقوم بدورك الأساسى فى وضع القالب الفنى الصحيح للتمثيلية (المسرحية) العربية إذا لم تذهب هناك، فدراستك هناك للمسرح الإغريقى هى التى مكنتك من وضع القالب السليم.

«إن الخير لا يمكن تمحيصه والشر لا يخلو من الخير بحال..

«والآن يا صديقى، هل أدلك على النبع؟

«لقد قال لك أستاذك الفرنسى، كما قلت فى «زهرة العمر» وأنت تعرض عليه محاولاتك باللغة الفرنسية: «اكتب بلغتك لتبدع».

«هذا هو نفسه ما أقول لك : استوح «ميراثك» لتبدع .. إن هذا الميراث هناك كامن

---

(٢٣) مجلة «الرسالة» - مقال : «إلى الأستاذ توفيق الحكيم» - العدد ٨٢٧ - الاثنين ٩ مايو ١٩٤٩ .. وقد تضمن المقال - الرسالة بعض انطباعات سيد قطب عن أمريكا، نؤجلها إلى فصل آخر.

(٢٤) سيد قطب ـ الجزء الثانى من رسالته إلى الحكيم ـ مجلة الرسالة ١٦ مايو ١٩٤٩ .

فى ضميرك، تخنقه ثقافتك الفنية الفرنسية. إنك تبعد عنه كلما ذهبت إلى الإغريق، وغير الإغريق تستلهم أساطيرهم القديمة. إنك مصرى. مصر القديمة الفانية فى أعماق التاريخ، السارية فى ضمير الزمن..

«ما عليك الآن إلا أن تعيش مفتوح القلب والحس والعين فى ريف مصر وفى أحيائها العامة.. دعك من «سليمان باشا» و«الزمالك» و«المعادى» و «الدقى»، هذه رقع مستعارة فى الثوب الأصيل. هذه لطع شوهاء فى اللوحة المتناسقة.

«خذ القالب الأوربى، القالب وحده، ولكن صور فى هذا القالب الضمير المصرى، بروح مصرية وحاول أن تهتدى إلى عبقرية الشرق الأصيلة، وهى ليست مجرد عبقرية الذهن التجريدية.

«لقد وجد فى عالم القصة والرواية من يستلهم الطبيعة المصرية.. الخالق بروح مصرية خالصة.. وهذا هو الأهم، فليس من الضرورى - فى غير الأساطير وما يشبه الأساطير - أن يكون الموضوع مصرياً، ولكن المهم أن يعالج بروح مصرية.

«والاستطراد يسوقنى إلى «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى، و«خان الخليلى» لنجيب محفوظ.. لقد كانا مصريين دما ولحما وعاطفة وشعوراً فى هذين العملين المعجبين..

«وذلك هو الطريق»!

من منتصف العشرينيات (١٩٢٥) إلى قرب نهاية الثلاثينيات (١٩٣٩) كان سيد قطب مثل العقاد، وطه حسين، وغيرهما من المثقفين المصريين الذين اغترفوا وشربوا حتى الامتلاء من نبع الحضارة الغربية.. كانوا وقتها مثل الفراشات التى تنجذب إلى ضوئها المبهر «لا أقول نيرانها الحارقة».. وقد تحول الانجذاب إلى إعجاب.. وتحول الإعجاب إلى عشق.. وتحول العشق إلى إدمان.. ثم كان أن تحول الإدمان إلى صلاة وعبادة وخشوع.. لكن.. ما إن مرت السنوات حتى كفروا بتلك الحضارة، واستردوا وعيهم «الشرقى».. وحسموا تناقضهم المحموم بسبب «فيروس» الازدواج الثقافى.. وراحوا يحتمون بتراث الإسلام.. ويعيدون صياغته فى صور عصرية، غير بعيدة عما بقى فى عقولهم ووجدانهم مما هضموه من الحضارة الأوربية.

وعندما جاء الدور على سيد قطب ، فعل ما فعلوه ، ولكن .. بتطرف أكثر .. كعادته .. لقد كان متطرفاً فى إعجابه بالحضارة الغربية « إلى درجة الدعوة للعرى الكامل »..ثم .. كان متطرفا فى عداوته لها .. وقد عبر عن ذلك - فيما بعد - بوضوح ... حينما قال :

«لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية فى تكوينى العقلى والنفسى، وهى رواسب آتية من مصادر أجنبية.. غريبة على حسى الإسلامى.. وعلى الرغم من اتجاهى الإسلامى الواضح فى ذلك الحين، إلا أن هذه الرواسب، كانت تغبش تصورى وتطمسه! كان تصور «الحضارة» - كما هو فى الفكر الأوربى - يخايل لى، ويغبش تصورى، ويحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة، ثم انجلت الصورة.. المجتمع المسلم هو «المجتمع المتحضر» فكلمة «المتحضر» إذن لغو لا يضيف شيئاً جديداً.. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارئ تلك الظلال الأجنبية الغربية، التى كانت تغبش تصورى، وتحرمنى الرؤية الواضحة الأصيلة» (٢٥)

وإذا كان انتقال العقاد وطه حسين من «الغرب» إلى «الشرق» لم يمنعهما من رفض العلوم الإنسانية والفلسفية التى أفرزتها الحضارة الأوربية.. فإن سيد قطب قاطع وخاصم تلك العلوم.. وفى مرحلته الإسلامية الأخيرة.. مرحلة تكفير المجتمع ووصفه بالجاهلية وصل إلى حد تحريمها.. واعتبرها «حرام».. وليس من الإسلام، دراستها أو حتى الاقتراب منها.. كأنها مثل الربا والميسر والميتة والدم ولحم الخنزير.. «رجس من عمل الشيطان» ! فالفلسفة أصبحت عنده بجملتها فى الفكر الجاهلى، غير الإسلامى، كذلك اتجاهات «تفسير التاريخ الإنسانى» بجملتها، واتجاهات «علم النفس» بجملتها (عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة) ومباحث «الأخلاق» بجملتها، واتجاهات دراسة «الأديان المقارنة» بجملتها، والتجاهات «التفسيرات والمذاهب الاجتماعية» بجملتها «فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة».. إن هذه الاتجاهات فيما انتهى إليه من آراء «متأثرة - فى رأيه - تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها - إن لم يكن كلها - يتضمن فى أصوله المنهجية عداء ظاهراً أو خفياً للتصور الدينى

(٢٥) «معالم فى الطريق» - ص ١١٨ .

جملة، وللتصور الإسلامى على وجه خاص» !! (٢٦)

«والأمر فى هذه الألوان من النشاط الفكرى - والعلمى! - ليس كالأمر فى علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب وما إليها - ما دامت هذه فى حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفى فى صورة من صوره»!! (٢٧)

وهذا يعنى أن نستورد النظريات العلمية، المعملية، المجردة، دون أن نستورد معها انعكاسها على الفلسفات الاجتماعية والأخلاقية.. ولا بد أن هذا الفصل إذا لم يكن مستحيلاً، فهو صعب.. فالعلوم المجردة تعبر عن حاجة المجتمع.. وفلسفته.. وأهدافه.. ومذهبه.. ونظامه الخاص.. ثم إن هذه العلوم تخلق من جانبها واقعاً مادياً يؤثر على الطبقات والأخلاق والانفعالات والفلسفات أيضا.. إن «السيارة» مثلاً وهى نتاج علوم معملية مجردة، ليست مجرد «موتور» و«مقاعد» و«كشافات» و«عجلة قيادة».. إنها أيضاً نتاج علوم إنسانية وفلسفات اجتماعية، تعبر عن «الذوق» و«الطبقة» ومفهوم «الاستهلاك».. إن تلك السيارة لم تصنعها علوم الميكانيكا والكهرباء فقط، وإنما صنعتها علوم النفس والاجتماع أيضاً.. ولا يمكن استيراد تكنولوچيا معينة دون تلافى آثارها النفسية والاجتماعية والسياسية.. هذه حقيقة تعانى منها الدول النامية الآن.. وهى حقيقة كان من الغريب أن تفوت على مفكر مثقف مثل سيد قطب.. أو.. هو حماسه الغاضب لفكرة الجاهلية والحاكمية الذى جعله ينظر فى اتجاه واحد.ربما !

وفيما بعد أمكن بتحليل موقف سيد قطب من العلوم المعملية والعلوم الإنسانية، إيجاد تفسير إضافى لظهور الجماعات والتنظيمات الإسلامية «المتطرفة» التى تمشى على منهجه وطريقه فى الكليات المعملية مثل الطب والهندسة والعلوم والصيدلة.. إن أعضاءها من الطلبة ينفذون قدر استطاعتهم ما قاله «الأستاذ» و«المعلم»..

نفس الموقف اتخذه سيد قطب من الفنون بما فى ذلك فن الطرب، الذى كان متحمساً له، ومعجباً به، إلى حد أن وصف أم كلثوم، ومحمد عبدالوهاب بأنهما

---

(٢٦) «معالم فى الطريق» - ص ١٤٠ .

(٢٧) «معالم فى الطريق» - ص ١٤٠ .

«من الظواهر الكونية التى لا تتكرر»(٢٨).. ولعل تحريمه للفنون والموسيقى فيما بعد، يفسر أيضاً موقف أغلب الجماعات الإسلامية منها الآن!

■■

رغم كل ما كتبه سيد قطب فى صحافة تلك الأيام من نقد ودراسات أدبية، فإنه لم يتفرغ لمهنة الكتابة، ورغم أن نجمه بدأ يلمع على الورق، فإنه لم يترك حرفة التدريس ولا عمله فى وزارة «المعارف».. وانتهى به المقام فى ضاحية «حلوان» مع أسرته «والدته وشقيقه وشقيقتيه».. وكان جو حلوان يناسبه.. فقد كان يعانى من متاعب مزمنة فى صدره.. وأغلب الظن أنه كان يعيش ويتنفس برئة واحدة.. لذلك كان فى حاجة إلى طقس مشمس، جاف، لا يضاعف من متاعبه الصحية.

إن المتاعب الصحية كانت تقف له بالمرصاد منذ طفولته.. وأيامه الأولى فى القرية.. وبين الحين والآخر كان يقعده المرض، ويفرض عليه البقاء فى الفراش.. وينغص عليه الكثير من متع الحياة.. وقد حدث ذلك أثناء رحلته فى أمريكا.. حيث ضاعت بعض الأيام فى أحد مستشفيات «سان فرانسيسكو» للعلاج.. وبسبب تلك الأزمة غادر «سان فرانسيسكو».. «برياحها الرطبة المتغيرة» كما وصفها بنفسه فى خطاب إلى صديقه الناقد والأديب «عباس خضر» إلى مدينة صغيرة مشمسة، تسمى «بول التو».. شم فيها رائحة شمس مصر.. فتعافى .(٢٩).. لقد كان المرض يفرض عليه دائماً الرحيل إلى الدفء والجفاف.. لقد كان نحيف القوام.. أسمر اللون.. يحمل عينين واسعتين.. غافيتين أبداً.. وأضاف له المرض الشحوب وبياض الوجه.. (٣٠) ويعتقد البعض أن متاعبه الصحية، وخوفه الدائم من المرض، كانا من أسباب الانطواء والعزلة والشرود والإغراق فى التأمل أحياناً.. أو من أسباب الاكتئاب والشعور بالقلق أحياناً أخرى.. ولابد أن ذلك كله كان له تأثير كبير.. واضح عليه.

إن فى العالم الآن عشرات الكتب العلمية، الجادة، التى تفسر تاريخ الزعماء

---

(٢٨) سليمان فياض ـ مرجع سبقت الإشارة إليه .

(٢٩) عباس خضر ـ مجلة «الرسالة» - ٣ يوليو ١٩٥٠ .

(٣٠) سليمان فياض ـ المرجع السابق .

والقادة والمفكرين، وتفسر تصرفاتهم وقراراتهم تفسيراً صحياً.. يمر عبر الأمراض التى أصيبوا بها، والأدوية التى ابتلعوها.. و«روشتات» العلاج التى صرفت لهم.. ويعتمد هذا التفسير على مدى الاعتراف بتأثير الأمراض العضوية على الانفعالات النفسية، والتقديرات العقلية.. مثلاً.. التهاب الشرايين يؤدى عند حد معين إلى تأثير واضح على القوة العقلية.. ومثلاً.. مرض السكر إذا لم يعالج فى وقت مناسب، يصيب المريض بعجز فى الجهاز العصبى المركزى، يعقبه شعور بالعطش الدائم.. ترى هل أثر مرض سيد قطب عليه؟!

لا نريد التورط كثيراً فى مثل هذه النظريات على صحتها.. لكن.. من المؤكد أن متاعب سيد قطب الصحية كان لها بعض الآثار النفسية عليه.. فقد كان يخشى البرد.. والرياح.. والرطوبة.. والزكام والزحام.. وفى كثير من الأحيان كان يجد نفسه أكثر بعداً عن الناس.. وفى بعض الأوقات كان إذا جلس إلى الآخرين يكون «غائب حاضر» أو«حاضر غائب» على حد تعبير «سليمان فياض» بعد زيارة له، كان فيها مريضاً.. لذلك فضل أن يعيش فى «حلوان».. وكانت فى ذلك الوقت ضاحية شبه ريفية، معزولة، لا تغرى سكان القاهرة بالسكن فيها.. وحتى رحل عن الدنيا كان يفضل قضاء الصيف فى رأس البر».

البيت الذى عاش فيه كان يملكه مأذون «حلوان» وقد اشتراه منه بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه هى كل ما كان يملك .. حديقة البيت واسعة، تمتد مساحتها إلى نصف فدان، وفيها كان يفضل قضاء الليل وحيداً، أو مع بعض الشعراء والأصدقاء المقربين.. كما اختار أن تكون حجرة مكتبه بالقرب منها، تطل نافذتها عليها.. وفيما بعد، كان عدد من «الضباط الأحرار» يعقدون بعض اجتماعاتهم معه، فيها.. وفى أرشيفه الخاص، وجدت أسرته صوراً له مع بعضهم، يتصدرها أحياناً «جمال عبدالناصر».. ولا نستطيع بالقطع أن نتنبأ بمصير تلك الصور الآن!

ولا أحد يستطيع أيضاً !

٣

لقد وجدت القرآن !

- الإسلام من أجمل أبوابه
- إلى فتية لمحهم فى خياله
- المنتج الأيديولوچى الوحيد للإخوان
- العدالة الاجتماعية فى الإسلام
- الرأسمالية ثم الشيوعية فالإسلام
- أمة إسلامية لا عربية
- لا.. لكتب الفقه القديمة
- صفحة جديدة مع الاجتهاد
- أربعة احتمالات قبل الوصول إلى المجتمع الإسلامى
- دكتور يوسف القرضاوى يرد
- الشريعة لا توجد إلا داخل الفقه

«لقد وجدت القرآن»!

هكذا..

هتف سيد قطب على طريقة أرشميدس الشهيرة.. «وجدتها».. «وجدتها»..

وهكذا..

بدأت مرحلة جديدة فى حياته!

إن من المؤكد أن سيد قطب هو ابن مجتمعه وظروفه.. ومن المؤكد أن أفكاره وتحولاته (لا أقول تحوله) كانت انعكاسا لما حوله.. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، أو التجاوز عنها.. فى سنوات العشرينيات والثلاثينيات كان المجتمع من حوله يموج بالتيارات والدوامات والمعارك الأدبية.. فكان أن نزل الساحة يحمل سيف النقد وقلمه.. فى تلك السنوات كانت أوروبا هى رمز «الحضارة» وكانت مصر تتلقف كل ما تصدره لها دون مناقشة.. وكأنها أرض عطشى لا تملك أن تتدلل فى اختيار نوع الحياة.. فإذا جاء الإلحاد فهو ملحد.. وإذا كان الدين هو التخلف فهو غير متدين.. وإذا دعت أوروبا للعرى.. فلنخلع كل ثيابنا فى مصر ونستقبله.. ثم إنها سنوات الشباب، الرافض باستعلاء لواقعه، الباحث باستمرار عن نموذج للخلاص من خارجه.. ثم إنه الاحتلال العسكرى والاقتصادى والنفسى والفكرى.. نحاربه ونقلده.. نلعنه ونتطلع إليه.. نقاتله ونذوب فى هواه.

فى الأربعينيات.. بدأت المذاهب والعقائد تتبلور وتعبر عن نفسها بوضوح، وتمد يدها - عبر المشاكل والهموم - عارضة على الناس حلولها وأساليبها فى الإنقاذ.. محرضة على الثورة والتغيير.. فكان أن نزل الساحة كمفكر.. إن سنوات ما بعد الحرب العالمية الأخيرة (انتهت ١٩٤٥) شهدت غزوا ثقافيا مختلفا عن الطراز الأوربى.. وصلت «القاهرة».. عبر بيروت - ترجمات «جوركى» و«تشيكوف» و«تولستوى».. وأطلت روسيا برأسها مؤكدة أن على الجانب الآخر من النهر تجربة اجتماعية مختلفة تستحق الانتباه.. وبدأت أمريكا غزوها الثقافى بأساليب أخطر وأقوى وأسهل، وراحت تمول صحافة جديدة تبشر بالحلم الأمريكى - الذى

ضاعفت أفلام «هوليوود» وزجاجات «المياه الغازية» واختراع «البلاستيك» والألبان المجففة - من بريقه.. وعلى الجانب المصرى برز ناقد أدبى جديد هو الدكتور «محمد مندور» وهو يبشر بوظيفة الأدب والفنون فى التغيير الاجتماعى، وعلى نفس الجانب بدا أن الإخوان والشيوعيين اتجاهان لا ثالث لهما للمستقبل.. وبدت التنظيمات الراديكالية أعلى صوتا، وأكثر قدرة على سحب «الشهيق» وإطلاق «الزفير» من الأحزاب الليبرالية.. التى عجزت من شدة الترهل عن الحركة.

فى ذلك الوقت والمناخ نزل سيد قطب الساحة بنظريته الإسلامية!

نزل يواجه المذاهب المتفجرة حيوية.. والمستعدة للحركة، بأفكاره عن العدالة الاجتماعية فى الإسلام.. والتى راحت تنمو، وتنمو، متأثرة بالظروف من حولها، حتى انتهت بعد ١٠ سنوات تقريباً إلى تكفير المجتمع، والدعوة إلى تخليصه من الجاهلية التى تحكمه !!

ولابد أنك - مثلى - يمكن أن تتساءل : ألم يكن من الممكن أن يتجاوز سيد قطب أفكاره الأخيرة لو تغيرت الظروف؟.. ألم يكن من الممكن أن يحدث تحول جديد فى فكره لو امتد به العمر ولم يمت مخنوقا على المشنقة!!.. إن عنصر «الزمن».. وامتداد «العمر» غير الكثير من المواقف والآراء لعدد كبير من الزعماء والمفكرين.. فلو لم يمتد العمر بونستون تشرشل ليخرج منتصرا فى الحرب العالمية الأخيرة، لمات كقائد فاشل، مهزوم، منكسر، بعدما جرى له سنة ١٩١٧ .. ولو لم يمتد العمر بالمفكر الإسلامى «أبو الأعلى المودودى» الذى تأثر به سيد قطب فى سنواته الأخيرة، لما عرفنا أنه تراجع عن كثير من أفكاره ومعتقداته.. بل.. لو تصورنا أن سيد قطب نفسه قد مات فى الثلاثينيات.. ألن يكون فى مثل هذه الحالة مثل أى ناقد آخر قال كلمته.. ومضى!!

■■

اكتشف سيد قطب الإسلام بمنظار النقد الأدبى.

لقد أخضع لهذا المنظار كل ما قرأه.. دواوين الشعر.. أدب الرحلات.. السير

ودراسات الشخصية.. والتوراة.. وقد كان كناقد وأديب، يفتش دائما عن «التصوير الفنى» ولا يعتقد بمتانة أسلوب يخلو من الصور والظلال الحسية.. فالتعبير الذى يلقى المعنى مجردا يخاطب الذهن وحده وهو أقرب إلى العلوم.. وهذا مرفوض عنده.. لأن مكانه المعمل وكتب الهندسة والكيمياء.. و«التعبير الذى يرسم للمعنى صورة أو ظلا يخاطب الحس والوجدان، ويطبع فى النفس صورة من صنع الخيال» وهذا هو الفن[1]

بحثا عن الصور والظلال التى تخاطب الحس والوجدان، أعاد قراءة القرآن.. لقد قرأ القرآن وهو طفل صغير لا ترقى مداركه إلى آفاق معانيه.. ولكنه كان يجد فى نفسه «منه شيئاً» على حد تعبيره [2].. وكان خياله الساذج الصغير، يجسم له بعض الصور من خلال تعبير القرآن.. «وإنها لصور ساذجة، ولكنها كانت تشوق نفسى وتلذ حسى فأظل فترة غير قصيرة أتملاها، وأنا بها فرح ونشط» - كما أضاف[3].

مرت أيام.. تلتها أيام.. وقرأ تفسير القرآن فى كتب التفسير.. لكنه لم يجد فيما قرأ أو سمع «ذلك القرآن اللذيذ» الذى كان يجده فى طفولته وصباه.. وكان أن قال : «وا أسفاه ! لقد طمست كل معالم الجمال فيه وخلاص اللذة والتشويق».. وكان أن عاد إلى القرآن يقرؤه فى المصحف لا فى كتب التفسير.. وكان أن عاد ووجد «قرآنى الجميل الحبيب ! وأجد صورى المشوقة اللذيذة إنها ليست فى سذاجتها التى كانت هناك. لقد تغير فهمى لها، فعدت إليها الآن أجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مثل يضرب لا حادث يقع».. ولكن «سحرها ما يزال. وجاذبيتها ما تزال».. «الحمد لله.. لقد وجدت القرآن» ! .. هكذا أضاف بنفسه.

وهكذا.. بدأت دراساته الإسلامية وتحولاته الإسلامية .

كان ذلك سنة ١٩٣٩ عندما نشر فى مجلة «المقتطف» بحثا بعنوان «التصوير الفنى فى القرآن».. كشف فيه ما فى القرآن «من جمال فنى»، وبين «القدرة القادرة

(١) سيد قطب «كتب وشخصيات» - ص ٢٨ .

(٢ و ٣) سيد قطب - «التصوير الفنى فى القرآن» - الطبعة السادسة - ١٩٨٠ - دار الشروق - ص ٧ .

التى تصور بالألفاظ المجردة، ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة، والعدسة المشخصة» كما قال.. وأضاف فى نهاية ما نشره فى «المقتطف»: «إن هذا البحث يصلح أن يكون موضوعا لرسالة جامعية».. ومرت السنوات، وصور القرآن تخايل له، فكان يعود إلى المصحف بين الحين والحين، حتى انتهى من الكتاب الذى يحمل نفس عنوان البحث، وأهداه إلى أمه، ونشره سنة ١٩٤٥، مع كتاب آخر يخضع لنفس الرؤية، هو «مشاهد القيامة فى القرآن».

مما لا شك فيه أن من يقرأ القرآن بحثا عن صوره وظلاله الفنية لابد ألا يكتفى بالسباحة بالقرب من الشاطئ.. ولابد أن يحفظه.. ويتشربه.. ويتأمله.. ويعرف معانى آياته وكلماته.. وسحره.. وإعجازه.. ولابد أن يقترب من حكمته.. وتفسيره.. ولابد فى النهاية أن يخضع لسلطان القرآن.. وقد حدث هذا بالضبط معه.. إن سحر القرآن القاهر قد أخضع عمر بن الخطاب وجعله يسلم بالإسلام.. كذلك فعل هذا السحر بسيد قطب، فجاء به من الشك إلى الدين.. وكانت نهاية هذا البحث بداية جديدة له.. بداية قال عنها: «وجدتنى أشهد فى نفسى مولد القرآن من جديد. لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً. لقد كان القرآن جميلا فى نفسى.. نعم. ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق. أما اليوم فهو عندى جملة موحدة، تقوم على قاعدة خالصة، قاعدة فيها التناسق العجيب، ما لم أكن أحلم من قبل به، وما لا أظن أحدا تصوره»!

■■

عاد سيد قطب إلى الإسلام من أوسع أبوابه!

وكان أن راحت باقى الأبواب تفتح أمامه من تلقاء نفسها!

إن فهمه للقرآن تخطى الآن حد الصور والظلال، تخطى هدفه الأدبى والبلاغى إلى ما هو مختلف عن هذا الهدف.. تخطاه إلى الواقع الاجتماعى والاقتصادى، المزروع - فى تلك الفترة - بأشجار مذهبية وعقائدية مختلفة، على وشك أن تثمر.. فكان أن وجد نفسه ينظر إليها على أنها أعمدة خرسانية، لا روح فيها ولا نبض، ثم راح يحطمها بما توصل إليه.. وصاغه فى أولى دراساته الإسلامية، الاجتماعية،

والاقتصادية، والتى صدرت فى كتابه الشهير «العدالة الاجتماعية فى الإسلام».. صدر الكتاب سنة ١٩٤٩ (عن دار المعارف).. وهذا يعنى أنه كتبه بعد ٤ سنوات من نشر «التصوير الفنى فى القرآن»، وهذا يعنى أيضاً، أن انتقاله من البلاغة (الدينية) إلى النظرية الإسلامية لم يستغرق وقتا طويلاً.. وخلال هذا الوقت يمكن أن نقول أنه تحول من كاتب إلى مفكر!

كان إهداء الكتاب : «إلى الفتية الذين ألمحهم فى خيالى قادمين يردون هذا الدين جديدا كما بدأ، يجاهدون فى سبيل الله لا يخافون لومة لائم....»

فهم البعض أنه يقصد بهؤلاء الفتية «شباب» الإخوان المسلمين.. وفهم شباب الإخوان المسلمين ذلك أيضا.. فهموا أنهم المعنيون بالإهداء.. ولم يكن الأمر كذلك، كما اعترف سيد قطب بنفسه فيما بعد فى الإقرار الذى كتبه بخط يده فى قضية ١٩٦٥ .

وقد أضاف سيد قطب : إن الإخوان المسلمين اعتبروه صديقا، «وبدأوا يهتمون بأمره» .. ولما سافر أمريكا (١٩٤٨) وعاد (١٩٥٠) بدأ بعض شبابهم يزورونه، ويتحدثون معه عن الكتاب.. وبدأت علاقة قوية بينه وبين الجماعة.

وهناك شبه إجماع بين المفكرين المعاصرين (حتى الذين يختلفون تماما معه) على أن الكتاب كان المرة الأولى التى يتجرأ فيها كاتب.. مثقف.. مسلم، ويطرح نظرية إسلامية، اجتماعية جديدة، تأخذ فى الاعتبار ظروف العصر بما فيه، ويقارن بين الإسلام والمذاهب الوضعية المعروفة من الرأسمالية إلى الشيوعية.. لذلك لقى الكتاب رواجا هائلا.. وأعيد طبعه على فترات قصيرة متلاحقة.. واعترف بعض «الضباط الأحرار» أنه «كان من الكتب الهامة التى حرصوا على قراءتها قبل الثورة»[٤].. وفيما بعد، اعتبر الدكتور «سمير أمين» سيد قطب بعد هذا الكتاب «المنتج الأيدلوچى الوحيد للإخوان المسلمين».. لأن الكتاب كان «بمثابة نظرية عامة سبقت إعادة ظهور التيار السلفى فى عهدنا» [٥]. فلا أحد من منظرى السلفية الذين

---

(٤) د. الطاهر مكى - مرجع سابق.

(٥) د. سمير أمين - «أزمة المجتمع العربى» - دار المستقبل - ١٩٨٥ - ص ٩٢ وما بعدها.

نقـرأ لهم الآن زاد شيئاً عما قدمه سيد قطب «هذا المفكر الباكر» (٦).. إن كل مصادر السلفية فى أيامنا.. الكتب.. المجلات.. الندوات.. المنشورات.. برامج التليفزيون الدينية.. خطب آيات الله فى إيران.. لاتزيد على ما قال.. كلها صورة أخرى مما هو موجود «فى كتاب الأستاذ».

الكتاب ينقسم إلى نصفين : نصف يعالج مشاكل تاريخ الإسلام والغرب.. وهو نصف لم يتوقف عنده أحد كثيرا.. ونصف يعالج مفهوم الإسلام للعدالة والسلطة، وهو النصف الذى بقى إلى الآن.. والذى سنقترب منه قدر الإمكان.. إن سر نجاح النموذج الإسلامى - فى رؤية - «تحرير الإنسان».. تحريره من الخوف، لأن ليس لمخلوق على مخلوق سلطان.. فهذا السلطان لله وحده.. وليس بين الإنسان والله توسط.. ولا إمام.. والسلطة لذلك للأمة لا للحاكم.. فالحاكم لا يبتكر من عنده القوانين، فهى مفروضة من الله.. وتحكم كافة جوانب الحياة اليومية.. العائلة. الزواج. النسل. الوراثة. السلطة. الضرائب. الملكية. العقود. والحريات العامة والخاصة.. ولو كانت القوانين الإلهية «الشريعة» تتطلب التفسير والتكييف.. فهذه مهمة الحكومة الإسلامية.. «ولكن، بما أن المبادئ معلنة، فإن مسئولية الحكومة تكون إدارتها فقط».

هذه النظرة ترفض الفصل بين الدين والدولة.. والإسلام - كما يقول - «ليس عقيدة وإيمانا فقط بل أيضاً نظام اجتماعى» .. وبما أن الشريعة موجودة، فقاعدة الحكم المطلوبة بسيطة «جداً».. «حكومة عادلة ومحكومون مطيعون».. لكن هذه القاعدة الأولية على بساطتها لم تطبق فـى تـاريـخ القـرون الأربعة عشر للشعوب الإسلامية إلا ٣٠ سنة.. فترة حكم الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم والشهور القليلة التى حكم فيها الحسن بن على رضى الله عنه قبل أن يتنازل عن الحكم لبنى أمية حقناً لدماء المسلمين.. فبعد تلك السنوات، يقول سيد قطب، «بدأ الانحراف عن سنة الإسلام الرفيعة».. ولعل السبب - فى رأيه - كان «سرعة إسلام شعوب المنطقة» التى أدت إلى «عدم جدية إسلامهم، إذ أنهم لم يتحرروا من بقايا عقائدهم السابقة».

---

(٦) د. سمير أمين - «أزمة المجتمع العربى» - دار المستقبل - ١٩٨٥ - ص ٩٢ وما بعدها.

وإذا كان الإسلام - مثل أى واقع اجتماعى - عنصر توحيد، فإن «اختيار القومية» بعناصرها المختلفة (اللغة والثقافة) واقع اجتماعى أيضاً.. وعنصر من عناصر التوحيد رغم الاختلافات الدينية.. لكن سيد قطب يقبل الواقع الأول ويرفض الواقع الثانى.. فيتحدث عن «الأمة» الإسلامية.. ولا يهتم بغيرها.. وينكر «الأمة» العربية (وإن كانت إسلامية أيضاً) ويثور ضد كاتب إسلامى ليبرالى مثل د.محمد حسين هيكل، لأنه يهتم بدراسة واقع الدول العربية، التى لا يعترف بها سيد قطب.

وأغلب الظن أن الذين يرفضون القومية العربية الآن، ويصرون على استبدالها بالأمة الإسلامية، قد استمدوا حماسهم من غضبة سيد قطب وانفعالاته فى تلك القضية التى أثيرت مع العصر الاستعمارى للمنطقة فى بداية القرن الماضى: ثم خمدت.. حتى نفخ فيها من جديد سيد قطب.

كما أنه كان عنصر جذب قوى للحرفيين الإسلاميين، الذين يعتبرون القرآن والسنة المصدر الوحيد الممكن التعامل معه.. إنهم لا يقبلون التعامل مع واسطة كتب الفقه، ويعتبرون مجادلات الفلسفة الإسلامية إنكارا للدين.. وهذا الاعتقاد امتداد لما قاله سيد قطب، الذى اعتبر «التفكير» مكروها.. والإصلاح الدينى، وتحديث الأزهر انحرافا بالإسلام!!

لكن..

إذا كان هذا مثار خلاف بين سيد قطب ومن تبعه، وفصائل أخرى من الإسلاميين (داخل الإخوان وخارجهم) فإن هناك اتفاقا بينهم.. أو بين أغلبهم وسيد قطب فى أن المساواة فى الإسلام تشمل المساواة بين الجنسين، كما تشمل الشعوب من الذميين، وحتى عابدى الأصنام، الذين تحالفت الأمة الإسلامية معهم.. كذلك ما قاله سيد قطب عن سبب خفض نصيب المرأة من الإرث إلى نصف نصيب الرجل (السبب أن الرجل عليه أعباء العائلة المادية) فهذا معروف ولا خلاف عليه، مثله مثل تفسيره لضعف شهادة المرأة (المرأة عاطفية وشهادتها ليست قوية مثل شهادة

الرجل).. ومثل قوله عن احترام الإسلام للملكية الفردية (التى يعتبرها شرطا من شروط الطبيعة الإنسانية).. ومع استدراكه بأن احترام مصالح الأمة يتطلب استعمالا غير مفرط للملكية، مع ضرورة وجود ملكية عامة (النار والماء والكلأ).. ومنع الاحتكار (أى ضرورة تداول الثروة).. وتنظيم الأجر (لأن العمل هو المصدر الرئيسى للملكية).. وتنظيم مالية الدولة (الزكاة والجزية).

ولأن هذه المبادئ عامة.. ويكاد يكون متفقا عليها.. فإن سيد قطب حولها إلى برنامج إصلاحى، بدا مناسبا لظروف مصر فى سنة ١٩٤٩ .

١ - إعادة توزيع الملكية.. أى الإصلاح الزراعى.

٢ - تأميم الخدمات العامة.. وإن لم يحددها.

٣ - وضع حد أدنى للأجور.

لا شك أن سيد قطب كان صادقا ومخلصا وهو يقدم برنامجه.. لكن.. ترجمته - على هذا النحو - من المفاهيم الإسلامية إلى المفاهيم الاجتماعية.. جعل البرنامج لا يختلف كثيرا عن برامج ومطالب تيارات وأحزاب سياسية أخرى.. غير إسلامية.. فالوفد، والأحرار الدستوريون، والسعديون، طالبوا بالأخذ بأسلوب «الضرائب التصاعدية».. لتحقيق العدالة الاجتماعية.. والإخوان المسلمون والحزب الاشتراكى، وحزب الفلاح، طالبوا بتحديد الملكية.. لتحقيق العدالة الاجتماعية.. بل إننا سنجد الكتاب المحافظين قد طالبوا أيضاً بتحديد الملكية.. وذلك حتى لا تقوم ثورة تعصف بكل شىء .. فمصطفى أمين مثلا كتب فى «أخبار اليوم» يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٥ ، يطالب بالاستقلال الاجتماعى، ويهيب بالأغنياء «أن يعرفوا أن العالم اتجه اليوم إلى العدالة الاجتماعية».. وأنه «خير لنا أن نعقد معاهدة شريفة بين الذين يملكون كل شىء ، والذين لا يملكون شيئاً، بدلا من أن نترك الريح تعصف بأولئك الذين يفضلون أن يفقدوا كل شىء على أن يعطوا المحروم جزءا من كل شىء»..

إن تعبيرات «العدالة الاجتماعية».. و«تحديد الملكية».. و«إعادة توزيع جزء من الثروة»، كانت فى ذلك الوقت تعبيرات شائعة فى الشارع المصرى.. أعطاها كل

مذهب أو تيار ثوبه الخاص.. وكان أن فعل سيد قطب نفس الشيء ووضع على ظهرها العباءة.. وفى يدها المسبحة.. ولا يقلل هذا بالطبع من تفسيراته واجتهاداته.. ولا يقلل من مستوى حماسه ووعيه الاجتماعى.. إذ أنه - فيما بعد - بعد أن اكتشف أن «الباشوات».. أصحاب «الكروش» يتحدثون بأنفسهم عن «العدالة الاجتماعية» سخر منهم، وراح يحاول فضحهم.. فقال: «وهم يتحدثون بين الحين والحين عن.. العدالة الاجتماعية! أى والله عن العدالة الاجتماعية.. وعن الطبقات المحرومة، وعن ضرورة تحسين الأحوال. وكثير هم «الباشوات» الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية البخور فى هذه الأيام، إذ كان ذلك ألطف مخدر للجماهير الكادحة، يهدئ أعصابها، ويسيل لعابها، ويمنيها بالعدل الاجتماعى الذى لا تكافح من أجله وحدها. بل يكافح معها «الباشوات» العظام! فما عليها إلا أن تستريح وتستبشر، وتنام ! ولكن شيئاً من ذلك كله لن يجدى فتيلا، فالطبيعة والحياة والدين والحضارة الإنسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعا، إنما هى تعلات فارغة، ذاهبة مع الريح والهواء»(٧).

فى تلك الفترة أيضاً، بدا أن الولايات المتحدة الأمريكية من المعجبين بنغمة «العدالة الاجتماعية».. إنها استعدت لأن ترث الامبراطوريات الاستعمارية القديمة (النفط. حماية إسرائيل. مواجهة الشيوعية) ولا يمكن أن تمد بصرها ويدها إلى مصر.. ولأن مصر كانت تغلى بالثورة.. ولأن الفقر كان الوقود الذى يغذيها، فإنه من الممكن أن يقود الثورة.. الشيوعيون.. وتصبغ مصر باللون الأحمر.. إذن لابد من إجراءات إصلاحية.. تجمل صورة الظلم الاجتماعى.. وتهدئ من غضبة الجوع.. وتشطب على هذه الثورة المتوقعة.. وكان أن ساهم الأمريكان فى العزف على نغمة الإصلاح الزراعى، والعدالة الاجتماعية.. والضرائب التصاعدية، وانضموا إلى «جوقة» العازفين.. فاختلط الحابل بالنابل!! ولم يعد أحد يميز بين صوت الباشوات، وصوت الأمريكان، ولا بين صوت الإخوان المسلمين، وصوت سيد قطب!!

---

(٧) سيد قطب «معركة الإسلام والرأسمالية» - الطبعة الثامنة - دار الشروق - ١٩٨٢ - ص ٢٣ .

على أن ما قاله سيد قطب فى «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» لم يمت، رغم «الشوشرة» عليه، و«تشويش» ظروف تلك الأيام.. فقد بقى الكتاب بمثابة «دستور» للسلفية الإسلامية «الهادئة» - إذا جاز التعبير - والتى نشطت فيما بعد.. وإذا كان سيد قطب - فيما بعد أيضاً - قد رفض هذا الدستور.. وتجاوزه بكتاب «معالم فى الطريق» الذى أصبح هو الآخر دستورا.. للسلفية الراديكالية - فإن هناك من بقى محتفظا به.. مهتديا بمصابيح أفكاره.. مكررا نفس عباراته.

■■

كان هذا الكتاب بداية مرحلة انتفاضة على المذاهب الوضعية.. وكان بمثابة تمهيد الطريق «نحو مجتمع إسلامي» (٨) يكون فيه «المستقبل لهذا الدين» (٩) .. لقد حدد فى الكتاب أصول النظرية الاجتماعية فى الإسلام. ثم.. كان عليه من باب التدليل والترويج أن يثبت أنها أفضل من غيرها.. وذلك بفضح عورات غيرها.. ثم.. كان عليه أن يحدد كيف يمكن أن نطبقها؟ .. أو كيف يمكن أن نبعثها من جديد بعد كل هذه القرون؟!

بدأ الهجوم بمقولة الفيلسوف البريطانى «برتراند راسل» الشهيرة، التى تنبأ فيها بنهاية عصر الرجل الأبيض لأن حضارته قد استنفدت أغراضها. ولم يعد لديها ما تعطيه للبشرية من مبادىء وأفكار، تسمح للحياة بنمو جديد، وازدهار جديد؛ وكل حضارة إنما تعيش بمقدار ما تملك أن تعطى البشرية من رصيد فى إدراك الحياة، وبمقدار ما يسمح هذا الرصيد للحياة بالامتداد والنمو والرقى».

و«لقد انتهت الحضارة الأوربية الأمريكية إلى أن تقصرهمها على نتاج المصانع، أما فى حقل المبادىء فإنها ظلت تجتر مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية، الإخاء ، المساواة) التى فقدت مدلولاتها (١٠). فالحرية الشخصية تحولت إلى حرية استغلال رأس المال للطبقات العاملة. أو تحولت إلى حرية «الشهوة الغريزية».. والإخاء فى الإنسانية

---

(٨) اسم كتاب لسيد قطب - نشرت طبعته الثالثة (١٩٧٨) دار الشروق.

(٩) اسم كتاب لسيد قطب - نشر طبعته السادسة (١٩٨٦) الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية.

(١٠) سيد قطب «نحو مجتمع إسلامى» - ص ٢١ - ٢٢ .

تحول - بفضل الاستعمار الأوربى - إلى استنزاف للشعوب المقهورة، المغلوبة على أمرها.. والمساواة القانونية لا يمكن تحقيقها «فى عالم مادى حين تختل الموازين الاقتصادية، وحين ينقسم الناس إلى ملاك ورأسماليين فى جانب، وعمال ضعفاء فى جانب آخر» (١١).

ومن هنا برزت - فى رأيه - الفكرة الشيوعية.. «لأنها تحتل فى عالم المبادئ مساحة أوسع من المساحة التى انتهت إليـــها مبادئ الثورة الفرنسية فى العالم الغربى» (١٢).. «إن الشيوعية هى النهاية الطبيعية لحضارة خالية من الروح، خاوية من المثل، مجردة من الأحلام»(١٣).. و«الإنسان الغربى يجد اليوم فى الشيوعية من غذاء الروح ما لا يجده فى مخلفات حضارة استنفدت أغراضها» (١٤).. لكن ما إن «يتم الخلاص من قبضة الرأسمالية الاستعمارية» حتى تجد الشيوعية نفسها فى ورطة هى الأخرى.. إذ أن الإنسان بعد أن يسد «جوعة الجسد» سيجد نفسه فى حاجة إلى هدف إنسانى أكبر من الملذات، وإلى صلة بالكون أشمل من البيئة، وإلى عقيدة فى قوة أكبر من البشرية، إلى مستقبل دائم النمو لا يقف عند حد محدود (١٥)، ومن هنا لابد أن يأتى دور الإسلام، الذى لا يشك سيد قطب فى «أن قيادة البشرية صائرة إليه، لأنه لو لم يكن موجودا لبحثت عنه الإنسانية ولابتدعت نظاما يشبهه بعد انحسار الموجتين السابقتين اللتين كانتا على طرفى نقيض» (١٦). ويحتاج هذا التحليل المكتوب بصياغة تبدو جازمة، إلى كثير من الجدل والنقاش.. على الأقل فى خلطه بين النظريات والتطبيق.. وفى تجاهله لإمكانيات التأثر بين النماذج التى أشار إليها، بحكم أشياء كثيرة لم يضعها فى حسبانه، مثل ثورة المواصلات، وتكنولوجيا التليفزيون، واختلاط المذاهب.. إلخ.. لكن.. هذا الحوار لا نعتقد أننا فى حاجة إليه الآن!!

---

(١١) المرجع السابق - ص ٢٠ .
(١٢) المرجع السابق - ص ٢٢ .
(١٣) المرجع السابق - ص ٢٥ .
(١٤) المرجع السابق - ص ٢٥ .
(١٥) المرجع السابق - ص ٢٩ .
(١٦) المرجع السابق - ص ٣٣.

باختصار.. يمكن تصور نظريته فى تطور المذاهب - فى تلك المرحلة الذهنية من حياته - على أن أزمة الرأسمالية المادية والحضارية ستحل بالشيوعية.. التى سترضى البشرية ماديا، لكنها ستعجز عن ذلك معنويا.. فتكون أزمتها هى الأخرى التى لن تحل إلا بالإسلام.. ولا تخلو النظرية من أسلوب تفكير جدلى (ديالكتيكى) مع الوصول إلى محطة أبعد (الإسلام) أبعد من التى وصل إليها الماديون (الشيوعية)!!

ويبدو سيد قطب متأكدا من نظريته إلى الحد الذى يحدد برنامجا زمنيا لمراحلها.. فهو يرى أن الرأسمالية ستنتهى مع نهاية القرن العشرين.. الذى لن يكتمل إلا وتكون الشيوعية قد سيطرت على عالم الحضارة الغربية بما فى ذلك أمريكا.. أما أقصى مدى تصوره للمد الشيوعى، فكان لا يتجاوز جيله وأوائل الجيل الذى يليه.. وعلى ما يبدو.. لم يكن ما جرى فى العالم.. مؤيدا لتقديراته!

■■

كيف نصل إلى المجتمع الإسلامى؟!

كيف نستوحى الإسلام؟! (١٧)

فى تلك المرحلة «فرق سيد قطب بين الشريعة والفقه.. الشريعة من صنع الله، ومصدرها القرآن والسنة.. والفقه من صنع البشر استمدوه من فهمهم وتفسيرهم للشريعة.. الشريعة ثابتة والفقه متغير.. لابد من التمسك بالشريعة، ويمكن التجاوز عن الفقه ... هذه حقيقة.

الحقيقة الأخرى التى يقدمها قبل الدخول فى التفاصيل.. «أن الصور التاريخية للمجتمع الإسلامى ليست الصور النهائية لهذا المجتمع، بل هناك صور متجددة أبدا».. فالحياة متغيرة.. تندفع إلى الأمام.. تتجدد حاجاتها.. تتغير علاقات الناس فيها.. كذلك وسائل العمل وطرق الإنتاج.. تبرز للوجود أوضاعا جديدة.. مشاعر جديدة.. وأهدافا جديدة.. «فكيف إذن يمكن لفكرة ثابتة أن تواجه حاجات وأحوالاً

(١٧) إجابة سيد قطب على السؤال. كما عرضناها مصدرها المرجع السابق ص ٤٦ - ٦١.

متجددة؟ وكيف يمكن لهذه الحاجات والأحوال أن تتحرك وتنمو فى ظل فكرة ثابتة؟ !».

سؤال وجيه.. حيوى.. لا يزال مطروحا حتى الآن!

يقول: إن الشريعة جاءت فى صورة مبادئ كلية، وقواعد عامة، يمكن أن تنبثق منها عشرات الصور الاجتماعية الحية.. ولا تعارض بينها وبين التطور «الدائم».. وحتى نأخذ من المبادئ العامة ونرسم الصور الاجتماعية الحية لابد من الفقه.. فتشريعات الفقه كانت تلبية لحاجات زمنها.. وأى نقل منها من زمن لفرضها على زمن آخر «ليس من شرع الله ولا من عمل رسول الله (ﷺ).. فهى لا تصلح إلا للاسترشاد والاستشهاد بها فى الحالات المشابهة التى تشهدها الأجيال المتجددة.. «ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق؛ لأنه مجرد رأى بشرى فى شريعة الله، ليس جزءاً من الشريعة الثابتة الصادرة من الله».. هذا فيما يتعلق بالشريعة والفقه.. «أما فيما يتعلق بالمجتمع وأطواره.. فإن الصورة التاريخية للمجتمع الإسلامى، لا تحدد ولا تستوعب كل الصور الممكنة للمجتمع الإسلامى، ولكل جيل أن يبدع نظمه الاجتماعية فى حدود المبادئ الإسلامية، وأن يلبى حاجات زمانه باجتهادات فقهية قائمة على الأصول الكلية للشريعة».

ويضيف : وفيما يختص بالتطبيقات التى يحتاج إليها المجتمع لمسايرة الحاجات الزمنية المتجددة، لا يخرج الأمر عن أربعة احتمالات:

١ - أن تكون الشريعة قد نصت على حكم معين نصا صريحا، فهو إذن واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل، لأنه فى هذه الحالة إما أن يكون متعلقا بركن أساسى من أركان المجتمع الإسلامى التى أريد لها الدوام، وإما أن يكون متعلقا بسمة أساسية من سمات هذا المجتمع أريد تثبيتها والمحافظة عليها للمحافظة على هدف دائم فى كل زمان ومكان.

٢ - أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص أو نصوص قابلة للتأويل فيكون حينئذ قابلا للاجتهاد ترجيحا، أو توفيقا بين النصوص المختلفة إن كانت، أو بين

النص الواحد، والحالة المراد تطبيقها عليها، وذلك مع الاسترشاد بالتطبيقات العملية فى صدر الإسلام إن وجدت، والاستعانة بأقوال الفقهاء، ولكن دون التزام كامل بتلك الأقوال التى لم تكن إلا تلبية مباشرة لحاجات العصر الموقوتة.

٣ - أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام، تدخل هذه المسألة الخاصة فيه ضمنا، ولكنه لا ينص عليها صراحة، وعندئذ يكون الأمر موضع اجتهاد فى تطبيق المبدأ العام على الجزئية المعروضة مع الاسترشاد بالسوابق التاريخية، والأحكام الفقهية.. مجرد استرشاد.

٤ - أن تكون الشريعة قد سكتت عن هذا الأمر، فهو متروك إذن للاجتهاد المطلق، على ألا يصدم الحكم الذى يصل إليه، مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية، ولا أصلا من أصوله التشريعية.

إن هذا - فى رأيه - يحفظ للفكر الإسلامى «مرونته».. وللنظام الإسلامى «تجدده».. ويخلص المسلمين كذلك من التعقيدات الفقهية التى جاءت فى العصور المتأخرة، والتى تشيع اليأس فى رواد الشريعة الإسلامية عن طريق هذا الفقه المعقد، لأنهم يحسبونه أصلا من أصول الشريعة لا تتاح لإنسان معرفة الإسلام إلا بدراسته.

ثم .. «لقد استمر نمو الفقه الإسلامى، وتطوره إلى نحو القرن الثامن بعد انتقال الرسول (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى.. وكان فى نموه وتطوره متابعا لنمو المجتمع الإسلامى وتطوره كذلك. وملبيا لحاجاته المتجددة بسبب بروز تلك الحاجات».. ثم توقف أو كاد فى شق المعاملات.. وإن كان تضخم فى شق العبادات.. لقد ركد الفقه تبعا لركود المجتمع الإسلامى ذاته، «بحيث لم يعد يجد فيه من التغيرات والحاجات ما يستدعى اجتهادا فقهيا ذا بال.. حتى إذا قفزت الحياة قفزاتها الواسعة فى القرون الثلاثة الأخيرة، وتجدد المجتمع الإسلامى طفرة، لم يكن الفقه الإسلامى على استعداد لمسايرة الحياة المتوثبة، وبذلك وجدت فجوة تاريخية ضخمة فى تسلسل هذا الفقه ومسايرته للحياة الجديدة وحاجاتها التى تضاعفت أضعافا كثيرة».

ماذا نفعل إذن؟

يرد: أمامنا طريقان اثنان:

١ - أن نتابع خطوات الفقه الإسلامى من حيث وقفت لكى نستجد من البحوث ما يملأ هذه الفجوة الواسعة العميقة، ولكى تكون هذه التنمية طبيعية لا مصطنعة، فإنه يجب أن نتتبع الأحوال الاجتماعية، والحاجات اليومية، التى برزت، وتسلسلت فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة.. وهذا أمر صعب.. لا نأمن الزلل فيه.. كما أن المحاولة ستكون اصطناعية.

٢ - أن نرجع مباشرة إلى الشريعة الإسلامية، إلى مبادئها العامة، وتشريعاتها الكلية، نستلهمها حلولا تطبيقية لمشكلاتنا العصرية، كما فعل من قبلنا من فقهاء الإسلام حينما دعتهم حاجات زمانهم إلى استلهام تلك الشريعة. مسترشدين مع هذا بطريقتهم فى التطبيق. ومستعينين بما وصلوا إليه من أحكام.

وكان.. الطريق الثانى فى رأيه ونظره.. هو «الطريق المعقول».. إن لم يكن «هو الطريق الوحيد»! وكان.. أن فتح باب الحوار حول ما استقر عليه.. لأنه «على وشك أن يجعل هذا الرأى هو قاعدته فى تصور المجتمع الإسلامى الحديث».. ولم يغير الحوار من رأيه!!

وكان أن رفض عدد من علماء الأزهر ما انتهى اليه من رفض الفقه الإسلامى الذى كان .. واعتبروا السبب صعوبة تلك الكتب «المعقدة» عليه.. كما أنهم أضافوا أن ثقافته وطبيعته لم تفرضا عليه الصمود حتى تلين له تلك الكتب.

ولا يزال هذا النقد يوجه إليه إلى الآن!

فبعد أكثر من عشرين سنة على رحيله، قال الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى:

«إنى أحسب الشهيد سيد قطب - رحمه الله - لو أتيح له دراسة الفقه الإسلامى، والعيش فى كتبه ومراجعه زمنا، لغير رأيه هذا، فقد كان - فيما أعلم - رجاعا إلى الحق، ولكن تخصصه ولون ثقافته لم يتح له هذه الفرصة، وبخاصة أن مراجع الفقه بطريقتها وأسلوبها لا تلائم ذوقه الفنى الرفيع - وقد حدثنا

الشهيد عبـدالقادر عودة [١٨] عما عاناه (عودة لا قطب) فى فهم الكتب الفقهية حتى لان له جانبها، وسكن له قيادها [١٩].

ثم إنه أضاف :

١ - لو أهملنا الفقه لأنه فقه، لترتب على ذلك إهمال ما نسميه «الشريعة» نفسها لأنها لا توجد إلا داخله.

٢ - النظريات والفروع والمسائل والصور والشروح والتعليلات التى قام الفقهاء بتقديمها - على توالى العصور - ليست شيئاً هينا يتصور الاستغناء عنه بسهولة.

٣ - كما أنها ليست كلها مما فصل على قد زمن معين وبيئة معينة ولم يعد يصلح لعصرنا، فمعظم هذه الثروة الفقهية الضخمة صالح للتطبيق فى زماننا وبيئتنا والقليل منها هو الذى كان نتيجة بيئته وعصره.

لم ينته حتى الآن الجدل الذى أثاره سيد قطب هنا..

ثم كان أن أضاف له جدلا أكبر.. حول الجاهلية التى يعيش فيها المسلمون الآن.

وهكذا.. راحت الانفجارات تتوالى!

---

(١٨) من زعماء الإخوان المسلمين الذين أعدموا بعد حادث «المنشية» - ١٩٥٤ .

(١٩) الشيخ د. يوسف القرضاوى - ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب - جريدة «الشعب» - ١٨ نوفمبر ١٩٨٦ - ص ٦.



٤

أمريكا .. التى رأيت !

■ فى حمى المسابح والعمائم

■ إلى أمريكا : لماذا؟

■ دكتوراة فى غسل الأطباق

■ «مس فيرو» الصديقة الحسناء

■ الباشوات والكروش

■ الثراء المادى والفقر الروحى

■ الموت يثير السخرية

■ عضوية نوادى الكنائس

■ «ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج»

■ موسيقى الزنوج

■ قهوة بالملح ولحمة بالسكر

■ «لقد ولدت من جديد عام ١٩٥١»

نحن الآن فى سنة ١٩٤٨.

إن تلك السنة من السنوات «الانقلابية» الحادة فى تاريخ العرب.. وفى حياة سيد قطب أيضاً!

فى تلك السنة، وقعت «نكبة» فلسطين.. وتحولت إسرائيل من «عصابة» إلى «دولة» راحت ترنو بمطامعها نحو التوسع، وراحت تمد أنيابها وترشق أظافرها فى عنق من حولها.. وكان أن ضمنت وجودها وشراهتها وشراستها الولايات المتحدة الأمريكية، التى أضافت هذا «الضمان» لباقى أهدافها الحيوية، التى سعت لتحقيقها فى «الشرق الأوسط» وهى تزيح إمبراطوريات «الاستعمار القديم» لتحل محلها.

ولابد أن السيطرة على آبار «النفط» كانت على رأس أهدافها.. لذلك ليست صدفة أن تتمكن «الشركات الأمريكية، بدعم من الحكومة، من كسر طوق الاحتكار البريطانى للنفط الشرق أوسطى الذى بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى».. وأن تتحقق هذه الخطوة «الجبارة» سنة ١٩٤٨ (١).. ولابد أن الحرب الباردة ضد «الشيوعية» كانت هدفا على جانب كبير من الأهمية.. لذلك ليست صدفة أن يعترف رجل «المخابرات المركزية» الذى كانت المنطقة - فى ذلك الوقت - جزءا من مسئوليته «ويلبر كرين ايفلاند» فى كتابه «حبال من رمال».. أن الأمريكان استثمروا فهم الشيوعية على أنها نقيض للإسلام فى مواجهة المد الشيوعى.. ويضيف : إن هذا الفهم الذى توصل إليه العرب «بسبب قلة اطلاعهم عليها».. يقصد على الشيوعية، كان فرصة ذهبية لتحريك المنطقة فى الاتجاه الأمريكى.. وللاقتراب من التنظيمات الدينية بحذر.. لأنها إذا ما بدأت بالحرب على الشيوعية، فإنها ستمد الحرب فى النهاية إلى الرأسمالية أيضا.. وكان «هذا المناخ هو الذى سمح لبعض رجال الدين بأن يصدروا فتاوى لصالح شركات أمريكية عملاقة، بدأت تدخل إلى السوق المصرية وأرادت أن تفتح الطريق لمنتجاتها فى حمى المسابح والعمائم» (٢)

---

(١) ويلبر كرين ايفلاند - «حبال من رمال» ترجمة : على حداد - دار المروج - بيروت .
(٢) محمد حسنين هيكل «ملفات السويس» مؤسسة الأهرام ١٩٨٦ - ص ٧٢.

وفى تلك السنة، حلت جماعة الإخوان المسلمين.. وعاش أعضاؤها وزعماؤها ما سمى بالمحنة الأولى.. إن الحكومة اتهمت الجماعة أنها كانت وراء أحداث العنف التى جرت وقتها.. وتجرأ «النقراشى» باشا على إصدار قرار الحل.. وفتحت المعتقلات لطوابير من الإخوان.. وقبل أن تنتهى السنة بأيام اغتيل «النقراشى» برصاصات شاب من الجماعة هو عبد المجيد أحمد حسن!

وفى تلك السنة أيضا.. سافر سيد قطب فى بعثة مفتوحة إلى أمريكا!

■ ■

كان سيد قطب وقتها فى «ديوان» وزارة المعارف.. وكان قد قدم كثيرا من البحوث والمقترحات لإصلاح نظام التعليم، لعدد من الوزراء من بينهم نجيب الهلالى، وطه حسين.. لكن.. مصيرها دائما كان الإهمال.. فكان مثيرا للدهشة والاستغراب أن يقبلوا سفره فى بعثة إلى أمريكا، لدراسة أصول التربية والمناهج.. وقد كانت البعثة مفتوحة.. أى زيارات.. ولقاءات، بطول البلاد وعرضها.. لا مجرد دراسة معينة فى مكان محدد، لمدة محددة، كما هو الحال فى البعثات العلمية التقليدية فى الجامعات الأوربية.. لذلك فالأقرب للدقة أن نقول: إنها «زيارة».. لا «بعثة».

إن أمر هذه الزيارة يثير الحيرة، والقلق، ويرسم الكثير من علامات الاستفهام والتعجب.. فقد جاءت فى وقت كان يهاجم فيه النظام الملكى، وكاد هذا الهجوم - الذى أخذ شكل مقالات نارية - أن يوقعه فى الحبس، لولا صلاته الوفدية القديمة التى أنقذته.. وبدلا من الحبس، سافر إلى أمريكا.. وهذه البعثة لم يعلن عنها كالمعتاد.. كما أنه وقتها (٤٢ سنة) كان قد تجاوز السن المناسبة للبعثات.. كذلك فإنه قبل البعثة بوقت قصير، نقل إلى منصب فى مكتب الوزير يؤهله لها.. ثم.. لابد من سؤال هام : لماذا الولايات المتحدة بالذات فى تلك الفترة؟!.. ثم.. لابد من سؤال أهم: لماذا الولايات المتحدة، وبريطانيا أولى وأقرب ويذهب إليها كل من يريد التعرف على أساليب المناهج والتربية الغربية؟!

لا أحد - حتى سيد قطب نفسه - أشار إلى هذه الألغاز التى صاحبت البعثة.. الأمر الذى جعل البعض يشير إلى أنها كانت «وليدة تخطيط أمريكى خفى».. وإن «كان سيد قطب بعيدا عنها» (٣).. أى أن اختياره - دون أن يدرى - كان جزءا من الرهان الأمريكى، على بعض الوجوه، قدر لها - إذا استجابت - أن تلعب بعض الأدوار.. وقفزاً على الأحداث والواقع. نؤكد أن سيد قطب عاد من أمريكا ساخطا عليها، ومهاجما حضارتها.. بل أكثر عداء لها مما كان عليه قبل السفر.. وإن لم ينف هذا أنه هاجم ـ بنفس القدر ـ الشيوعية، والشيوعيين أيضاً!

فيما بعد .. اعترف سيد قطب لرفيقه فى السجن «سيد سالم» : «أنه وقع تحت إغراء الأوساط الأمريكية، بكل الوسائل، ولكنه لم يسقط فى شباك أى منها» (٤) ولم يحدد سيد قطب طبيعة هذا الإغراء.. ولا مداه.. وكان أن فضل الذين وقفوا إلى جواره، تفسير «الإغراء» تفسيرا جنسيا لا سياسيا.. دللوا عليه بأحداث عديدة بدأت على سطح السفينة التى حملته إلى «نيويورك».. حيث صدمته امرأة ذهبت الخمر بعقلها، وهى نصف عارية، فراودته عن نفسه.. لكنه استعاذ بالله، وقهر الشيطان، وأغلق الباب فى وجه الفتنة.. ولابد أنه راح - فى نفسه - يلعنها.

■■

إذا كان من الصعب أن نعرف لماذا سافر سيد قطب إلى أمريكا؟ فإن من السهل أن نعرف كيف كانت سنواته هناك؟.. فقد كان نشيطا فى كتابة الخطابات لعدد من الأصدقاء الذين احتفظوا بها.. أو نشروا بعضها فى مجلة «الرسالة» قبل أن يعود إلى مصر.. من هؤلاء شقيقه الناقد والكاتب «محمد قطب»، وزميل دفعة التخرج فى كلية «دار العلوم» محمد جبر، والأديب عباس خضر الذى كان يحرر باب المتابعات الثقافية فى «الرسالة».. والشاعر «محمد أبو الوفا».. وأيضا.. توفيق الحكيم أحياناً.

ولابد أن تكون صدمة ماراه أحد أسباب الكتابة.. فقد كانت المرة الأولى فى حياته التى يسافر فيها خارج مصر.. أى أنه انتقل فجأة من مصر إلى أمريكا.. ولابد أن

(٣و٤) د. الطاهر مكى - مجلة الهلال - مرجع سبقت الإشارة إليه.

تكون طبيعته الانطوائية السبب الثانى.. ولابد أن تكون قدرته الفائقة على النقد السبب الثالث.. وربما كانت هناك أسباب أخرى.. إن تلك الرسائل جزء من التراث الأدبى والفكرى لسيد قطب، وهى تحمل الكثير من انطباعاته وأفكاره فى مرحلة كان يتحول فيها.

والذى يقرأ ما تيسر من تلك الرسائل سيلاحظ أنه كان يفتقد العلاقات الإنسانية التى تعود عليها فى مصر.. كما كان يفتقد الجدل الفكرى الذى تعود أن يخوض فيه.. حتى أننا سنجده وهو فى أمريكا يقرأ وينقد الكتب المصرية، ويرسل بنقده إلى المجلات الأدبية (نشر نقداً لكتاب «الملك أوديب» فى مجلة «الرسالة» - ٦ مايو ١٩٤٩).. وسيلاحظ أنه أصيب بأزمات صحية متعددة، اقتضت دخوله المستشفى أحياناً.. أى أن المرض حال بينه وبين رؤية المجتمع من حوله أحياناً.. وسيلاحظ أن إحساسه بالغربة، وخوفه من البرد والرياح، وبحثه عن الدفء والشمس والجفاف، جعله يعيش بحنين دائم لمصر، فرض عليه كتابة الشعر فيها.. وسيلاحظ أن لغته الانجليزية لم تكن على مستوى يؤهله لفهم المجتمع فهما واضحاً.. ورغم أنه دخل أحد معاهد تعليم اللغة هناك، فإن لهجة الأمريكان الخاصة، وقفت فى بعض الأحيان عقبة فى وجهه هناك.. وسيلاحظ أنه فى رسائله كان يكتب الأسماء.. أسماء المدن والأشخاص بالحروف اللاتينية.

بالإضافة إلى هذه الرسائل، كتب سيد قطب - بعد عودته - ثلاث مقالات فى مجلة الرسالة تحت عنوان: «أمريكا التى رأيت - فى ميزان القيم الإنسانية»، نشرت فى الأعداد ٩٥٧، ٩٥٩، ٩٦١، وكان من المقرر أن يستكملها فى كتاب يصدر عن سلسلة «اقرأ» بنفس العنوان، لكنه لم يفعل. وقد عبثت أيد بهذه المقالات فى نسخة «الرسالة» المتداولة فى «دار الكتب» ومزقت أغلب صفحاتها.. وبصعوبة شديدة، حصلت عليها!

إن الرسائل والمقالات تقدم لنا الكثير.. عن سيد قطب فى أمريكا.

ثم.. إن قراءتها بنصها.. متعة أدبية.. وتاريخية.

أهدى توفيق الحكيم نسخة من «الملك أوديب» إلى سيد قطب وهو فى أمريكا،

فاعتبر أنها «شيء عزيز ثمين بالقياس إليّ هنا في تلك «الورشة» الضخمة، السخيفة التي يسمونها: «العالم الجديد» (٥). . ثمّ أضاف :

عزيزي توفيق الحكيم :

إن شيئا واحداً ينقص هؤلاء الأمريكيين، على حين تزخر أمريكا بكل شيء، شيء واحد لا قيمة له عندهم.. الروح!

بحث يقدم للدكتوراة في إحدى جامعاتهم – وقد قدم فعلاً – عن «أفضل الطرق لغسل الأطباق» أحب إليهم ألف مرة وأهم من رسالة عن «الإنجيل» إن لم يكن أهم من ذات الإنجيل، وأمامي وأنا أكتب إليك هذه الكلمات من مطعم، شاب أمريكي يثبت على صدره «سبع» ويجثم على ظهره «فيل». لا تُرعْ! فذلك السبع إنما هو رسم يملأ فراغ رباط عنقه، وهذا الفيل إنما هو رسم كذلك يملأ فراغ صدريته! لقد رسم السبع باللون البرتقالي الفاقع على أرضية «أخضر زرعي» ورسم الفيل باللون الكحلي على أرضية «كرنبي» وهذا السبع مع رباط الرقبة مدلى فوق الصدرية لا تحتها حسب مزاج «التقاليع».

والموسيقى.. ولكن مالي وهذا كله! إن ذلك حديث آخر ليس وقته الآن.

أردت فقط أن أقول لك : كيف كانت هديتك في «العالم الجديد».

سيد قطب

■■

أخي عباس (٦)

صحت نبوءتك، فتعافيت، لا بفضل Miss Fero (ميس فيرو) صديقتك الحسناء، ولكن بفضل انتقالي من سان فرانسيسكو برياحها الرطبة المتغيرة إلى مدينة صغيرة في وسط الوادي تسمى Pala alto (بالا التو) وقد شممت فيها رائحة مصر فتعافيت.

---

(٥) مجلة «الرسالة» العدد ٨٢٧ – ٩ مايو ١٩٤٩.

(٦) المقصود عباس خضر.. وقد نشر الخطاب في مجلة «الرسالة» الأسبوعية – العدد ٨٨٧ (السنة – ١٨) ٣ يوليو ١٩٥٠ – ص ٧٥٦.

أذكر أنك كتبت مرة عن الربيع وشعراء الربيع فى مصر، أنا أوافقك على الشطر الثانى، أوافقك على أن شعراء الربيع فى مصر «عرة» أما إنحاؤك على جو مصر وترابه وعفاره.. إلخ. فأؤكد لك أنه «بطر» بنعمة الله.. هنا أمريكا التى ينشرون دعوة طويلة عريضة عن جوها، وبخاصة جو كاليفورنيا لا تقاس بشىء إلى مصر ولا تسمع ما يقوله بعض الرقعاء عن جو فرنسا، فبين يدى الآن رسالة من شاب مصرى غير مخدوع، يعيش فى فرنسا، مفتوح العينين، يحدثنى عن التقلبات والأنواء ويتمنى نسمة مصرية وهذا هو ما أتمناه أنا كذلك!

إننا ننقص من قدر أنفسنا حتى فى الطبيعة، أما الأجانب فيعرفون كيف يقومون بالدعاية لبلادهم ليجلبوا إليها الناس بغرض مادى هو الحصول على نقد أجنبى وإن كان الذين زاروا مصر منهم يخجلون أن يقيسوا بلادهم إليها.

إننا نملك أشياء كثيرة ولكننا لا ننتفع بها ولا نستغلها..

هذه هى المسألة، فإذا أنحينا باللائمة فلننح لا على بلادنا ولكن على تلك الحفنة الجاهلة المريضة الأنانية التى تتولى أقدارها، ولا تؤدى لها خدمة ما ولا تستغل كنوزها سواء كنوز الطبيعة الأرضية أو كنوز الطبيعة البشرية.

إننا نملك طاقات – من الذكاء الخارق – حين نقارن شعبنا إلى شعب كالأمريكان، ولكننا نهمل هذه الكنوز بالجهل والأمية والفقر المدقع القاتل لكل موهبة، وذلك لتستمتع حفنة من الباشوات و«الكروش» بترف لا تعرفه القرون الوسطى.

هذا هو عيبنا، أما طبيعة بلادنا وطبيعة شعبنا فهى فوق مستوى الشبهات.

قولوا أيها الكتّاب للشعب حين تكتبون إن المتحكمين فيكم يقبرون نبوغكم، ويدفنون مواردكم، وأنتم تملكون ما لا يملك شعب آخر فى الوجود.

وتحياتى إليك وإلى اللقاء.

أخى – بعد أن كتبت لك هذا وقرأته رأيته يصلح للنشر والتعليق، فإذا رأيت أن تجعله موضوع تعليقك، فأنت فى حل من نشره.

سيد قطب

نشر عباس خضر الرسالة.. بالفعل.. وعلق عليها أيضاً..

قال:

أسارع أولاً فأبين مسألة صديقتي الحسناء مسز فيرو.. لأنها تمس السياسة الداخلية في بيتي.. المسألة أن إحدى رسائلي إلى الصديق الذي أوحشنا وصلت إليه وهو في المستشفى فلفت نظر الممرضة الحسناء - كما يقول - ما عليها من طوابع مصرية مختلفة الألوان: أحمر وأخضر وأصفر فأعجبت بهذه المجموعة العجيبة، ولعلها أعجبت أيضاً بخطي الرديء المكتوب على الغلاف فاحتفظت به.. ومالي في ذلك يدان!!

ليست هذه الرسالة الوحيدة من رسائل الأستاذ سيد قطب التي تضمنت بعض الموضوعات العامة، فقد كتب مرة يقول:

تصلح أمريكا أن تكون «ورشة العالم» فتؤدي وظيفتها على خير ما يكون أما أن يكون العالم كله كأمريكا فتلك هي كارثة الإنسانية بكل تأكيد.

فكتبت إليه فيما كتبت:

إني يا أخي لا أرى لدينا روحية محبوبة، فنحن ماديون كالأمريكيين وكل ما بيننا من فرق أن ماديتهم منظمة ونحن في فوضى، فجاء رده:

لمحت في رسالتك إليّ أنك «قرفان» من مصر ولهذا لا تستريح إلى ما أكتبه عن أمريكا.. إنني حين أكتب عن أمريكا ما أحسه من حقائق لا أعني أنني راض عن الحياة في الشرق وما فيها، ولكن هناك شيئاً واحداً لا يصح أن نغفله، أن أمريكا تستخدم كل رصيدها الممكن وأننا نهمل رصيدنا فنبدو مفلسين، إن الحاضر الواقع في بلادنا لا يرضي أحداً، ولكن الممكنات أمامها كثيرة لو وثقنا في أنفسنا وفي

رصيدنا المكنون، وهذا هو مفترق الطريق ولو أنك عشت فى أمريكا بعض الوقت كما عشت لحمدت للشرق روحه رغم هذا الخمول الذى يعانيه.

....

وأنا أوافق الصديق الكريم على ممتلكاتنا ومكنوناتنا وأومن معه بشعبنا ومواهبه المقبورة ولكننى أرى أن تلك المكنونات قد أصبحت كمحتويات دار الآثار، نتحدث عنها ونطيل الحديث ولا شىء وراء ذلك، أما المواهب المقبورة أو كنوز الطبيعة البشرية المهملة فى مصر فأمرها ظاهر وداؤها يبدو معضلاً ، وإذا كانت حفنة «الباشوات» و«الكروش» تتحكم وتستغل فإن «حفنات» من الوصوليين يتخذون الأسباب المختلفة إلى أولئك، يسيرون فى ركابهم ويصهرون إليهم وغير ذلك من أساليب، فيكتالون ويستوفون، وهناك مئات من ذوى الكفايات يقعد بهم الحياء وتحتجنهم الكرامة.

....

وألاحظ أن الصديق الكريم يختلج به حنين شديد إلى الوطن فهو يتمنى نسمة مصرية وهو يتعافى حين يشم جواً كجو مصر ولعل لذلك الحنين دخلاً فى إشادته بجو مصر، ولعل شوقه إلى حلوان الدافئة الجميلة المهملة هو الذى أثاره على كاليفورنيا ونحل بعده عن مصر فى هذا العام الذى كثرت فيه التقلبات الجوية عندنا هو الذى جعله يظن أن سان فرانسيسكو هى ذات الرياح الرطبة المتغيرة أبداً.

السلام عليك أيها الصديق وإلى اللقاء فى قدومك القريب.

عباس خضر

أخى عباس... (٧)

آسف أن أكون فى حديثى إليك عن Miss (ميس) لا Mrs. Frorro (مسز فرور) (٨) من فضلك ! قد مسست سياستك الداخلية فى بيتك، فأنت الذى جعلتنى أتحدث لك عنها باهتمامك الظاهر بها وبأخبارها وبتفصيلات اهتمامها بخطك.. إلخ والآن بينى وبينها حوالى ٥٠٠ ميل، ولم يشفنى حسنها ولا حسن تمريضها بقدر ما شفتنى نسمات فيها من نسمات مصر مشابه وروائح!

وأفرغ من هذا إلى تعليقك على رسالتى إليك.. عن تلك الحفنة من «الباشوات» و«الكروش» وعن تلك «الحفنات» التى تحدثت عنها من الوصوليين الذين يسيرون فى ركابهم، ويصهرون إليهم وغير ذلك من أساليب، فيكتالون، ويستوفون، وهناك مئات من ذوى الكفايات يقعد بهم الحياء وتحتجنهم الكرامة فيهملون.. وبذلك تحرم البلاد من خير أبنائها وأوفرهم حماء وكرامة، ويحرمون هم مما تلغ فيه «الكلاب» كما يقول.. أنا لا أومن بهذا «الحياء» الذى يقعد بأصحاب الكفايات عن بلوغ حقهم وترك «الكلاب» تلغ فى الاستثناءات وغير الاستثناءات.

بل أنا أشك فى «كفاية» هذه الكفايات التى ترى حقوقها تؤخذ وتعطى للكلاب من الوصوليين ثم تتقبل ذلك راضية!

لو أن كل هذه الجموع من الموظفين وغير الموظفين التى لا تملك صهراً إلى وزير أو كبير ولا تملك الوسائل الأخرى التى لا يرضاها الرجل الشريف والتى تقفز بأصحابها فوق الأمناء الشرفاء، أقول لو أن هذه الجموع كانت لها كفايات حقيقية لما سكتت على هذا الفساد ولما تركت هذه الوسائل الملتوية تعمل عملها فى داخل الدواوين وخارجها.

إن الذى يسكت على حقه - خوفاً من غضب وزير أو رئيس - ويدع «الكلاب» تقفز فوق رأسه بالاستثناء أو بأية وسيلة أخرى تنقصه أهم أنواع

(٧) المقصود عباس خضر أيضاً - مجلة الرسالة - ٣١ يوليو ١٩٥٠.

(٨) واضح أن عباس خضر فى رده استخدم تعبير مسز (أى سيدة) بدلاً من مس (آنسة) فبدأ سيد قطب هذه الرسالة بالتصحيح.

«الكفايات» وهى تلك الشجاعة الأدبية.

لو أن كل صاحب حق من هؤلاء أسمع الوزير أو الكبير صوت غضبه لتخطيه لما جرؤ وزير أو كبير على أن يمضى فى طريقه إلى حد التبجح أحياناً بالمحسوبيات والاستثناءات.

لست أنكر أن كثيراً من هؤلاء الموظفين الأمناء الشرفاء المتواضعين الذين تقفز على رؤوسهم الكلاب يضطلعون بأعباء عائلية، ويخشون نقمة الوزير والرئيس ويخافون على لقمة الخبز أن تؤخذ من أفواه أطفالهم ومن يعولون من آباء وأمهات وأقرباء ذلك حق ولكنه لا يبرر السكوت.

ماذا يملك الوزير الذى يرقى مائة فى وزارته بالاستثناء لو أن مئات الموظفين الآخرين أسمعوه صوت غضبهم على تصرفه المعيب ؟ إنه لا يملك أن يرقيهم جميعاً بالاستثناء ولا يملك كذلك أن يطردهم جميعاً من وزارته، ولكنه يملك أن يتعلم أن هؤلاء الموظفين فى وزارته ليسوا «عبيداً» فى ضيعته، أعنى أنه يملك أن يكون أكثر «أدباً» ولو أنه وزير.

إننى لا أملك أن أسمى سياسة القفز بالوصوليين والمحاسيب والأصهار إلا سوء أدب منشؤه أن التربية السياسية للشعب لم تنضج بعد ليستطيع أن يربى أصحاب السلطة فيه كما ينبغى أن يكون. وهكذا ترى أن هؤلاء الأمناء الشرفاء من الموظفين مسئولون عما يناله الوصوليون المحظوظون فليجربوا مرة أن «يؤدبوا» ذلك الرئيس الذى يتخطاهم ولن يكلفهم هذا إلا أن يبلغوه صوتهم متضامنين!

وتقول : «من حقى أن أكون قرفان» من جانب حالتنا التى لا تسر، لست أحاول أن أمنعك من القرف ولكن أحب أن يستحيل هذا القرف سخطاً، نحن فى حاجة إلى السخط على أوضاعنا الحاضرة، لا إلى القرف منها، فالسخط معناه أن ننفض أيدينا من الأمر يائسين.

وإذا آمنا بأن لنا رصيداً من كنوز الطبيعة الأرضية ومن كنوز الطبيعة البشرية على السواء وأن حفنة من «الباشوات» و«الكروش» هى التى تهمل ذلك كله، وتقبله، فإنه

يكون أمامنا أن نصنع شيئاً، أن نجمع كل العناصر الساخطة، المتيقظة لتنشئ سياسة جديدة، وليس من الضرورى أن ننتظر الحلول الجاهزة من «موسكو» كما يحاول أحياناً بعض المخدوعين فى «موسكو»، إن حلولنا يجب أن تنبت من بيئتنا وظروفنا.. يجب أن ندرس أولاً واقعنا ثم نجد الحلول المحلية التى تناسبنا.

وأنا أؤكد لك ما أنا واثق به إلى حد العقيدة.. إننا نملك حلولاً أهدأ وأقوم من الحلول الواردة من لندن أو واشنطن على السواء.. إننا نملك «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» وهى كفيلة بأن تنشئ لنا مجتمعاً آخر غير هذا الذى نعيش فيه، مجتمعاً إسلامياً متحضراً يؤمن بالسماء، ويؤمن بالأرض لا كما يحسب الجاهلون أن الدين تزهد وتقشف وتخل عن شئون الأرض للمفسدين.

ساندييجو ـ كاليفورنيا

سيد قطب

■■

أخى الأستاذ جبر [٩] :

أبطأت فى الرد عليك. إنها زحمة العمل، وسوء طريقة الدراسة، فليس أبعد عن الإفادة من الجهد فى تعلم اللغة الإنجليزية من الطريقة الأمريكية! ولكنك كمدرس تملك بجهدك الخاص أن تتلافى عيوب الطريقة. وقد انقلبت وظيفتى فى «المركز الدولى لتعليم اللغات» من مجرد طالب يتعلم اللغة إلى مدرس يعلمهم كيف يدرسون اللغة! وقد أفلحت طريقتى ونجحت شيئاً ما فى تعديل طريقتهم فى كثير من الأحيان!

إن أمريكا هى أكبر أكذوبة عرفها العالم!

نستطيع أن نفيد من أمريكا فى البعثات العلمية البحتة: الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة.. وما إليها. فأما حين نحاول أن نستفيد من أمريكا فى الدراسات

(٩) المقصود الأستاذ محمد جبر دفعته فى «دار العلوم» والرسالة نشرها د. الطاهر مكى – مرجع سبقت الإشارة إليه.

النظرية ، ومنها طرق التدريس فأحسب أننا نخطئ أشد الخطأ، وننساق وراء الطريقة الأمريكية فى الإعلان، ومع هذا فلا أحب أن أتعجل فقد تكون هناك أشياء لم أعلمها بعد. وإن كان المفروض أن طريقة هذا المركز الدولى هى أنجح الطرق الأمريكية!

لقد تقدمت فعلاً فى اللغة الإنجليزية تقدماً ملحوظاً، ولكن ذلك بجهدى الخاص، وبتعديل الطريقة الأمريكية وتلقيحها. وأحسبنى لو كنت أبذل عشر هذا الجهد فى مصر لبلغت ما بلغت إليه فعلاً باستثناء المرانة على الحديث فهى أحسن بطبيعة الحال.

أما أولئك؛ الذين يتحدثون عن أمريكا كما يتحدثون عن الأعاجيب السبع (فهم) يحاولون أن يستمدوا قيمة جديدة لأنفسهم من وراء هذا التهويل!

أتعرف أولئك البحارة القدامى الذين كانوا يجوبون البحار، ثم يتحدثون عن أهوال البحر وعن المردة والعمالقة والعجائب المثيرة.. إنهم كانوا يصنعون ما يصنعه المتأمركون اليوم. ولا أدرى ماذا فى أوروبا ولكن قياساً على ما كنا نسمعه عن أمريكا وعما رأيته فعلاً أستطيع أن آخذ صورة عن المبالغة والتهويل.

تجد الإجابة على أسئلتك على جناحى الخطاب.

١٢/٢/١٩٤٩.

سيد قطب

١ - لا أملك أن أكتب لك بالتفصيل عن الحياة الأمريكية فهذا يتطلب وقتاً وجهداً لست أملكهما اليوم وسيكون هذا موضوع كتيب فى سلسلة «اقرأ» ولكن أحسبنى ألخصها لك حين أقول: إنها حياة عمادها اللذة والنجاح العملى. وأنه لا حساب فيها لأى خلق من الأخلاق التى تعتز بها الإنسانية، وأن كل القيم الخلقية هى موضع السخرية عند الأمريكان!!

٢ - مستوى المعيشة هنا مرتفع وغال ولكنه ليس بالصورة المهولة التى يتحدثون

بها فى مصر. فالطالب العادى يستطيع أن يعيش فى حدود ١٨٠ دولاراً عيشة راضية، أما أنا شخصياً فأضطر إلى إنفاق ما يقرب من ٢٥٠ - ٢٨٠ وذلك بسبب اضطرارى إلى حياة مريحة كل الراحة وإلى قيمة غذائية مرتفعة كذلك وإلى شىء من المظهر فى بعض الأوساط لرجل زائر لا طالب.

٣ - نفقات السفر إلى هنا فى الدرجة الثانية حوالى ٦٠ - ٦٦ جنيهاً، أما أنا فقد سافرت فى الدرجة الأولى حسب درجتى فى الكادر!

٤ - أحسبنى الآن فى مستوى السنة الثانية الثانوية، أما فى الحديث فقد أكون فى مستوى «الثقافة» (١٠)

٥ - وجودى فى واشنطن بالذات سهل لى كثيراً من الصعاب لأنى بجوار المكتب وكلهم أصدقائى.

اكتب إلىّ بالتفصيل عن أحوالكم وأخباركم وموقفكم فى الوزارة فإنه يهمنى أن أكون على تمام الصلة بالإخوان وبحركتهم أولاً بأول مدة وجودى هنا. ولا يهمك أن تتأخر رسائلى فى بعض الأحيان.

سيد قطب

■■

حصلت بصعوبة على نسخة مما كتبه سيد قطب بعد عودته، عن أمريكا.. إن ما كتبه بخط يده كان بمثابة ما انتهى إليه من رأى فى بلاد العم سام .. (١١) !!

١ - أمريكا.. الدنيا الجديدة، ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يشغل من أذهان الناس وتصوراتهم أكثر مما تشغل من الأرض رقعته الفسيحة، وترف عليه أخيلتهم وأحلامهم بالأوهام والأعاجيب، وتهوى إليه الأفئدة من كل فج، شتى الأجناس والألوان، شتى المسالك والغايات، شتى المذاهب والأهواء.

---

(١٠) يتحدث عن مستواه فى اللغة الإنجليزية.

(١١) نشرت نص ما كتبه سيد قطب بعد أن حذفت بعض الفقرات، التى أرى فيها نوعاً من الاسترسال، وذلك من باب التركيز، وعدم التكرار، وخاصة أن ما كتبه كان مشروع كتيب ولم ينفذ حتى الآن.

أمريكا.. تلك المساحات الشاسعة من الأرض بين الأطلنطى والباسيفيكى. تلك الموارد التى لا تنضب من المواد والخامات، ومن القوى والرجال. ذلك النتاج الهائل الذى يعيا به العد والإحصاء، تلك المعاهد والمعامل والمتاحف المبثوثة فى كل مكان، عبقرية الإدارة، والتنظيم التى تثير العجب والإعجاب. ذلك الرخاء السابغ كأحلام الجنة الموعودة. ذلك الجمال الساحر فى الطبيعة والوجوه والأجسام.. تلك اللذائذ الحرة المطلقة من كل قيد أو عرف. تلك الأحلام المجسمة فى حيز من الزمان والمكان.

أمريكا هذه كلها.. ما الذى تساويه فى ميزان القيم الإنسانية وما الذى أضافته إلى رصيد البشرية من القيم، أو يبدو أنها ستضيفه إليه فى نهاية المطاف؟

أخشى ألا يكون هناك تناسب بين عظمة الحضارة المادية فى أمريكا، وعظمة «الإنسان» الذى ينشئ هذه الحضارة، وأخشى أن تمضى عجلة الحياة، ويطوى سجل الزمن، وأمريكا لم تضف شيئاً - أولم تضف إلا اليسير الزهيد - إلى رصيد الإنسانية من تلك القيم، التى تميز بين الإنسان والشىء ، ثم بين الإنسان والحيوان.

....

وإنه ليبدو أن العبقرية الأمريكية كلها قد تجمعت وتبلورت فى حقل العمل والإنتاج، بحيث لم تبق فيها بقية تنتج شيئاً فى حقل القيم الإنسانية الأخرى. ولقد بلغت فى ذلك الحقل ما لم تبلغه أمة، وجاءت فيه بالمعجزات التى أحالت الحياة الواقعية إلى مستوى فوق التصور ووراء التصديق لمن لم يشهدها عياناً.

ولكن الإنسان لم يحفظ توازنه أمام الآلة، حتى ليكاد هو ذاته يستحيل آلة؛ ولم يستطع أن يحمل عبء العمل المنهك ثم يمضى قدماً فى طريق الإنسانية؛ عندئذ أطلق للحيوان الكامن العنان؛ ضعفاً عن أن يحمل عبء العمل وعبء الإنسان!

وإن الباحث فى حياة الشعب الأمريكى ليقف فى أول الأمر حائراً أمام ظاهرة عجيبة، قد لا يراها فى شعب من شعوب الأرض جميعاً : شعب يبلغ فى عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء، بينما فى عالم الشعور والسلوك بدائى لم يفارق البشرية الأولى؛ بل أقل من بدائى فى بعض نواحى الشعور والسلوك!

ولكن هذه الحيرة تزول بعد النظرة الفاحصة في ماضى هذا الشعب وحاضره، وفى الأسباب التى جمعت فيه بين قمة الحضارة وسفح البدائية!

فى العالم القديم آمن الإنسان بقوى الطبيعة المجهولة وصاغ حولها الخرافات والأساطير، وآمن بالدين، وغمرت روحه أضواؤه ورؤاه، وآمن بالفن، وتجسمت أشواقه ألواناً وألحاناً وأوزاناً.. ثم آمن بالعلم أخيراً، بعد ما انقسمت نفسه لأنماط الإيمان، وألوان من المشاعر، وأشكال من صور الحياة وتهاويل الخيال، بعد ما تهذبت روحه بالدين وتهذب حسه بالفن، وتهذب سلوكه بالاجتماع، بعد ما صيغت مُثُله ومبادئه من واقعية التاريخ، ومن أشواقه الطليقة.

....

أما فى أمريكا فقد ولد الإنسان على مولد العلم، فآمن به وحده، بل آمن بنوع خاص منه، هو العلم التطبيقى.

....

ويحسن ألا ننسى الحالة النفسية التى وفد بها الأمريكى إلى هذه الأرض فوجاً بعد فوج، وجيلاً بعد جيل، فهى مزيج من السخط على الحياة فى العالم القديم، والرغبة فى التحرر من قيوده وتقاليده، ومن هذه القيود والتقاليد الثقيل الفاسد والضرورى السليم، ومن الرغبة الملحة فى الثراء بأى جهد وبأية وسيلة؛ والحصول على أكبر قسط من المتاع تعويضاً عما يبذله من الجهد فى الثراء.

ويحسن ألا ننسى كذلك الحالة الاجتماعية والفكرية لغالبية هذه الأفواج الأولى التى تألفت منها نواة هذا الشعب الجديد. فهذه الأفواج هى مجموعات من المغامرين، ومجموعات من المجرمين؛ فالمغامرون جاءوا طلاب ثراء ومتاع ومغامرات؛ والمجرمون جئ بهم من بلاد الامبراطورية الانجليزية لتشغيلهم فى البناء والإنتاج.

....

وقد يدهش الإنسان وهو يقرأ قصص الجماعات الأولى التى هاجرت إلى أمريكا فى أيامها الأولى، ويتصور كفاحها الطويل العجيب مع الطبيعة الجامحة.

....

.. لقد يدهش الإنسان كيف لم يترك هذا كله ظلاله على الروح الأمريكية إيماناً بعظمة الطبيعة وما وراء الطبيعة، ليفتح لها منافذ أوسع من المادة وعالم المادة.

ولكن هذه الدهشة تزول حين يتذكر ذلك المزيج من الملابسات، وذلك المزيج من الأفواج، لقد قابلوا الطبيعة بسلاح العلم وقوة العضل، فلم تثر فيهم إلا قوة الذهن الجاف، وقوة الحس العارم، ولم تفتح لهم منافذ الروح والقلب والشعور، كما فتحتها فى روح البشرية الأولى، التى احتفظت بالكثير منها فى عصر العلم، وأضافت به إلى رصيدها من القيم الإنسانية الباقية على الزمان..

وحين تغلق البشرية على نفسها منافذ الإيمان بالدين، والإيمان بالفن، والإيمان بالقيم الروحية جميعاً، لا يبقى هنالك متصرف لنشاطها إلا فى العلم التطبيقى والعمل، وإلا فى لذة الحس والمتاع. وهذا هو الذى انتهت إليه أمريكا بعد أربعمائة عام.

سيد قطب

٥ نوفمبر ١٩٥١

....

٢ - يبدو الأمريكى - على الرغم من العلم المتقدم والعمل المتقن - بدائياً فى نظرته إلى الحياة، ومقوماتها الإنسانية الأخرى بشكل يدعو إلى الدهشة، ولعل لهذا التناقض الواضح أثره فى ظهور الأمريكان بمظهر الشعب غريب الأطوار فى نظر الأجانب، الذين يراقبون حياة الشعب من بعيد.. ويعجزهم التوفيق بين هذه الحضارة الصناعية الفائقة وذلك النظام الدقيق فى إدارة الأعمال، وإدارة الحياة.. وبين هذه البدائية فى الشعور والسلوك، تلك البدائية التى تذكر بعهود الغابات والكهوف!!

يبدو الأمريكى بدائياً فى الإعجاب بالقوة العضلية، والقوى المادية بوجه عام، بقدر ما يستهين بالمثل والمبادئ والأخلاق، فى حياته الفردية، وفى حياته العائلية، وفى حياته الاجتماعية - فيما عدا دائرة العمل بأنواعه، وعلاقات الاقتصاد والمال - ومنظر الجماهير وهى تتتبع مباريات كرة القدم، على الطريقة الأمريكية الخشنة التى ليس لها من اسمها «كرة القدم» أى نصيب، إذ أن «القدم» لا تشترك فى اللعب، إنما يحاول كل لاعب أن يخطف الكرة بين يديه ويجرى بها ليقذف بها إلى الهدف، بينما يحاول لاعبو الفريق الآخر أن يعوقوه بكل وسيلة بما فى ذلك : الضرب فى البطن، وتهشيم الأذرع والسيقان، بكل عنف وكل شراسة (١٢).. منظر الجماهير وهى تتتبع هذه اللعبة. أو تشاهد حفلات الملاكمة والمصارعة الوحشية الدامية.. منظرها فى هياجها الحيوانى، المنبعث من إعجابها بالعنف القاسى، وعدم التفاتها إلى قواعد اللعب وأصوله، بقدر ما هى مأخوذة بالدم السائل والأوصال المهشمة، وصراخها هاتفة كل يشجع فريقه: حطم رأسه. دق عنقه. هشم أضلاعه. اعجنه عجناً. هذا المنظر لا يدع مجالاً للشك فى بدائية الشعور التى تفتن بالقوة العضلية.

وبمثل هذه الروح يتابع الجمهور الأمريكى صراع الجماعات والطوائف، وصراع الأمم والشعوب، ولست أدرى كيف راجت فى العالم - وبخاصة فى الشرق - تلك الخرافة العجيبة خرافة أن الشعب الأمريكى شعب محب للسلام!

....

إن الحيوية المادية عند الأمريكى مقدسة، والضعف - أيا كانت أسبابه - جريمة، جريمة لا يغتفرها شىء . ولا تستحق عطفاً ولا عوناً. وحكاية المبادئ والحقوق خرافة فى ضمير الأمريكى لا يتذوق لها طعماً. كن قويا ولك كل شىء . أو كن ضعيفاً فلا يسعفك مبدأ، ولا يكون لك مكان فى مجال الحياة الفسيح. أما الذى يموت فيرتكب بالطبع جريمة الموت! ويفقد كل حق له فى الاهتمام أو الاحترام أليس هو قد مات؟

(١٢) أدهشنى أن يتابع سيد قطب مباريات الكرة. لكن فاته أن تلك اللعبة لا تسمى فى أمريكا كرة القدم «فوت بول» إنما تسمى «بيسبول» وهى لعبة أمريكية خاصة لها شهرة كرة القدم فى بلاد العالم الأخرى .

كنت في مستشفى «چورچ واشنطن» فى واشنطن العاصمة، وكان الوقت مساء حينما غمرت جوه موجة من الاضطراب، غير معهودة، وبدت فيه حركة غير عادية تستلفت النظر. وأخذ المرضى القادرون على الحركة يغادرون أسرتهم، وحجراتهم إلى المماشي والأبهاء يستطلعون؛ ثم جعلوا يتحلقون متسائلين عن سر تلك الظاهرة فى حياة المستشفى الهادئة. وعرفنا بعد فترة أن أحد موظفى المستشفى قد أصيب فى حادث مصعد، وأنه فى حالة خطيرة بل فى دور الاحتضار. وذهب أحد المرضى الأمريكان ليرى بنفسه، ثم عاد يقص على المتحلقين فى الممشى ما رأى.. وحين يخيم شبح الموت على مكان، لا تكون له رهبة، ولا يكون للموت خشوعه، كما يكون فى مستشفى.. ولكن هذا الأمريكانى أخذ يضحك ويقهقه، وهو يمثل هيئة المصاب المحتضر، وقد دق المصعد عنقه، وهشم رأسه، وتدلى لسانه من فمه على جانب وجهه! وانتظرت أن أسمع أو أرى علائم الامتعاض والاستنكار من المستمعين، ولكن كثرتهم الغالبة جعلت تضحك متفكهة، بهذا التمثيل البغيض!

....

وما يقال عن الشعور بالموت يقال عن الشعور بالدين.

ليس أكثر من الأمريكان تشييداً للكنائس، حتى لقد أحصيت فى بلدة واحدة لا يزيد سكانها على عشرة آلاف أكثر من عشرين كنيسة! وليس أكثر منهم ذهاباً إلى الكنائس فى ليلات الأحد وأيامه، وفى الأعياد العامة، وأعياد القديسين المحليين، وهم أكثر من «الأولياء» عند عوام المسلمين!.. وبعد ذلك كله ليس هناك من هو أبعد من الأمريكى عن الشعور بروحية الدين واحترامه وقداسته، وليس أبعد من الدين عن تفكير الأمريكى وشعوره وسلوكه!

وإذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة فى العالم المسيحى كله، فإنها فى أمريكا مكان لكل شيء إلا العبادة، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسلية أو ما يسمونه بلغتهم الـ « FUN » ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليدا اجتماعياً ضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس، ولتمضية وقت طيب، وليس هذا

شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعاتها..

....

وهذه مثلا محتويات إعلان عن حفلة كنيسة كان ملصقا فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات : «يوم الأحد أول أكتوبر» فى الساعة السادسة مساء - عشاء خفيف. ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات تسلية...»!

....

كنت ليلة فى إحدى الكنائس ببلدة جربلى بولاية كولورادو - فقد كنت عضواً فى ناديها كما كنت عضواً فى عدة نواد كنسية فى كل جهة عشت فيها، إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحى المجتمع تستحق الدراسة عن كثب ومن الداخل - وبعد أن انتهت الخدمة الدينية فى الكنيسة، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة، دلفنا من باب جانبى إلى ساحة الرقص، الملاصقة لقاعة الصلاة، يصل بينهما الباب ، وصعد «الأب» إلى مكتبه، وأخذ كل فتى بيد فتاة، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى، كانوا وكن، يقومون بالترتيل ويقمن!

وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء، والصفراء، والزرقاء، وبقليل من المصابيح البيض.. وحمى الرقص على أنغام «الجراموفون» وسالت الساحة بالأقدام والسيقان الفاتنة، والتفت الأذرع بالخصور، والتقت الشفاه والصدور.. وكان الجو كله غراماً حينما هبط «الأب» من مكتبه، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان.

....

واختار.. اختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها:

« But baby it is cold outside » - (ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج) وهى تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما وقد احتجزها الفتى فى داره، وهى تدعوه أن يطلق سراحها لتعود إلى دارها فقد أمسى الوقت، وأمها

تنتظر.. وكلما تذرعت إليه بحجة أجابها بتلك اللازمة: «ولكنها يا صغيرتى باردة فى الخارج».

وانتظر الأب حتى رأى خطوات بناته وبنيه، على موسيقى تلك الأغنية المثيرة، وبدا راضياً مغتبطاً، وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركاً لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة.. البريئة!

....

والأمريكى بدائى فى حياته الجنسية، وفى علاقات الزواج والأسرة....

....

إن كل ما تعبت الحياة البشرية الطويلة فى خلقه وصيانته من آداب الجنس، وكل ما صاغته حول هذه العلاقات من عواطف ومشاعر، وكل ما جاهدت من غلاظة الحس، وجهامة الغريزة لتطلقه إشعاعات مرفرفة، وهالات مجنحة، وأشواقاً طليقة، وكل الروابط الوثيقة حول تلك العلاقات فى شعور الفرد، وفى حياة الأسرة، وفى محيط الجماعة.

إن هذا كله، قد تجردت منه الحياة فى أمريكا مرة واحدة وتجلت عارية عاطلة من كل تجمل. «ذكراً وأنثى» كما خلقهم أول مرة. جسداً لجسد، وأنثى لذكر. على أساس مطالب الجسد ودوافعه، تقوم العلاقات وتتحدد الصلات، ومنها تستمد قواعد السلوك، وآداب المجتمع، وروابط الأسرة والأفراد.

بفتنة الجسد وحدها، عارية من كل ستار، مجردة من كل حياء، تلقى الفتاة الفتى ، ومن قوة الجسد وضلاعته يستمد الفتى إعجاب الفتاة. ويستمد الزوج حقوقه - هذه الحقوق التى تسقط جميعها فى عرف الجميع، يوم يعجز الرجل عن الوفاء بها لسبب من الأسباب.

والفتاة الأمريكية، تعرف جيداً موضع فتنتها الجسدية، تعرفها فى الوجه: فى العين الهاتفة والشفة الظامئة، وتعرفها فى الجسم: فى الصدر الناهد، والردف المليء، وفى

الفخذ اللفاء والساق الملساء – وهى تبدى هذا كله ولا تخفيه – وتعرفها فى اللباس: فى اللون الزاهى توقظ به الحس البدائى، وفى التفصيل الكاشف عن مفاتن الجسد – وهو بذاته فى الأمريكية فتنة حية صاعقة فى بعض الأحيان – ثم تضيف إلى كل هذا الضحكة المثيرة، والنظرة الجاهرة، والحركة الجريئة، ولا تغفل عن ذلك لحظة، أو تنساه!

والفتى الأمريكى يعرف جيداً أن الصدر العريض، والعضل المفتول، هما الشفاعة التى لا ترد عند كل فتاة، وأن أحلامها لا ترف على أحد كما ترف على «رعاة البقر» Cow boys

....

وبعضهم يسمى هذا تحرراً من الرياء ومواجهة للحقائق، ولكن هنالك فارقاً أساسياً بين التحرر من الرياء، والتحرر من المقومات الإنسانية التى تفرق بين الإنسان والحيوان، والإنسانية فى تاريخها الطويل لم تكن تجهل أن الميول الجنسية ميول طبيعية وحقيقية، ولكنها – عن وعى أو غير وعى – كانت تجاهد لتتحكم فيها، فرارا من العبودية لها، وبعدا عن مدارجها الأولى إنها ضرورة نعم ! ولكن لماذا تخجل الإنسانية من إبداء ضروراتها؟ لأنها تحس بالفطرة أن التحكم فى هذه الضرورات هو شهادة الخلاص من الرق، وأولى مدارج الإنسانية فى الطريق وأن العودة إلى حرية الغابة عبودية مقنعة، ونكسة إلى مدارج البدائية الأولى.

سيد قطب

١٩ نوفمبر ١٩٥١

٣ – الأمريكى بدائى فى ذوقه الفنى، سواء فى ذلك تذوقه للفن أو أعماله الفنية.

موسيقى «الجاز» هى موسيقاه المختارة. وهى تلك الموسيقى التى ابتدعها الزنوج لإرضاء ميولهم البدائية، ورغبتهم فى الضجيج (١٣) من ناحية، ولاستثارة النوازع

---

(١٣) لم يهتم سيد قطب على ما يبدو بتاريخ ولا مشكلة الزنوج التى كانت صارخة فى ذلك الوقت، لكن هذا لا يبرر تكراره لاتهامهم بالبدائية.. وخاصة أنه من الذين قرأوا كثيراً فى مشاكل الحضارات!

الحيوية من ناحية أخرى. ولا تتم نشوة الأمريكى تمامها بموسيقى «الجاز» حتى يصاحبها غناء مثلها صارخ غليظ. وكلما علا ضجيج الآلات والأصوات. وطن فى الآذان إلى درجة لاتطاق.. زاد هياج الجمهور، وعلت أصوات الاستحسان، وارتفعت الأكف بالتصفيق الحاد المتواصل الذى يكاد يصم الآذان:

ولكن الجمهور الأمريكى مع هذا يقبل على الأوبرا، ويصغى إلى السيمفونيات، ويتزاحم على «الباليه» ويشاهد التمثيلية (١٤) «الكلاسيك» حتى لا تكاد تجد مقعدا خالياً، ويقع فى بعض الأحيان ألا تجد مكاناً إذا أنت لم تحجز مقعدك قبلها بأيام، على غلاء الأسعار فى هذه الحفلات.

ولقد خدعتنى هذه الظاهرة فى أول الأمر، بل لقد فرحت بها فى داخل نفسى، فقد كنت دائم الشعور «باستخسار» هذا الشعب الذى يصنع المعجزات فى عالم الصناعة والعلم والبحث ألا يكون له رصيد من القيم الإنسانية الأخرى، وأنا شديد الإشفاق على الإنسانية أن تؤول قيادتها إلى هذا الشعب، وهو فقير من تلك القيم جميعاً.

....

إن الشقة ما تزال بعيدة بين روح هذا الفن الإنسانى وروح الأمريكان. إن مشاعرهم عنها محجبة إلا فى النادر، وإنهم إنما ينظرون إلى المسألة من زاوية اجتماعية بحتة. فالمثقف الأمريكى لابد أن يكون شهد هذه الألوان وذهب إلى تلك الأماكن، حتى إذا دار الحديث عنها فى مجتمع، شارك فى الحديث. فالعيب الأكبر فى أمريكا ألا يشارك الإنسان فى الحديث، وبخاصة بالنسبة للفتيات، إذ المطلوب منهن أن يجدن دائماً موضوعات للحديث، فإذا ارتدن هذه الأماكن فإنهن يضفن موضوعات جديدة إلى الموضوعات الأمريكية الخالدة وهى : مسابقات الكرة وأسماء الأفلام والممثلين والممثلات وحوادث الطلاق والزواج وماركات وأسعار السيارات.

---

(١٤) يقصد المسرحية.

....

الفن الوحيد الذى يتقنه الأمريكان - وإن يكن سواهم لا يزال يفوقهم فى الناحية الفنية فيه - هو فن السينما. وهذا طبيعى ومنطقى مع تلك الظاهرة التى ينفرد بها الأمريكى: ذروة الإتقان الصناعى، وبدائية الشعور الفنى وفى السينما تبدو هذه الظاهرة واضحة إلى حد كبير.

....

والسينما فن الجماهير الشعبى، فهو فن المهارة والإتقان والتجسيم والتقريب، وهو بطبيعته يعتمد على المهارة أكثر من اعتماده على الروح الفنية.. ويمكن أن تبدع فيه العبقرية الأمريكية.. ومع هذا فما يزال الفيلم الإنجليزى والفرنسى والروسى والإيطالى أرقى من الفيلم الأمريكى وإن كان أقل صناعة ومهارة.

....

هنالك فن آخر برع فيه الأمريكان، لأن ما فيه من مهارة فى الصناعة والإنتاج، أكثرمما فيه من الفن العالى الأصيل.. ذلك هو فن تمثيل المناظر الطبيعية بالألوان، كأنها فوتوغرافية صادقة دقيقة ويبدو هذا فى متاحف الأحياء المائية والبرية إذ تعرض هذه الأحياء أو أجسادها المحنطة فى مثل مواطنها الطبيعية كأنها حقيقة، وتبرع ريشة الرسام فى تصوير هذا الموطن، مشتركة مع التصميم الفنى للمنظر، وتبلغ حد الإبداع.

....

ثم ندع تلك الآفاق العليا فى الفن والشعور، لنهبط إلى ألوان الملابس وإلى مذاق الأطعمة. إن بدائية الذوق لا تتجلى فى شىء كما تتجلى فى تلك الألوان الصارخة الزاهية، وفى تلك التقاسيم المبرقشة الكبيرة، وبخاصة ملابس الرجال.. ذلك السبع أو النمر الواثب على صدر الصدرية.. وذلك الفيل أو الثور الوحشى الجاثم على ظهرها. تلك الفتاة العارية الممددة على رباط العنق من أعلى إلى أسفل، أو تلك

النخلة الصاعدة فيه من أسفل إلى أعلى....

....

أما الطعوم فشأنها هو الآخر عجيب.

إنك تلفت النظر، وتثير الدهشة، حين تطلب قطعة أخرى من السكر لكوب الشاى أو القهوة تشربه فى أمريكا. ذلك أن السكر محتفظ به للمخلل «والسلاطة» كما أن الملح ياسيدى محتفظ به للتفاح والبطيخ!

وفى صحفة طعامك، تجتمع قطعة اللحم المملحة، إلى كمية من الذرة المسلوقة، وكمية من البازلاء المسكرة، وبعض المربى الحلوة.. وفوق ذلك كله الـ Gropy المؤلف أحياناً من السمن والخل والدقيق ومرقة العجل والتفاح، الملح والفلفل والسكر.. والماء!

كنا على المائدة فى مطعم ملحق بالجامعة حينما رأيت بعض الأمريكان يضعون الملح على البطيخ، وكنت قد اعتدت رؤية هذه «التقاليع» واعتدت كذلك أن أتفكه عليهم فى بعض الأحيان، وقلت متجاهلاً : أراكم ترشون الملح على البطيخ؟ قال أحدهم : أجل! ألا تصنعون ذلك فى مصر؟ قلت: كلا ! إنما نرش الفلفل! قالت واحدة فى دهشة واستفسار: أو يكون مستساغاً قلت : يمكنك أن تجربى ! جربت، وذاقت. وقالت فى استحسان: كم هو لذيذ! وكذلك فعل الآخرون.

وفى يوم آخر جاء فيه البطيخ، ومعظم من يأكلون على المائدة هم هم، قلت : وبعضنا فى مصر يستخدم السكر أحياناً لا الفلفل. وبدأ أحدهم ففعل، وقال : كم هو لذيذ! وكذلك الآخرون! .

وباختصار فكل ما يحتاج إلى قسط من الذوق فالأمريكى ليس له فيه حتى الحلاقة! وما من مرة حلقت شعرى هناك إلا وعدت إلى البيت لأسوى بيدى ما شعث الحلاق، وأصلح ما أفسده بذوقه الغليظ!

....

إن لأمريكا دورها الرئيسى فى هذا العالم، فى مجال العلم التطبيقى، وفى مجال

البحوث العلمية، وفى مجال التنظيم والتحسين، والإنتاج والإدارة.. كل ما يحتاج إلى ذهن وعضل، فهنا تبرز العبقرية الأمريكية. وكل ما يحتاج إلى روح وشعور فهنا تبدو البدائية الساذجة.

وإن البشرية لتملك أن تنتفع بالعبقرية الأمريكية فى مجالها، فتضيف قوة ضخمة إلى قواها، ولكن هذه البشرية تخطئ أشنع خطأ، وتعرض رصيدها من القيم الإنسانية للضياع، إذا هى جعلت المثل الأمريكى مثلها فى الشعور والسلوك.

إن ذلك لا يعنى أن الأمريكان شعب بلا فضائل، وإلا لما أمكنه أن يعيش، ولكنه يعنى أن فضائله هى فضائل الإنتاج والنظام، لا فضائل القيادة الإنسانية والاجتماعية؛ فضل الذهن واليد، لا فضائل الذوق والشعور.

سيد قطب

٣ ديسمبر ١٩٥١

أثناء وجوده فى أمريكا، اغتيل المرشد العام للإخوان (فبراير ١٩٤٩) الإمام حسن البنا.. لم يكن سيد قطب وقتها يعرف الكثير عن الإخوان المسلمين، إلا أنه لفت نظره بشدة «ما أبدته الصحف الأمريكية، وكذلك الإنجليزية التى كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتة وراحة واضحة فى حل جماعتهم وضربها، وفى قتل مرشدها» كما قال سيد قطب فيما بعد.. وقد أضاف: أنه قرأ الكثير «عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب فى المنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها، وصدرت كتب بهذا المعنى سنة ١٩٥٠، أذكر منها كتاباً لچيمس هيوارث دن، بعنوان : «التيارات السياسية والدينية فى مصر الحديثة».. كل هذا لفت نظرى إلى أهمية هذه الجماعة عند الصهيونية، والاستعمار الغربى».. وكان أن عاد إلى مصر، ليجد شباب الإخوان قد جاء يناقشه فى كتاب «العدالة الاجتماعية فى الإسلام».. بعد أن اعتبره صديقاً، وبعد أن تصور أن إهداء الكتاب كان له.. وكان أن بدأت علاقته بالجماعة وإن لم ينضم إليها ..(١٥).

(١٥) سيد قطب – «لماذا أعدمونى؟ » – كتاب «الشرق الأوسط» – ص ١١.

عاد سيد قطب إلى مصر فى صيف ١٩٥١.. كان عمره وقتها ٤٥ سنة.. ويبدو أن اتصالاته المتعددة والقوية بجماعة الإخوان، جعلت البعض يعتقد أنه انضم إليها بعد فترة وجيزة من عودته.. وينقل «جيلس كيبل» فى كتابه «النبى والفرعون - التطرف الإسلامى فى مصر» عن شهود أحياء من الإخوان(١٦) أن صالح عشماوى (صاحب مجلة الدعوة ومؤسسها) هو الذى أقنعه بالانضمام إلى الجماعة.. وأن ذلك كان بالنسبة له أحد تحولاته الكبرى.. لأنه قبل أخيراً الدخول فى تنظيم، بعد أن استمر أكثر من ربع قرن يرفض قيود التنظيمات والأحزاب.. وأنه قال بعد انضمامه إلى الإخوان:

«لقد ولدت من جديد عام ١٩٥١»

وفى رواية أخرى:

«أنا ولدت الآن فقط عام ١٩٥١».

لكن...

سيد قطب ينفى مثل هذه الروايات فى مذكرة اعترافه التى كتبها بعد أحداث ١٩٦٥.. والتى قال فيها: (١٧)

«استغرقت أنا عام ١٩٥١ فى صراع شديد بالقلم والخطابة والاجتماعات ضد الأوضاع الملكية القائمة: الإقطاع والرأسمالية (١٨) وأصدرت كتابين فى الموضوع غير مئات المقالات فى صحف الحزب الوطنى الجديد والحزب الاشتراكى ومجلة الدعوة التى أصدرها الأستاذ صالح عشماوى ومجلة الرسالة وكل جريدة أو مجلة قبلت أن تنشر لى، بلا انضمام لحزب أو جماعة معينة وظل الحال كذلك إلى أن قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢».

وحسب ما أضاف، انضم سيد قطب إلى جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٣.

وسواء كان ارتباطه بالإخوان معنويا سنة ١٩٥١، أو تنظيميا سنة ١٩٥٣، فإن هذا الارتباط كان مرحلة جديدة فى حياته.

---

(١٦) جيلس كيبل - مترجم من الفرنسية إلى الإنجليزية - الناشر دار الساقى - لندن.

(١٧) سيد قطب - " لماذا أعدمونى؟ " - ص ١٢.

(١٨) سنعرض لذلك بالتفصيل الفصل القادم.

٥

ظلام فى نهاية النفق !

- صورة تذكارية مع جمال عبدالناصر
- هجوم على علماء الأزهر
- مكتب فى مبنى قيادة الثورة
- نشيد وطنى فى كتاب مطالعة
- الديكتاتور العادل
- منشورات ضد الثورة
- صحيفة تحت الأرض
- جسر مع الشيوعيين
- انحياز للمرشد العام للإخوان
- رأى فى الدفاع المشترك
- أحاسيس الأديب وحكمة السياسى
- شهادته وشهادة عبدالناصر فى حادث المنشية

قبل أن تقوم الثورة بشهور تعرف سيد قطب على جمال عبدالناصر..

وتعرف أيضاً على عدد من الضباط الأحرار!

وليس من الصعب تخيل ذلك، فقد كان جمال عبدالناصر على علاقة قوية بجماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة بحوالى ١٢ سنة، كما كان عضوا فى إحدى خلاياها فى مطلع عام ١٩٤٤.

ولا بد أن جمال عبدالناصر - الذى كان فى مرحلة يبلور فيها أفكاره وآراءه - قد شُدَّ إلى سيد قطب.. إلى ذلك الرجل النحيل، خفيض الصوت، شارد العينين، الممتلئ ثقافة، ولباقة، وحماسا لا نتصور أن يفتر إلا بالموت.. فكانت حوارات الحديقة فى بيته فى حلوان.. وكانت مشاعر الود، وكانت لحظات التفاؤل والمرح التى كانت تنتهى - أحياناً - بضوء «فلاش» يلمع وسط الظلام ثم يتلاشى بعد أن يكون قد أقنع عدسة «كاميرا» صغيرة بالتقاط صورة «تذكارية».. ثم صورة أخرى.. فصورة ثالثة، تظهر فيها شخصيات قدر لها أن تغير التاريخ فيما بعد.. وعلى وجوه تلك الشخصيات كانت ابتسامة حلوة!

فى هذه الصور كان سيد قطب وبعض الضباط الأحرار..بينهم جمال عبد الناصر، وقد شاء القدر - قبل مرور أقل من ثلاث سنوات على التقاطها - أن يتحول أبطال الصور - من رفاق إلى خصوم.. شاء القدر أن ينقسموا إلى فريقين.. فريق خارج القفص، وفوق منصة القضاء وفريق آخر داخل القفص محاصر بأخطر الاتهامات.. كان عبدالناصر على رأس الفريق الأول.. وكان سيد قطب فى قلب الفريق الآخر.. شاء القدر أن تلتقط صور «تذكارية» أخرى.. يختفى فيها الود، والتفاؤل، والمرح.. ويسيطر عليها الغيظ، والموت والاعتقال.. وبين النقطتين، كان على سيد قطب أن يرى، ويعيش، وينفعل، ويتغير، ويضيف لخبرته الإنسانية الكثير.

بعد الثورة.. فى حديقة بيته، قال للكاتب سليمان فياض:

«هنا، تحت هذه الشجرة، كان الضباط الأحرار يعقدون اجتماعاتهم معى، فى فترة التمهيد للثورة».

ثم.. وهو يقلب مجموعة الصور القديمة، أشار إلى جمال عبدالناصر وقال:

- هذا هو قائد الثورة الحقيقى، يتوارى الآن، وراء نجيب، وغدا سيكون له شأن آخر! وقد كان!

■■

فى تلك الأيام، كانت مصر «حبلى» بالثورة.. وعلى وشك أن تضع حملها.. وكان النظام «الملكى» لا يملك مبررا واحدا للصمود والبقاء والاستمرار.. وكان الإخوان المسلمون يراهنون على تنظيم «الضباط الأحرار» ، بعد أن استقر فى يقينهم أنه لا خلاص بدون الجيش.. ومن ناحيته راح سيد قطب - الذى علينا أن نلاحظ تحوله الآن من الأدب إلى السياسة - يسدد ضربات موجعة - على صفحات الجرائد والمجلات - لما تبقى من النظام.. إنه الآن يعلن يأسه من الليبرالية والديمقراطية والأحزاب وعدالة «الباشوات» و«الكروش» الاجتماعية. وتقاعس المشايخ ورجال الدين عن أداء دورهم الحقيقى، وتحالفهم - أحياناً - مع السلطة.. حتى أنه بصريح العبارة قال : «إن هذا الوضع الاجتماعى السيىء الذى تعانيه الجماهير فى مصر.. غير قابل للبقاء والاستمرار».. و«لا يحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء».. «إن صوتا سيرتفع بعد ذلك كله، ولن يمكن إسكاته أبداً.. صوت المعدات الخاوية، التى تملأ جنبات هذا الوادى. صوت الملايين التى تبذل العرق والدماء، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة، ولا خرقة الكساء متواضعة»(١).

ويستفزه بيان صادر من «هيئة كبار العلماء».. إن البيان يأخذ صورة «عريضة» مرفوعة إلى رئيس الحكومة، تتحدث عن فزع كبار العلماء من الفجور والمجون واستهانة الناس بأوامر الدين ونواهيه ، وجنوحهم إلى ما يخالف تقاليد الإسلام.. «من حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها الرجال والنساء».. «إلى أندية يباح فيها القمار».. «إلى ملاعب للسباق والمراهنات».. «إلى مسابقات للجمال».. «هى معارض للفسق والإثم».. «إلى شواطئ فى الصيف يخلع فيها العذار، ويطغى فيها الأشرار».. ولم يقترب «البيان - العريضة» من الظلم الاجتماعى الصارخ.. ولا من

---

(١) سيد قطب - مقال «صيحة نذير» - كتاب «معركة الإسلام والرأسمالية - ص ٥».

الفقر المدقع.. ولا من فساد الحكم.. وهذا بالتحديد ما استفز سيد قطب، الذى علق قائلاً: «وى! وى! أو هذا هكذا أيها العلماء الأجلاء؟ يا سبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله! حقا إن الأمر جلل يوجب النقمة ويستوجب اللعنة.. ولكن! وقد قدر لشفاهكم الشريفة أن تنفرج عن كلام فى المجتمع، أفما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية، وعن رأى الإسلام فى الحكم، ورأيه فى المال، ورأيه فى الفوارق الاجتماعية التى لا تطاق».. «وما الذى كنتم تنتظرونه أيها السادة الأجلاء من أوضاعنا الاجتماعية التى تجد منكم السند والنصير، والتى يصيبكم البكم فلا تشيرون إليها عارضة من قريب أو من بعيد، لأن السكوت عليها من ذهب: ذهب إبريز»(٢).

إن سيد قطب الذى كان - حتى ذلك الوقت - يؤمن أن الأخلاق صورة للنشاط الاقتصادى والاجتماعى، لا يتردد فى أن يقسو فى نقده على رجال الدين.. الذين يحافظون على الأوضاع الاجتماعية.. ثم يكتفون - من باب أداء الواجب بمطالبة الناس بالاحتشام.. إن رجل الدين فى رأيه لا يمكن أن يكتفى بالمواعظ. وإنما عليه - قبل أى شىء - أن يلعب دورا اجتماعيا فى اتجاه التنوير.. والتغيير.

إلى هذا الحد كان ينظر إلى الأمور!

لذلك .. نجده يقترب من كل المشاكل التى كان يعانى منها الناس، مثل مشكلة «عمال التراحيل».. وحرمان خدم المنازل وموظفى الحكومة من «حق تكوين النقابات».. والفقر المدقع «الذى دفع أعدادا متزايدة من الناس إلى التسول، والبحث عن الفتات فى صناديق القمامة».. و«الخرافة التى تتحدث عن «الأمة مصدر السلطات» وعن حق الانتخاب وحق الاختيار «فى مجتمع، الملايين فيه جائعة هزيلة، جاهلة، مستغفلة، مشغولة نهارها وليلها بالبحث عن اللقمة».

واقترب من قضايا الذخيرة الفاسدة فى الجيش.. وتهريب التموين إلى إسرائيل.. والاختلاسات فى الأموال العامة.. وخرافة تكافؤ الفرص والمساواة أمام القانون فى مثل هذه الظروف.. «أما حرية القول وحرية الفكر فيسأل عنها القلم السياسى،

---

(٢) سيد قطب - مقال «إنى أتهم» - المرجع السابق - ص ١٦.

وتسأل عنها المعتقلات والسجون، وتسأل عنها حوادث التعذيب فى كل قضية سياسية فى تاريخ مصر الحديث»(٣).

ولم ينس - وسط كل هذا - أن يحذر من أن يكون البديل هو الشيوعية.. عملا - على حد قوله - بالمثل العامى الذى يقول «ضربوا الأعور على عينه قال : خسرانة خسرانة».. ذلك أنه كان يدعو - على ما يبدو - لإزالة الفوارق الاجتماعية السحيقة، ليس لرفع الظلم الاجتماعى عن الفقراء فقط، وإنما لإغلاق الأبواب أمام الشيوعية أيضاً.. فهذه البيئة السوداء هى البيئة المناسبة لنمو وازدهار الشيوعية كما قال.. ولابد أن نذكر بالمناسبة أن هذه الدعوة الإصلاحية بدت مشابهة إلى حد بعيد للأسلوب الذى اقترحته الولايات المتحدة لإنقاذ مصر فى ذلك الوقت (حتى ولو لم يكن هناك تدبير أو اتفاق).. ويمكن تلخيص هذا الأسلوب فى أن الإصلاح الاجتماعى عند حد معين يمنع الشيوعية.. والتغيير إلى درجة معينة يمنع تحول الغليان إلى انفجار.. إلى ثورة دموية! (٤).

يمكننا الآن أن نحدد ما انتهى إلية سيد قطب فى تلك الفترة من حياته وأفكاره وتحولاته .. قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى نقاط محددة.. متصلة.. رغم انفصالها الظاهر.

١ - عداء واضح للشيوعية.. وتحذير لا ينتهى منها.

٢ - إعجاب غير خفى بالعبقرية الأمريكية فى الإدارة والإنتاج، والتكنولوچيا.. مع «استخسار» ذلك كله لبدائية المشاعر والذوق والسلوك عند الأمريكيين .

٣ - رفض الليبرالية والديمقراطية الحزبية والبرلمانية بسبب ظاهر على الأقل، هو ما انتهت إليه الأوضاع الاجتماعية فى مصر.

---

(٣) المرجع السابق - ص ٢١ .

(٤) يعترف حسين محمد أحمد حمودة، وهو من الضباط الأحرار، ومن الإخوان أنه بعد الثورة سافر إلى أمريكا فى زيارة رسمية للقوات الأمريكية، وهناك لفت نظره دراسة فى كلية الحرب هناك عن «الحزام المحمدى» كشف فيها الأمريكان عن أملهم فى عمل حلف إسلامى عسكرى أمريكى لمقاومة الإلحاد والشيوعية - انظر كتابه «أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين» - ص ٩٠.

٤ - الدعوة إلى الإسلام كنظام اجتماعى، اقتصادى بديل، من خلال برنامج إصلاحى يعالج سوء توزيع الملكيات، الثروات.. ومشكلة العمل والأجور.. وعدم تكافؤ الفرص.. وفساد جهاز العمل وضعف الإنتاج.. إلا أنه لم يحدد كيف يكون شكل نظام الحكم ولا طبيعته فى ظل نظريته الإسلامية المتطورة.

يضاف إلى ذلك.

تأييده للعمل الفدائى المضاد للاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس.. ورفضه اخضاع «كتائب الفدائيين التى تريد الحكومة تطويقها - لسيطرتها».. وكان أن طالب الحكومة أن تفكر بعقلية أخرى غير عقليتها.. فهى تفكر «بعقلية السلم فى إبان المعركة، وتشتغل بوسائل الدبلوماسيين ودماء المصريين وأعراضهم تنتهك فى كل مكان».. وفى مقال نشره بجريدة «الدعوة» (٥) أضاف: «وأنا لا أطالب الوزارة أن تعلن الحرب، ولا أن تدفع بالجيش إلى المعركة فى هذه الظروف، ولكن أطلب إليها أن تدع الشعب يؤدى واجبه، وإلا فسيؤدى واجبه سواء رضيت هذه الوزارة أم كرهت.. سيؤدى الشعب واجبه سواء كانت هذه الوزارة معه أم عليه. وعليها هى أن تحتمل تبعة الحرب الأهلية التى تثيرها لو شاءت أن تقف فى طريق الشعب وأن تحول بينه وبين واجبه المقدس فى أحرج الظروف».

■■

قامت الثورة - التى سميت فى بدايتها - بحركة الجيش...

و.. نجحت!

منذ اللحظة الأولى، أيدها الإخوان المسلمون.. اعتبروها ثورتهم.. قامت لحسابهم.. فوصفوها بالحركة «المباركة».. وظهر والد حسن البنا - فى المركز العام - لأول مرة منذ اغتيال ابنه، وشق صفوف المصلين، ثم بعد أن صعد المنبر استدار إليهم قائلا : «أيها الإخوان، اليوم تحققت رسالتكم، إنه فجر جديد بالنسبة لكم.. ويوم

---

(٥) سيد قطب - مقال «أيها الفدائيون امضوا فى طريقكم» جريدة «الدعوة» - ٢٠ نوفمبر ١٩٥١.

جديد للأمة، فاستبقوا الفجر أيها الإخوان».. وبسبب ارتباطهم الشائع بتنظيم الضباط الأحرار، أيقنوا أنهم أصبحوا فى السلطة، ثم راحوا يتصرفون على هذا الأساس.. فكان أن رفضوا عودة البرلمان الوفدى الأخير.. وكان أن رفضوا استمرار الأحزاب.. وكان أن اعتبروا دستور ١٩٢٣ - من الناحية الفقهية - كأن لم يكن!(٦).

لم يخف سيد قطب حماسه للثورة.. وتطورت علاقته برجالها.. وعندما نظم - بعد شهر واحد من قيامها - مؤتمر «حرية الفكر فى الإسلام» كانت تهنئة جمال عبدالناصر، ومحمد نجيب من نصيبه.. والذين عاصروا تفاصيل الأيام الأولى، والسنوات الأولى للثورة يؤكدون أن سيد قطب كان له مكتب فى مبنى «مجلس قيادة الثورة» ، وأنه كان يقيم هناك إقامة شبه دائمة.. حيث أوكلت إليه هو وسعيد العريان - مهمة تغيير مناهج التعليم.. وهى - كما نرى - مهمة تربوية لا سياسية.. كما أن تكليفه بها كان يعكس طبيعة نظرة رجال «يوليو» له.. وهى نظرة كانت مناسبة لخبرته وتخصصه فى مجال التعليم، ثم إنها كانت فرصته لتنفيذ أفكار الإصلاح التى رفضها من قبل وزراء «المعارف» الذين خدم معهم فى العصر الملكى.. وعلى رأسهم كان الدكتور طه حسين.. وفى ذلك الوقت عرف كمال الدين حسين عن قرب.. الذى رشحه ليتولى منصب وزير التربية والتعليم.. المنصب الذى تولاه هو بنفسه.. وفى ذلك الوقت كانت كتاباته ومؤلفاته توزع على المدارس التابعة للوزارة بأمر كمال الدين حسين.. كما أن أناشيده الوطنية كانت تدرس للتلاميذ فى دروس المطالعة.

ويؤكد ذلك، ما جاء فى رسالة عبدالحكيم عامر إلى كمال الدين حسين بعد أحداث ١٩٦٥.. فقد أرسل كمال الدين حسين إلى عبدالحكيم عامر رسالة يتشكك فيها أن يكون ما نسب إلى سيد قطب صحيحاً.. ورفض أن يكون متآمرا.. متطرفا. فكان أن قال لعامر - عبارته الشهيرة التى قالها للسادات بعد ذلك - عبارة «اتق

(٦) انظر بيان «الإخوان المسلمين» عن «الإصلاح المنشود فى العهد الجديد» - أول أغسطس ١٩٥٢.. ويلاحظ بخصوص ارتباط الإخوان بالثورة أن ثلث ضباط الثورة كانوا من الإخوان أو المتعاطفين معهم على الأقل.

الله».. وكان أن رد عليه عامر فى رسالة أخرى قال فيها: «أيريد سيد قطب الذى كنت توزع كتبه أن يصنع من نفسه نبيا ينزل عليه الوحى».. وهذه الفقرة من الرسالة توضح إلى أى مدى كانت الحكومة تهتم بنشر أفكاره ومؤلفاته، وتقررها على المكتبات المدرسية، وحصص القراءة الحرة.

وقد ظلت مؤلفات وأناشيد سيد قطب فى المدارس الحكومية حتى بعد القبض عليه سنة ١٩٥٤، ولم يبدأ التخلص منها إلا بعد ١٠ سنوات.. بعد أحداث ١٩٦٥.. فكان أن جمعت مؤلفاته من المدارس، ونزعت صفحات الأناشيد، وتشكلت لجان خاصة للتنفيذ، وقع أفرادها على محاضر رسمية رفعت لجهات الاختصاص العليا.. كما أن «دار المعارف».. الدار التى كانت تنشر كتبه، تولت من نفسها جمع ما فى مخازنها ومكتباتها من نسخ.. وأحرقتها.. وكان تصرفها شاذا وغريبا بالقياس إلى تصرف جهاز الأمن، الذى صادر الكتب التى كانت فى بيوت المتهمين، وسلمها إلى «دار الكتب».. التى - لم تحرقها - وإن ألقتها فى مخازنها الرطبة، بعد أن حولتها إلى «عهدة» توارثها عدد كبير من صغار الموظفين!

باختصار.. تعاملت الثورة مع سيد قطب كمفكر، وكتربوى، ولم تتعامل معه كسياسى.. وقد بقى فى منصبه بالوزارة حتى ١٨ اكتوبر ١٩٥٢، حيث قدم استقالته، لكن المستشار الفنى للوزارة «اسماعيل القبانى» حاول أن يثنيه عنها.. وبعد عام تقدم «القبانى» بمذكرة إلى مجلس الوزراء ، أكد فيها أن سيد قطب «به بعض النواحى الطيبة التى يمكن الاستفادة منها، وأن له من قوة التفكير وكفايته ما يجعله قادرا على الإنتاج».. وهذا ما جعل «القبانى» يحاول أكثر من مرة أن يثنيه عن الاستقالة وأن يعود إلى عمله.. لكنه رفض.. وظل أكثر من العام «ممتنعا عن العمل».. وفى نفس المذكرة، طلب «القبانى» من مجلس الوزراء «مد خدمته عامين حتى تكمل المدة القانونية لمعاشه» لكن بسبب تأزم العلاقات - فى ذلك الوقت - بينه وبين الحكومة، قبلت الاستقالة فى تاريخها، ودون إضافة يوم واحد إلى مدة خدمته - (راجع - د . مكى - الهلال - مصدر سابق).

أصر سيد قطب - منذ الأيام الأولى للثورة - على ألا يكتفى بعمله التربوى، وأن

ينزل الساحة العامة، كسياسى، كمقاتل.. وكان أن وجد نفسه فى صفوف الثورة بعض الوقت.. ثم فى صفوف خصومها معظم الوقت.. ومن المذهل أن نجده يوجه عبر صفحات جريدة «الأخبار» اليومية (صباح ٨ أغسطس ١٩٥٢) رسالة مفتوحة إلى اللواء محمد نجيب، طالبه فيها بإقامة ما أسماه «ديكتاتورية عادلة»!

بالحرف الواحد .. قال :

«إن الدستور الذى سمح بكل ما وقع من الفساد، ليس فساد الملك وحاشيته فحسب، ولكن فساد الأحزاب ورجال السياسة، وما تحمله صحائفهم من أوزار.. أيضاً.. إن هذا الدستور لا يستطيع حمايتنا من عودة الفساد إن لم تحققوا أنتم التطهير الشامل.. الكامل، الذى يحرم الملوثين من كل نشاط دستورى، ولا يبيح الحرية السياسية إلا للشرفاء..

لقد احتمل هذا الشعب ديكتاتورية طاغية، باغية، شريرة، مريضة مدى خمسة عشر عاما أو تزيد، أفلا يحتمل ديكتاتورية عادلة نظيفة ستة شهور، على فرض أن قيامكم بحركة التطهير يعتبر ديكتاتورية بأى حال من الوجوه»(٧).

لن نلوى - بالقطع - عنق هذا النص ولا حتى ذراعة.. ولن نرقص على عباراته وكلماته رقصة همجية.. بربرية.. ثم نصرخ بأعلى صوت : ها هو سيد قطب يطالب بالديكتاتورية.. لن نفعل ذلك لأننا لا نرشق الخناجر فى الظهور.. ومن الأفضل أن نفهم ونفسر، لا أن نتهم وندين.. إننى - كما قلت - أعتقد أن سيد قطب لم يفكر - رغبة منه فى التخلص من الظلم الاجتماعى - فى الصورة التى يتصور أن يكون عليها النظام السياسى.. ولم تسعفه الظروف والأحداث - وقد راحت تتوالى وتتزاحم - للتفكير فى بديل الليبرالية الملكية الفاسدة.. كما أنه أخذ موقفاً معادياً من الديمقراطية الحزبية بسبب انحطاطها وعجزها الواضح فى التجربة المصرية.. كذلك فإن نظريته الإسلامية «نحو مجتمع متطور» كانت - على ما يبدو - لا تعتقد فى التعددية الحزبية.. فكان أن أعجبه - كأديب - تعبير «الديكتاتورية العادلة» دون أن

(٧) جريدة الأخبار نقلاً عن عبدالله إمام.. «عبدالناصر والإخوان المسلمين» - الطبعة الثانية - ١٩٨٦.

يملك - كسياسى - الخبرة الكافية لتحديد أبعاد تلك الديكتاتورية، ولا خطورتها ، ولا حتى ما المقصود بها.. فهو لم يحدد مواصفات الديكتاتور العادل.. ولم يقل لنا متى ينقلب الديكتاتور العادل إلى ديكتاتور ظالم؟.. بل إنه لم يتساءل : هل هناك ديكتاتور طيب، وآخر شرير؟!.. أليس الديكتاتور ديكتاتوراً - فى كل الحالات - ولو كان ملاكاً من السماء؟

ولابد أنه كان «رومانسيا» وهو يحدد مدة التطهير بستة شهور.. كان يعتقد أنها تكفى لإصلاح ما أفسده العهد الملكى.. كما أنه كان «رومانسيا» عندما تصور أن الديكتاتورية (حتى ولو كانت عادلة) يمكن أن تترك الحكم من تلقاء نفسها بعد انتهاء الستة شهور.. إن هذا لو كان من الممكن حدوثه، فإنه بالقطع لا يتحدث عن الديكتاتورية.. وإنما عن الديمقراطية !

إن البراعة الأدبية لسيد قطب (٢٥ سنة أديباً مقابل سنة واحدة فى العمل السياسى) لم تكن لتكفى لأن يكون صاحب نظرية سياسية.. أو صاحب فلسفة أو «طريقة» حكم.. كما أن اقتراحه الأدبى «الديكتاتورية العادلة» عندما تحول إلى سياسة، نفذت فيما بعد، صرخ منها الإخوان - وعلى رأسهم سيد قطب - بعد أن طبقت عليهم، واكتووا بنيرانها.. فما كاد سيد قطب يطالب اللواء محمد نجيب بأن يكون ديكتاتوراً عادلاً، حتى انبسط «الچنرال» الطيب من التعبير، وراح فى كل مكان - وفى كل مناسبة - يتحدث عنه ، وبفرح وسعادة، يصف نفسه به.. ثم كان ما كان!

فى أغسطس ١٩٥٢، وفى جريدة «الأخبار» أيضاً، طالب سيد قطب بالحرية لكل القوى السياسية التى كانت فى السجون بما فيها «الشيوعيين».. لأنهم - على حد قوله - «كغيرهم ممن كانوا يكافحون الطغيان».. ولأنهم من «الشرفاء» الذين ينبغى أن نقارعهم الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، ولا نلقاهم بالحديد والنار [٨].. وبهذا الرأى بدا سيد قطب ليبراليا أصيلاً، واثقاً فى نفسه وفيما يعتقد.. ثم.. إنه بهذا الرأى غطى بعض عيوبه السياسية التى فضحت بحكاية الديكتاتور العادل.

---

(٨) سيد قطب - مقال : «حركات لا تخيفنا»..

لكن .. هذه الحالة لم تستمر سوى ثلاثة أيام فقط!

وقعت أحداث «كفر الدوار» وسارع مجلس قيادة الثورة باتهام الشيوعيين بتدبيرها.. ودون تحقق، وقبل أن تكتمل ملامح الحقيقة، أيد سيد قطب اتهام مجلس قيادة الثورة.. وراح فى نفس الصحيفة يهاجم الشيوعيين، ويلعنهم، ويصفهم «بالدنس».. لأنهم يحاربون عهداً «كالعهد الذى أشرق فجره منذ أيام»!!

فيما بعد.. بعد أن انتهى شهر «العسل» بين الإخوان والثورة، وبدأ الصدام العنيف بينهما، وجد الإخوان أنفسهم، يقعون فى نفس «الدنس».. دنس محاربة العهد الجديد «الذى أشرق فجره»!

لقد طالب سيد قطب بالحرية للإخوان.. باعتبارهم «الشرفاء»، وطالب بالبطش لغيرهم، باعتبارهم «الملوثين».. وتصور المفكر الرومانسى الرقيق - الذى ينزل حلبة الصراع أول مرة - أن نيران الديكتاتورية يمكن أن تدفئهم وهى تحرق خصومهم.. لم يتصور أن ألسنتها يمكن أن تمتد إليهم.. لكن تصوره «طاش».. وامتد الحريق إليهم.. إنه على ما يبدو لم يسمع بالمثل الأمريكى الشهير.. «إذا فتحت الباب فإنك لا تستطيع أن تتحكم فى كمية الرياح»!

وكان.. أن انزلق الإخوان متسللين من فوق الأرض إلى تحتها.. حاملين معهم رغبة عارمة فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه!

■■

إن قصة الصدام بين الإخوان والثورة، قصة رويت عشرات المرات، من مختلف الأطراف.. ولا تزال.. وليس من الحكمة التورط فيها.. لأنها ستخرج بنا عن الطريق الرئيسى إلى متاهات.. وأزقة.. كما أنها أصبحت مثل التحصيل الحاصل.. إذ أن كل طرف لا يصر إلا على تجريم الطرف الآخر.

لكن ..

هذا لا يمنع أن نضيف بعض التفاصيل الجديدة، غير المتداولة، حصلت عليها من

وثائق قضية انقلاب ضباط المدفعية.. (٩) وكانت الوثائق الرسمية الوحيدة التى تؤرخ لفترة «حضانة» الثورة. وما كان يجرى فيها من صراع وراء صفوفها.. لقد كانت هذه القضية – التى حدثت بعد ستة شهور على قيام الثورة – بمثابة أول صراع داخل صفوف «الضباط الأحرار» على شكل الحكم وطبيعة السلطة.. وقد وصل الصراع – الذى بدأ بعد أقل من شهرين على نجاح الثورة – إلى الذروة بعد أن راح كل فريق يتحسس سلاحه، ويحصى رجاله، ويحكم خطته، ويفتش عن القوى السياسية والشعبية – خارج الثكنات – التى يمكن أن تسانده.. وفى الوقت المناسب تدخل ليحسم الأمر.. وكان أن فتحت بوابة سجن «الأجانب» ووضع فى حجراته ضباط المدفعية.. وبهذه السابقة الأولى من نوعها، انتهى فعلياً تنظيم «الضباط الأحرار».

تشير محاضر التحقيق فى هذه القضية إلى وجود علاقة «ما» بين الضباط الأحرار الغاضبين – وبعضهم من الإخوان – وبين المرشد العام «حسن الهضيبى».. فعلى حد اعتراف أغلبهم أنهم قابلوه فى بيته، وعندما سألوه عن شعور الإخوان بالنسبة لحركة الجيش ، قال : «والله احنا مش قادرين نفهمكم».. وقد قال لى زعيم الحركة والمتهم الأول «محسن عبد الخالق» إنه عندما قابل الهضيبى ، قال : «هذا الاجتماع لمصر»، ثم جعلهم يقسمون على المصحف بأن يكون الحوار الذى يدور سراً.. فأقسموا.. فقال: «أنا فى أزمة مع الثورة».. و«لابد من إلغاء الأحزاب على أن يكون الإخوان حزب الثورة».. ثم فوجئ الضباط أن الهضيبى يبلغ عبد الناصر بما حدث، ويقول له: «إن ضباطك ثائرون عليك، وعندك مشاكل فى الجيش».. وكرر عبدالناصر ما سمعه من الهضيبى على محسن عبدالخالق، الذى أصبح فى حل من قسمه، فقال له: لا..ما حدث كان كيت وكيت.. وعلى حد قول محسن عبدالخالق : فهم جمال عبدالناصر ما كان يرمى إليه المرشد العام.. «ومن يومها وهو يخشى الإخوان، وأصر على ضربهم فى الوقت المناسب».

---

(٩) حصلت على وثائق هذه القضية من اللواء محمد نجيب بعد أن توثقت صلتى به آخر أيامه، وكانت الوثائق مهملة فى مخزن البيت الذى كان يقيم فيه بضاحية المرج، وقد نشرت أغلبها فى كتاب : «نهاية ثورة يوليو» – مع لقاءات حية مع أبرز المتهمين فيها – الناشر «مكتبة مدبولى».

ضباط المدفعية المرتبطون بالإخوان، خرجوا من بيت الهضيبى إلى كافيتريا «أسترا» - كافيتريا كانت شهيرة فى ميدان التحرير - وأبلغوا زملاء لهم كانوا ينتظرونهم : أن الحركة على وشك أن تفقد الإخوان.. فتضاعف ضغط البخار!

تشير محاضر التحقيق أيضاً : أن جزءاً كبيراً من سوء التفاهم بين الإخوان والثورة سببه تصرفات صغيرة.. أغلبها ثبت أنه شائعات.. فقد قال البكباشى مصطفى راغب (من الضباط الأحرار وأحد المتهمين الكبار) : أنه سمع من رشاد مهنا (كان الوصى على العرش وله ارتباطات إخوانية) أن هناك فكرة لإلغاء المادة الثانية من الدستور التى تنص على أن الإسلام دين الدولة الرسمى، وأن المصر على الإلغاء البكباشى جمال سالم، الذى قال : «أنا لا يهمنى أن تتزوج ابنتى من يهودى أو أمريكانى».. وفيما بعد بقيت المادة الثانية من الدستور على حالها!

قال مصطفى راغب أيضاً : إنه عندما توجه إلى بيت الشيخ محمد الأودن (من الإخوان وكان يلقب بالأب الروحى لحركة الجيش) لتهنئته بمناسبة تعيينه فى لجنة الدستور، قابل عنده رجلا درويشاً، يلبس أخضر فى أخضر، ومجذوبا، وقد بادر المجذوب الشيخ الأودن قائلاً : لا تستقبل فى بيتك أى عمة من عمم الأزهر لأن كلهم جواسيس، والضابط ده (مشيراً لمصطفى راغب) جاسوس، والبلد لن تنال خيراً عاى أيدى العسكريين! وكان هذا المجذوب قاضياً فى المحاكم الأهلية ثم انجذب!

.. وهكذا.. كان يبدو الصراع أحياناً.

إن سوء الفهم.. سوء النية أحياناً.. وتبادل رسائل ذات مغزى عبر وسطاء.. وإطلاق الشائعات.. والخرافات..كانت عناصر إضافية، زادت من لهيب الصراع الأصلى على السلطة والحكم، وكانت بمثابة المزيد من البنزين على النيران!

■ ■

وصلت العلاقة بين الإخوان والثورة إلى طريق مسدود!!

فى صيف ١٩٥٤.. بالتحديد فى أواخر شهر أغسطس، توجه سيد قطب إلى بيت

حسن الهضيبى (وكان قد عاد قبل أيام من سوريا) وكرر عليه من جديد اقتراحه الدائم.. وهو «أن على الإخوان المسلمين أن يقوموا بواجبهم فى المطالبة برد الحريات الشعبية، وخاصة الضمانات القانونية».. وفيما بعد.. أمام محكمة «الشعب» أضاف سيد قطب فى شهادته: «كنت أود، وكنت أدفع الجماعة أن تكون جماعة شعبية، أى أن تطالب بقضايا الشعب مطالبة علنية، وتؤدى دورها فى هذا باعتبارها أكبر جماعة فى البلاد، ومن واجبها ألا تترك قضية أو مظلمة من مظالم الشعب إلا وتتبناها، وتدافع عنها، وتخرج إلى الطريق، إلى الناس، وتذكر لهم أغراضها، وتقود الحركة الشعبية». (١٠)

يبدو أن العيون رصدت لقاء الرجلين (الهضيبى - قطب)، والآذان سمعت ما دار فيه ، فكان أن ضاعفت أجهزة الرقابة من ضغطها على صحيفة «الإخوان المسلمون» التى كان يشرف على تحريرها سيد قطب ، حتى لا تلعب جزءاً من الدور المطلوب.. وراح الرقباء يشطبون بوعى وبدون وعى.. وامتدت أقلامهم إلى آيات القرآن وأحاديث الرسول (ﷺ) وكان أن قرر سيد قطب إغلاقها بنفسه، وفيما بعد قال : «أغلقت الجريدة باختيارى لأنى لم أستطع أن أنشر فيها ما أريد بسبب الرقابة»(١١).

البديل.. كان سلاح «المنشورات السرية».. وإعلان الحرب على جمال عبدالناصر ورفاقه بهذا السلاح الذى أجادوا استخدامه من قبل.. وأطلق على هذه الفترة اسم «حرب المنشورات».. وكان صاحب التسمية جمال عبدالناصر نفسه.

حسب اعتراف الإخوان، تولى أفراد الجهاز السرى (النظام الخاص) مهمة طبع وتوزيع تلك المنشورات، وتفننوا فى أسلوب التوزيع ، وتفننوا فى اختيار الحجم المناسب للمنشورات، حيث لم تزد على وريقة مطوى بعضها على بعض حتى صارت فى صورة أربع وريقات كل منها فى مساحة الكف، مطبوعة طبعاً رديئاً.. ولم يتردد الإخوان فى استخدام أسلوب التشهير والافتراء - باعترافهم - ضد جمال عبدالناصر، ففى أحد هذه المنشورات اتهموه بأنه عقد معاهدة سرية مع الإسرائيليين أثناء حصار الفالوجا (حرب فلسطين - ١٩٤٨) فذهب محمود عبدالحليم (عضو

---

(١٠) شهادة سيد قطب أمام محكمة الشعب - جـ٦ - ص ٢٥٨ .
(١١) المصدر السابق.

الهيئة التأسيسية للإخوان) إلى قيادة النظام الخاص، وكلمهم فى هذا الشأن، واحتدمت المناقشة بينه وبينهم، فقال : «وإن كنت أرى جمال عبدالناصر أسوأ مما ترون - فإننى لا أرضى لنفسى ولا لدينى أن أرميه بواقعة معينة ليس معى دليل عليها سوى ما يشيعه زملاء له كانوا محاصرين معه فى الفالوجا» .. «إننا أصحاب دعوة ودين.. ومثل هذا الاتهام لا يأتى استنتاجاً مهما تجمعت قرائن الاتهام» (١٢)

امتلأت منشورات الإخوان السرية بالأدبيات.. وإن كانت أدبيات تحرض على التمرد السياسى.. مثل «تعالوا نشترى الجنة بسياط العذاب ورصاص أعداء الله».. «تعالوا نرق الدم المسفوك والدم الساخن ليكون أوسمة نحلى بها صدور الشهداء».. «اللهم أزل دولتهم، واكسر شوكتهم، وفرق جمعهم، واجعل بأسهم بينهم، وانصرنا عليهم يا خير الناصرين».. الخ.. تلك العبارات التى كانت تختفى فيها القدرة على التحليل السياسى!

■■

كانت تعليقات سيد قطب الساخنة على الأحداث سبب تدخل الرقباء فيما كانت تنشره صحيفة «الإخوان المسلمون» حتى أغلقها.

ولا بد أن الكتابات كانت تحريضية.. وغاضبة.. ومباشرة.. ولابد أن أسلوبها الأدبى قد قلل من تحليلها السياسى أيضاً.. وإذا كانت هذه إحدى سمات ذلك الجيل.. تأديب السياسة.. أو تسييس الأدب، فإن الزمن قد تغير.. وبدأت الصحافة تستقل بلغة خاصة.. جديدة.. سريعة.. تمتلئ بالأرقام والمعلومات.. وتتعامل مع الأدب باستقلال وأدب.. لكن.. سيد قطب لم يعترف بهذا الاستقلال.. وكتب فى السياسة كما كتب فى النقد.. نفس الصياغة.. نفس التدفق.. ونفس الحماس.. ربما.. لأنه لم يتصور نفسه صحفياً.. ربما.. لأن هذه «الإنشائية» كانت طبيعة صحافة الرأى التى يفضلها.. ربما.. لأنه مفكر، ومصلح، يريد أن يلهب مشاعر الناس

---

(١٢) محمود عبدالحليم - الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ - ص ٣١٤.. ويلاحظ أن نغمة اتهام عبدالناصر بالتعامل مع إسرائيل، عادت للارتفاع بعد ٣٢ - ٣٣ سنة من هذه الواقعة، وقد حدث ذلك بعد أن هدأت حملة التشهير به، وبصورة مفاجئة أثارت الشك والريبة .

ويجعلهم يتبعونه.

وحتى لا نقطع الاسترسال التاريخى بدرس فى البلاغة، سنكتفى - للتدليل على ما نقول - بفقرات من مقال له عن حدث كان من أحداث الساعة.. قضية «الدفاع المشترك».. وهو موضوع عسكرى، سياسى، استراتيجى.. فكيف تناوله؟ (١٣)

إن الدفاع المشترك فى أية صورة من الصور، أو الانضمام إلى معسكر معين بأى وضع من أوضاعه، معناه تعريض هذا البلد الأعزل للخراب والدمار. هذا البلد المكشوف الذى ما تزال حياته تتوقف على خزان أسوان، وقنبلة واحدة تكفى لتحطيم هذا الخزان! أى لتحطيم مصر كلها أجيالا بعد أجيال!

«إنها جريمة وطنية أن نربط أنفسنا إلى عجلة معينة فى صراع الجبابرة القادم، فوق أنها جريمة فى حق الكرامة والشرف والضمير. الكرامة التى داستها الديمقراطيات الغربية مرتين، وما تزال تدوسها فى تبجح، لا يقيم لهذا الشعب وزناً لأنه يرتكن إلى المصلحة المشتركة بينه وبين عهود الإقطاع.

....

«لقد شبعنا من منظر السكارى المعربدين من مجنديهم، والمائعات المستهترات من مجنداتهم، ومن تلك القذارات الآدمية التى جلبوها معهم، أو التى خلفوها لنا، مئات وألوفا من الأعراض الملوثة، والكرامات المهدرة، والعار الذى تأنف منه الرجال.. والنساء..

....

«لسنا مستعدين مرة أخرى أن تخطف بناتنا من الطرقات والبيوت ليهدر عفافهن فى المعسكرات والسيارات، ولا أن تخطف أقواتنا وطعامنا من المزارع والأسواق، لنصاب نحن بالسل والجوع، ولا أن تخطف أموالنا وأرصدتنا من البنوك، لنواجه الأزمات والكساد، ثم يقف بعد ذلك مستعمر متبجح مثل مستر تشرشل، ليمن علينا بنعمة الحماية، يطالبنا لا بالتنازل عن ديننا على بلاده، بل بدفع تعويض عن

(١٣) سيد قطب - مقال بعنوان «فى مفارق الطرق».. تعليقا على مفاوضات الجلاء.

تضحيات جنوده.. جنوده السكارى المعربدين، الأوباش».

هكذا .. كان يكتب سيد قطب فى السياسة والأمن القومى، والاستراتيچية!

■■

أغلقت صحيفة «الإخوان المسلمين»، وبدأت «حرب المنشورات» ضد الثورة، فلم يتردد سيد قطب فى مواصلة دوره سراً.. تحت الأرض.. فتولى الإشراف على نشرة «الإخوان فى المعركة».. وأغلب الظن أنها كانت موجودة من قبل إغلاق الجريدة العلنية، لنشر ما يشطبه الرقباء.. وفيما بعد سألت المحكمة «يوسف طلعت» عمن كان يقوم بتحرير الأخبار فى تلك النشرة السرية.. فقال:

ـ موش فاكر!

ـ سيد قطب كان بيكتبها؟

ـ أيوه يا فندم!

ولأن الأمور وصلت إلى حد الحرب والمعارك، كان لابد للإخوان من حلفاء يساندونهم، ويدعمونهم.. وكان أن فكروا ـ صدق أو لاتصدق ـ فى الشيوعيين.. وكان ممثل الإخوان فى الاتصال بهم ـ صدق أو لاتصدق أيضاً ـ سيد قطب، الذى كان يرمز له حركيا ـ فى تلك الاتصالات ـ بحرفى س. ق!

لقد حرض سيد قطب الثورة على الشيوعيين.. ثم.. هاهو لايجد غيرهم يتحالف معهم ضد الثورة عندما تبدلت الأحوال.. وفى تلك الظروف كانت هذه «البرجماتية» السياسية، تحمل شعاراً ديمقراطيا.. وتحمل ـ وهذا هو الأهم أو الأغرب ـ تراجعا فى موقفه من الديمقراطية. الديكتاتورية. الليبرالية.. والشيوعية.

إن تلك الاتصالات ـ التى تبدو مفاجئة ـ لم تكن الأولى من نوعها.. ففى عام ١٩٥٣ سعت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) إلى جبهة وطنية طلابية من الشيوعيين والوفديين والإخوان لمواجهة «حركة الجيش».. فكان أن تم الاتصال بالإخوان الذين رفضوا التحالف وإن لم يمنعوا شبابهم من الاتصال بمندوبى الجبهة!

بعد حوالى السنة، أعلنت صحيفة «راية الشعب» المعبرة عن الحزب الشيوعى المصرى (كان يرأسه د. فؤاد مرسى) أن الحزب وجماعة الإخوان القوتان الرئيسيتان اللتان تقاومان الثورة [١٤].. وبعد حوالى الشهر (فى ١٦ يوليو ١٩٥٤) كان سيد قطب ومندوب الحزب يؤكدان: «أن الوطنى الآن هو الذى يعارض أن ترتبط بلاده بمعاهدة أو حلف مع الأعداء، الوطنى هو الذى يكافح من أجل إسقاط الحكومة التى وضعها الأعداء على نفوسنا لتربطنا بعجلته وحروبه[١٥] ووافق سيد قطب على الدعوة إلى قطع مفاوضات الجلاء، وإلغاء الأحكام العرفية، وأكد أن «هناك نفراً من الإخوان الخونة الذين يسيرون وفق خطط الاستعمار».. بتعاونهم مع الحكومة[١٦].. وكان من رأى الحزب الشيوعى أن إسقاط الحكومة مهمة الشعب، أما الإخوان فكانوا يرون أن مفتاح التغيير أصبح فى يد الجيش.

فى ٢٠ أغسطس ١٩٥٤، حدث اتصال آخر.. ورغم أن الإخوان أكدوا أنهم أصدروا ١٠ آلاف منشور.. فإن الحزب الشيوعى كان يرى أن المظاهرات أخطر من المنشورات.. وكان رأى الإخوان أن المظاهرات تعرضهم للحل السريع، ثم بعد نقاش طويل، أبدوا استعدادهم للاشتراك فى المظاهرات على ألا تستعمل هتافات الإخوان المعروفة وهى «الله أكبر» و «لله الحمد»!

لم يكتف الإخوان بهذا التحالف ـ المؤقت والإجبارى ـ مع الشيوعيين، وسعوا إلى الجيش.. محور القوة الجديد بعد نجاح حركة «الضباط الأحرار».. ففى لقاء الهضيبى ـ قطب كان الاتفاق على عدم القيام بحركة منفردة، وعلى ضرورة أن تكون غالبية الجيش معهم.. وكان أن قال الهضيبى: «إن هناك حركة سيقوم بها الجيش لإعادة الحريات الطبيعية ولإعادة الضمانات القضائية».. وإن هذه الحركة ستكون شبيهة بما حدث فى سوريا وإن «الإخوان سيكون دورهم أن يقوموا بالتأييد الشعبى للحركة الجديدة حتى تتم».

(١٤) عبدالعظيم رمضان - الإخوان المسلمون والتنظيم السرى - الناشر روز اليوسف - ص ١٩٩.

(١٥) تقرير مندوب الحزب الشيوعى المصرى عن الاتصال بسيد قطب - نقلاً عن د. رمضان - ص ٢٠٠.

(١٦) المصدر السابق - ص ٢٠٠.

باختصار.. انقلاب على الانقلاب... ورهان جديد على الجيش لضرب حركة الجيش.. وتمرد على السلطة للاستيلاء على السلطة.. استبسال شديد من أجل التغيير، يشير (لانقول يؤكد) أن الصراع بين الإخوان والثورة كان من أجل السيطرة على مقاليد البلاد.. كان صراعاً سياسياً لادينيا.. ولم يكن كله خالصاً لوجه الله!

■■

قبل أن نعبر تلك الدوامات لابد أن نشير إلى أن الإخوان انقسموا فيما بينهم حول الموقف من الثورة.. ثم.. أدى الانقسام إلى تمزق.. ثم أدى التمزق إلى فتنة وحرب شبه أهلية في صفوفهم. كان حسن الهضيبي ومعه التنظيم «الخاص» في جهة.. وكان صالح عشماوي ومجموعة أخرى في جهة أخرى.. ولن نتورط في كثير من التفاصيل المعروفة لكننا لابد أن نشير إلى أن سيد قطب ـ رغم أن صالح عشماوي هو الذي جنده للإخوان ـ انحاز إلى مجموعة الهضيبي.. مجموعة «الشرعية» و«القوة».. وقد كان صالح عشماوي يصدر مجلة «الدعوة»».. وكانت «الدعوة» إحدى وسائل قتاله ضد الهضيبي والتنظيم السري.. وقد هاجمت النشرة التي يصدرها سيد قطب سراً «الإخوان في المعركة».. وفضحت بذلك سريتها.. ووصفتها بأنها: «نشرة مدسوسة» وأن «كثيراً مما فيها لايتفق وشرع الله»(١٧)

لقد أيد صالح عشماوي الثورة. واتفاقية الجلاء. وهاجم موقف الهضيبي منها.. وعندما اختفى الهضيبي، وصفته الدعوة ـ في سخرية ـ بالمختفي الأعظم.. ثم توالى اختفاء من كان مع الهضيبي.. فأصبح السؤال: من الذي يدير شئون الجماعة؟.. الفريق المختفي؟ أم الفريق الظاهر؟... وكان أن تطورت الأحداث حتى وصلت إلى ماسمي بانقلاب في الإخوان، حيث أسفرت جهود الفريق المعارض للهضيبي عن اعتباره في أجازة، وإلغاء مكتب الإرشاد، وتكوين لجنة مؤقتة لإدارة شئون الجماعة(١٨).. وراحت الدوائر تدور.. حتى كان حادث «المنشية»..

من جديد لانريد التورط في سرد ماجرى في «المنشية»، فالإخوان يعتبرونه

---

(١٧) الدعوة - ٢٧/٧/١٩٥٤.

(١٨) رمضان - المرجع السابق - ص ٢١٥.

مسرحية مدبرة للتخلص منهم.. والحكومة تعتبره مؤامرة دبروها لاغتيال جمال عبدالناصر.. وحتى الآن لايزال كل طرف يصر على تبادل الاتهامات، ويضيف استنتاجا جديداً، يؤيد وجهة نظره..

لكن.. بما أن الحادث كان بمثابة نقطة اللاعودة بين الثورة والإخوان، فإنه لابأس أن نسمع. ونقرأ شهادة جمال عبدالناصر وسيد قطب فيه.. على الأقل من باب المعرفة.. وربما أضاف ذلك ولو بقعة ضوء عابرة فى الظلام الذى نغوص فيه.

إن شهادة سيد قطب كتبها بخط يده وهو يتعرض لأحداث ١٩٦٥ .. أما شهادة عبدالناصر، فقد نشرها على لسانه الصحفى «ناصر الدين النشاشيبى» تحت عنوان «تجارب الأبطال».. فى كتاب «هؤلاء هم الإخوان» منذ ٣٢ سنة، ولم يعاد طبعه من جديد منذ ذلك التاريخ.

■■

«فى عام ١٩٥١ سافر الدكتور أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة الوفد إلى أمريكا، وعاد منها مستقيلاً من الوزارة، ورغم كل الترضيات التى قدمها النحاس باشا فقد أصر على الاستقالة ثم أخذ بعدها فى تكوين «جمعية الفلاح»، وفى مقدمة أهدافها تحقيق العدالة الاجتماعية للفلاحين والعمال وبرنامج ضخم حول هذه الأهداف(١٩).. وهللت الصحافة الأمريكية للجمعية بصورة كشفت عن طبيعة العلاقة بين الجمعية والسياسة الأمريكية فى المنطقة.. ووضعت الهالات الكبيرة حول الشاب الدكتور أحمد حسين وحرمه المتخرجة على ما أذكر من الجامعة الأمريكية وانضم إلى هذه الجمعية رجال كثيرون برياسة الدكتور الشاب أحمد حسين مع أنهم أكبر منه شأنا ومقاما فى ذلك الحين، منهم الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية وزارة الوفد، والدكتور عبد الرازق السنهورى وزير المعارف فى وزارة السعديين ورئيس مجلس الدولة من قبل وأمثالهما.. وهى ظاهرة تلفت النظر.. وكان الشيخ الباقورى ممن انضم إليها..

---

(١٩) آثرت ألا أتدخل بالتعليق هنا، أو فى شهادة عبدالناصر، لأن ذلك سيحتاج لفتح ملف القضية، وهذا ليس مجاله – انظر سيد قطب – المرجع السابق – ص ١٤.

«المهم، فيما يتعلق بالخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين، وكنت فى ذلك الوقت ألاحظ نموه عن قرب، لأننى أعمل أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا قريباً من رجال الثورة ومعهم من يحيط بهم.. أقول المهم أن الأستاذ فؤاد جلال (توفى وكان وزيراً فى أول وزارة برياسة الرئيس السابق محمد نجيب) كان من بين أعضاء جمعية الفلاح، وكان وكيلاً للجمعية. كنت ألاحظ فى مناسبات كثيرة أنه يغذى الخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين، ويضخم المخاوف منهم، ويستغل ثقة الرئيس جمال عبدالناصر به، ويبث هذه الأفكار فى مناسبات كثيرة لم يكن يخفيها عنى لأنه كان يرانى كذلك مقرباً من رجال الثورة وموضع ثقتهم مع ترشيحهم لى لبعض المناصب الكبيرة الهامة، ومع تشاورنا كذلك على المفتوح فى الأحوال الجارية إذ ذاك، مثل مسائل العمال والحركات الشيوعية التخريبية بينهم ، بل مثل مسألة الانتقال ومدتها والدستور الذى يصدر فيها.. إلخ.

المهم أننى كنت أربط بين خطة الأستاذ فؤاد وجمعية الفلاح كمنظمة أمريكية الاتجاه، والاتصال، وبين إشعال الخلاف بين الثورة والإخوان، وقد حاولت فى وقتها ـ ما أمكن ـ منع التصادم الذى كنت ألمح بوادره ولكن عجزت وتغلب الاتجاه الآخر فى النهاية.

.. ولكن ما علاقة هذه المقدمة الطويلة بحادث المنشية؟ والقضية جديدة؟ منذ أن وقع هذا الحادث وأنا أشك فى تدبيره.. لم أكن أعلم شيئاً يقينا عن ذلك. ولكن كل الظروف المحيطة كانت تجعلنى أشك فى أنه ليس طبيعيا. كان شىء ما يلح على تفكيرى فى أنه مدبر لبتكملة الخطة التى تنتهى بالتصادم الضخم بين الثورة والإخوان تحقيقاً لأهداف أجنبية.. أرجح من استقراء الأحوال ومن خطة الأستاذ فؤاد جلال وكيل جمعية الفلاح أنها أمريكية!..

«وعندما كان السيد صلاح دسوقى يستجوبنى هنا فى السجن الحربى عام ١٩٥٤ صارحته برأيى فى تدبير الحادث.. وقد انتفض وقتها بشدة وهو يقول لى: هل أنت كذلك - بكل ثقافتك - من الذين يقولون إنها تمثيلية؟ وقلت له: أنا لاأقول إنها تمثيلية ولكن أقول إنها مدبرة لهدف معين، وأن أصبعاً أجنبياً ذو دخل فيها.. فقال لى

وقتها وقد هدأ اضطرابه: جايز! ولكن واحداً من الإخوان المسلمين هو الذى قام بالحادث! ثم أعود لسرد الأحداث المتعلقة بنشاطى بعد عام ١٩٥٤ .. إن شعورى وتقديرى بأن حادث المنشية مدبر تدبيراً، جعل يملأ نفسى رغبة فى معرفة الحقيقة غير أننى لم أجد أحدا ممن التقيت بهم فى سجن طرة عام ١٩٥٥، وكانوا كثيرين قبل ترحيلهم إلى الواحات ، يدلنى على هذه الحقيقة.. كل من سألتهم ومنهم ناس قريبون جداً من محمود عبداللطيف الذى انطلقت الرصاصات من مسدسه ومن هنداوى دوير كذلك قالوا لى:

المسألة غامضة وموش عارفين الحكاية دى حصلت إزاى، وبعضهم قال: المسألة فيها سر لايمكن الآن معرفته.. وكانت كل الأجوبة لا تملك أن تعطينى الحقيقة».

سيد قطب

خريف ـ ١٩٦٥

■■

«واجهت رصاص إسرائيل شهوراً طويلة وأنا أنتقل بين الفالوجا و«عراق المنشية»، كان طريقى فى تلك الأيام هدفاً دائماً لرصاصهم وقنابلهم، كنت أقطع أميالاً طويلة وأنا أرافق الانفجارات وأدارى الألغام. كان الموت سميرى وملازمى وصديق أيامى، وقد عرفته ورأيته وعشت معه، والذى يواجه الموت من أجل فلسطين لايهرب منه من أجل مصر...!

....

«لم تصدق عيناى ما سمعته أذناى! لم أصدق أن هذا الوهج الذى يلهب بصرى هو النار التى تحمل معها رصاصات الغدر إلى صدرى. لم أصدق أن بين هذه الآلاف التى احتشدت أمامى تهتف بحياة مصر، إنساناً واحداً يهتف بحياة الموت لجمال عبدالناصر. كان صوت الرصاص يقرع سمعى وأنا أسائل نفسى فى أسى وذهول، أنا...؛ أنا المقصود؟!

....

«وسمعت الرصاصة الأولى فالثانية فالثالثة فالرابعة. وحاولت أن أتقى باقى

الرصاصات فأحنيت رأسى قليلاً ثم عدت لأواجه بقية الغدر والجبن والخيانة. ولم أعد أرى شيئاً أو أحس بشيء... لقد رأيت أمامى جموع الناس تتدافع فى ذعر وهلع وسمعت فى أعماقى صوتا يهتف بى لمناداتها فأدعوها للبقاء. لقد صرخت بدمى وأعصابى أيها الرجال فليبق كل فى مكانه!. ورحت أكرر هذا النداء فى عبارات سريعة متتالية. لقد شعرت بواجبى فى أن أعيد إلى ذلك الجو هدوءه واستقراره، وكان يهمنى ألا يعكر أمن ذلك البلد الحبيب أى حادث ولو كان حادث اعتداء على حياتى وفرحت وأنا أرى الجموع المحتشدة تعود إلى أماكنها فى لحظات خاطفة وتمنيت لو كان هناك مصور صحفى ليسجل بعدسته هذه الدقائق القليلة الخالدة، فيبرز صورة الجماهير وهى تتدافع أثر الحادث تبحث عن مفر، فإذا بها تسمع صوتى وتلبى ندائى وتعود إلى أماكنها فى هدوء ونظام....

....

«لقد شعرت بأيد كثيرة تجذبنى وتشدنى إلى مقعدى كانت جهود رفاقى تنحصر فى منعى عن الكلام رحمة بجهدى وصحتى وحالتى. كانت أيديهم تعارك جسمى فى قوة لاأحس بها ولكنى أدفعها بقوتى وإصرارى على متابعة الكلام. وتكلمت... وصوت الرصاص مازال يقرع مسمعى... ووهج النار يلهب بصرى. وأصوات خفية صارخة تهتف بى فى حيرة وذهول: أنا؟ أنا المقصود؟!

«لقد عزت علىّ مصر، وعزت على نفسى، وعز علىّ مشهد الجماهير الوفية البريئة تهتف بحياة مصر، وحياتى، وتهدج صوتى واستبد بى التأثر المؤلم فسمعت نفسى أقول للناس:

«ـ روحى لكم.... دمى من أجلكم... أنا فداء لكم!»

جمال عبدالناصر

شتاء ـ ١٩٥٥

■■

إن كلا من الطرفين كان يضع أصبعه تحت ضرس الآخر.. وكل منهما ينتظر أن يصرخ الآخر.. ينهار.. يرتمى على الأرض..

وقدر لجمال عبدالناصر ـ فى هذا الصراع الدنيوى ـ أن ينتصر.. وطبقاً لقواعد اللعبة التى انتهى ـ فقط ـ شوطها الأول، كان عليه أن يفتح أبواب الزنازين وجنازير السجون للإخوان.

وقدر لسيد قطب دخول عالم ما وراء الأسوار.. لقد دخل السجن فى يناير ١٩٥٤، ثم أفرج عنه فى مارس من نفس العام.. مدة قصيرة.. أما الآن.. فالمدة طويلة، طويلة.. تبدو بلانهاية!!

٦

مفكران فـــى الطريق !

- في بطن حوت السجن
- قواعد الصراع بينه وبين عبدالناصر
- حادث ليمان طرة
- التعذيب والتكفير
- منام محمد حواش
- معالم فى الطريق
- أبو الأعلى المودودى
- عزل النصوص عن ظروف البيئة
- الجاهلية والحاكمية والجماعة الإسلامية
- عبدالناصر والدين
- رد الأزهر على أفكاره
- ما بعد الرحيل أجيال شابة جاهزة للتنفيذ
- هل كان سيغير أفكاره لو لم يعدم؟

عندما وجد سيد قطب نفسه فى «بطن» حوت السجن، لم يتصور أنه سيكون مثل «يونس» ـ عليه السلام ـ ويخرج منه إلى الحياة سالماً.. مرة أخرى.

إنه مهما كان.. بشر.. يحترق بالنار.. ويغرق فى الماء.. ويتعذب بالحبس!.. ويحلم بالحرية.. ويسعى دائماً إلى حياة أفضل.

على عتبة السجن، كان يقترب بعمره من محطة «الخمسين».. إلا أنه ـ بسبب معاناته النفسية والصحية ـ كان يبدو لمن يراه ـ فوق «الستين».

ولابد أن رطوبة جدران السجن، وبرودتها، قلبت عليه أوجاعه وأمراضه والحساسية القابعة فى الصدر مع الرئة.. ولابد أن وحشة الزنازين، وغلظة السجانين وأحلام الحياة التى كانت، قد ضاعفت من شدة الألم الذى عليه أن يتحمله، وأن يتعايش معه!!

ولابد أن النتيجة لم تكن فى صالحه.. ولا الانفعالات التى حاصرته وفرضت نفسها عليه أيضاً.. ذهول. دهشة. استنكار. استغراب. اكتئاب. قلق. حزن. انطواء.. وفزع من البرد.. من الزكام.. من الرطوبة.. من السعال.. من كل ما يحول الصدر إلى «شخشيخة» فى يد الزمن.

إن طبيعته الأدبية الرقيقة ضاعفت من تلك المشاعر، وجعلته عاجزاً عن التخلص منها، والتكيف مع ظروفه الجديدة.. الرديئة.. كما أن حسه الناقد، المتحفز للخطأ، حال بينه وبين التكيف مع هذا الواقع تماماً.. إنه يحب الحياة الناعمة. المريحة. المرفهة.. ويشعر باعتداد كبير فى الذات.. ويحتاج إلى نظام غذائى خاص.. ونظام علاجى خاص، فكيف يمكن أن يقبل بسهولة هذه الحياة؟!

حياة بدت له غير آدمية.. بدت له مستحيلة.. فكان لابد أن تتدافع التساؤلات الحادة ـ كمشرط الجراح ـ إلى فراشه وعقله وقلبه ورأسه.. ماذا حدث؟.. وكيف؟ ما الحل؟.. وإلى أين المصير؟.. لماذا اعتقله عبدالناصر؟.. لماذا أعدم زملاءه؟.. لماذا بطش بهم، والتعبير حق، والتغيير حق، والبلد ملك الجميع؟.. إلى هذا الحد يمكن

أن تنتهى لعبة الصراع على السلطة؟!

ومن المؤكد أنه لم ينس نفسه كأديب، وكناقد، وكمفكر، وهو يواجه طعنات مثل هذه التساؤلات.. لذلك.. فقواعد لعبة الصراع مع السلطة وعليها لم تكن فى ذهنه.. أو كانت القواعد التى فى ذهنه قواعد خاصة به.. قواعد رومانسية.. صاغها من طبيعته وتاريخه وخبرته الخاصة.. أو كانت هذه القواعد مختلفة تماما عن تلك التى كانت فى ذهن «البكباشى» جمال عبدالناصر، والتى على أساسها نزل الملعب، وأدار الصراع، وانتصر.. إنه بمشاعر الفنان كان ـ على مايبدو ـ يعتقد أن الاختلاف مهما أمتد لايصل إلى السجن.. والصراع مهما أمتد لايصل إلى المشنقة ، كما أنه كان يعتقد أن الارتباطات الشخصية والعلاقات الإنسانية لها اعتبارها.. كذلك لا يجوز ـ مهما حدث ـ الخروج عن الحدود المرسومة.. بينما كان خصمه يرى أنه لا مفر: إما أن تكون فى السلطة أو تكون فى المعتقل؟

لقد تصور سيد قطب ـ على ما أظن ــ أنه يصارع طه حسين.. أو يدخل فى معركة فكرية مع الرافعى.. أو أن جمال عبدالناصر ـ هو العقاد، يدعمه ثم يعطيه ظهره فلايحدث ما حدث.. لم يتصور ـ على ما أعتقد ـ أن للتعامل مع السلطة ـ أى سلطة ـ قانوناً آخر.. مختلفاً.. ولم يدرك ـ غالباً – أن خبرته السياسية المحدودة لم تمنحه الفرصة لمعرفة هذا القانون واللوائح والإجراءات المكملة له.

تعامل سيد قطب بكل هذه الانفعالات.. والمشاعر.. والأوجاع، فكان من الطبيعى أن يكون إحساسه بالحبس أضعافاً مضاعفة.. وأن تكون الأمور العابرة فى السجون أموراً مفزعة بالنسبة له..

وفى هذا المناخ الردىء، وبتلك الأحاسيس المؤلمة، أمسك المفكر، والأديب والناقد، والفنان سيد قطب قلمه، ودفاتره، وخبرته الدينية، وراح يفسر ويقول رأيه فى المجتمع الذى اعتقله.. أو الذى سمح باعتقاله.. أو الذى لم يغضب ويتمرد لاعتقاله..

فكان كتابه ـ القنبلة «معالم فى الطريق»!

وبدأت الدوائر تدور عكس الاتجاه..

بعد القبض على سيد قطب نقل إلى السجن الحربى.. ثم إلى ليمان طرة..ثم بسبب مرضه الصدرى الذى وصل إلى حد نزيف الرئة ، نقل إلى مستشفى الليمان في صيف ١٩٥٥ كان ٤٠٠ من الإخوان معه فى ليمان طرة ومثلهم فى سجن مصر، وأكثر من ألفين ـ على حد تقديره ـ فى السجن الحربى، لم يقدموا للمحاكمة، أو حكم عليهم مع إيقاف التنفيذ.

كان من بين المعتقلين فى ليمان طرة بعض الضباط السابقين.. منهم جمال ربيع، وحسين أحمد حمودة، وفؤاد جاسر وغيرهم.. وعلى حد ما ذكره سيد قطب فيما بعد، أخذ جمال ربيع يعرض على الإخوان خطة للهرب من السجون الثلاثة بالقوة، بعد الاستيلاء على أسلحة الحرس، ثم التجمع فى الخارج، والقيام بانقلاب عسكرى للاستيلاء على الحكم، بعد الاتصال ببعض الوحدات العسكرية التى يعرف قادتها.. ورفض الإخوان.

اقتضت الظروف الصحية أن ينقل سيد قطب إلى السجن الحربى، فقال له جمال ربيع:

ـ إنه تدبير الله أن تذهب الآن إلى السجن الحربى لمقابلة معروف الحضرى «ضابط سابق ـ معتقل» هناك وتعرض خطتى عليه للاتفاق فيما بعد على التفصيلات وتحديد التوقيت!

قبل أن يعرف «معروف الحضرى» من سيد قطب من هو صاحب الخطة، قال فى عصبية:

ـ دى دسيسة لتدبير مذبحة كبرى للإخوان الذين فى السجون والذين فى الخارج جميعاً!

ثم.. بعد أن عرف أن صديقه جمال ربيع هو صاحب الخطة، أضاف:

ـ لا.. لاتقل له، دى عملية انتحارية ولايجوز التفكير فيها أصلاً.

بعد أن عاد سيد قطب إلى ليمان طرة أبلغ جمال ربيع رأى معروف الحضرى.. لكنه ظل على ما هو عليه!!

قائد كتيبة ليمان طرة، فى ذلك الوقت، كان الصاغ عبدالباسط البنا، شقيق حسن البنا، ورغم أنه شقيق المرشد العام السابق فإنه لم يكن يوما ما من الإخوان.. إلا أنه كان يتردد على سيد قطب فى مصحة الليمان، وذات مرة سلم عليه، وقال له:

ـ لابد من تخليص الإخوان الذين فى السجون، لأنهم هكذا يستهلكون تماماً وخصوصاً هؤلاء الذين يقطعون الأحجار فى جبل طرة مع كبار المجرمين!

سأله سيد قطب: كيف ذلك؟

قال:

أنا كقائد لكتيبة! أضع نفسى وأسلحة الكتيبة تحت تصرفكم.. إننى لم أعد أطيق منظر طابور الإخوان فى الجبل!

تذكر سيد قطب خطة جمال ربيع، وتحذير معروف الحضرى فقال له:

ـ إحنا متشكرين على عواطفك ولكن نحن نرى أننا أدينا واجبنا وانتهت مهمتنا بدخول السجون ولم نعد نستطيع عمل شىء.. فمن أراد أن يعمل غيرنا.. فليعمل!

إن مثل هذه الوقائع، مع إحساسه الدائم بالتوجس، جعلته يعتقد أن هذه الخطط الانقلابية المعروضة عليه، حتى من شقيق حسن البنا، شرك خداع.. مصيدة لذبح الإخوان.. وجعلته يترقب هذه المذبحة.

■■

نحن الآن فى صيف ١٩٥٧ .. بالتحديد فى أول يونيو ١٩٥٧ .

مضت شهور طويلة ـ تصل إلى ٣٠ شهراً ـ على اعتقال الإخوان المسلمين فى نهاية عام ١٩٥٤ .. فى تلك الفترة أعلن «ليمان طرة» أن المسجون الذى أمضى فى تكسير الحجارة بالجبل سنتين من حقه أن يتقدم لإدارة السجن بالتماس لإعفائه من

هذه المهمة الشاقة.. وللأمانة والإنصاف لم تتردد إدارة السجن فى قبول أى التماس يتقدم به أى مسجون عادى.. لكنها للأمانة والإنصاف أيضاً لم تفعل ذلك مع المسجونين من الإخوان.(١)

فى أول يونيو ١٩٥٧ تقدم ١٨٠ مسجونا من الإخوان بمذكرة إلى الإدارة لكى تمنحهم ميزة عدم الصعود إلى الجبل، وتعفيهم من تكسير الحجارة، وحملها على ظهورهم.. لكنها رفضت.. فكان أن اعتصموا جميعاً فى عنابرهم، ورفضوا الخروج إلى الجبل.. وبعد أن فشل مدير الليمان فى إقناعهم بفض التمرد والعصيان والخروج إلى العمل، أحضر قوة من الجنود المسلحين بالبنادق.. واعتلى عدد منهم الدور الرابع، وبدأ ضرب النار فى المليان على الإخوان المعتصمين فى الدور الثالث.. العنبر رقم واحد.

أسرع المسجونون إلى داخل زنزاناتهم يحتمون بها.. وحاولوا إغلاقها عليهم..«وبعد ساعة تقريبا تم وقف إطلاق النار، وكان على الأرض دماء غزيرة وجثث مبعثرة».. مشهد لايمكن وصف بشاعته.. وكانت حصيلة الضحايا ٢٣ قتيلاً و٤٦ جريحاً.. وسيق الجرحى - تنهال عليهم ضربات الشوم - إلى مستشفى الليمان.. حيث كان سيد قطب يقيم، ويعالج، ويفتش عن تفسير مناسب، يريحه لطبيعة نظام حكم جمال عبدالناصر!

■■

رواية سيد قطب عن هذه المذبحة تختلف كثيراً جداً..

فى «لماذا أعدمونى - ص ٢٤» يقول:

«كان هناك ضابط برتبة ملازم أول فى ذلك الوقت أو يوزباشى «نقيب» اسمه

---

(١) آثرت من باب الإنصاف أن ألجأ إلى مصادر الإخوان وأنا أستقى هذه الواقعة، التى وصفتها السلطة بأنها كانت ردا طبيعيا على التمرد - انظر حسين محمد أحمد حمودة - المرجع السابق - ص ١٢٤.

عبدالله ماهر على علاقة بالخمسة شبان اليهود المسجونين فى حادث جاسوسية، يؤدى لهم خدمات واضحة حتى ليحمل لهم طعامهم الآتى من بيوتهم بنفسه، الأمر غير المعهود فى الليمان. ويحتفى بأخت واحد منهم حفاوة مكشوفة للسجانين والنوبتچية من المذنبين.. إلخ.

«هذا الضابط بدأ التحرش والاستفزاز للإخوان بشكل ظاهر مما أدى شيئاً فشيئاً إلى خلق جو مشحون بالتوتر بين إدارة الليمان والإخوان، ثم اندفع معه ضابط آخر برتبة صاغ لايحضرنى اسمه الآن حتى احتك بمجموعة من الشبان الطائشين المعروفين بين إخوانهم ولإدارة السجن بطيشهم ـ وكان الأستاذ منير «الدلة» قد أفرج عنه ولم تعد لمجموعة الشباب الباقية فى الليمان أية قيادة عاقلة مجربة ـ ووقع بين ذلك الضابط وبين هؤلاء الشباب تماسك بالأيدى فعلاً ـ ثم انتهت المسألة بوضع عدد من الإخوان فى التأديب.

وظلت خطة الاستفزاز وشحن الجو بالتوتر من جانب الضابط عبدالله ماهر ورئيسه هذا ، حتى جاء يوم علم الإخوان الذين يخرجون للجبل أن هناك خطة لضربهم بالرصاص فى الجبل بحجة محاولتهم التمرد أو الهرب، فرأوا تفويتا لهذه الخطة أن يعتصموا بالزنازين فى اليوم التالى، ويطلبوا حضور النيابة لإخطارها بما وصل إلى أسماعهم من تلك الخطة التى تدبر لهم، وهنا أمرت الكتيبة بضربهم بالرصاص داخل عنابرهم، بل داخل الزنازين بالنسبة لعدد كبير منهم.. وقتل ٢١ وجرح حوالى ذلك.

«وواضح أنه كان فى الإمكان، وهم داخل عنبر مغلق اتخاذ إجراءات أخرى، إذ يكفى فى هذه الحالة سحب السجانة القلائل من العنبر وإغلاقه من الخارج، وقطع الماء والزاد عنهم ٢٤ ساعة فقط. وهنا يستسلمون حتى لو كانوا فعلاً متمردين!

ولكن..

«الإجراء الذى اتخذ وفى ظل هذا الخط المتسلسل من الحوادث يدل بوضوح على أنها خطة مذبحة متصلة وراءها يد مدبرة.. لايهمنى الآن تعيينها بقدر ما يهمنى ما

تركته هذه السلسلة من شعور فى نفسى عميق بأن حركة الإخوان المسلمين مقصود بالذات القضاء عليها لصالح جهات أجنبية.

«وأن شتى التدبيرات تتخذ وشتى الوسائل لتدمير أشخاصها بالتعذيب أو تذبيحهم أو تخريب بيوتهم للقضاء فى النهاية على الاتجاه من أساسه.

«ولعله لم يكن من المصادفات كذلك أن يكون السيد صلاح دسوقى هو المشرف على التحقيق فى مذبحة طرة.

«وقد شاع بين الإخوان فى ذلك الحين أن التحقيق الذى تجريه النيابة كان يتجه فى أول الأمر إلى اعتبارهم مجنياً عليهم، وأنه بعد حضور السيد صلاح، وحضور محقق آخر اتجه التحقيق إلى اعتبارهم جناة.. ولا يهم الآن تقدير قيمة هذا الذى شاع.. ولكن يهم تقدير سير الأحداث حتى أدت إلى تلك النتيجة.. وما تتركه فى النفس من شعور بمؤامرات على الإخوان».

انتهى.

■■

إن من المؤكد أن هذه المذبحة ـ كما قال شهود العيان ـ حسمت الأمر داخل سيد قطب.. كانت بداية آخر تحولاته الفكرية، الإسلامية.. أصبح مقتنعاً أن النظام الذى يحكم لايمت للإسلام بصلة.. ولأنه نظام غير إسلامى فلابد أنه نظام جاهلى.. ولأنه نظام جاهلى لابد من مقاومته ومحاربته وفرض الإسلام الصحيح عليه.. هكذا.. استقر الأمر فى كيانه.. وهكذا انقلبت آخر اجتهاداته الإسلامية.. فهو قبل دخوله السجن، كان يدعو إلى مجتمع إسلامى متطور، يواجه متطلبات العصر ويعوض ما فاته بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه.. أصبح الآن.. بالقطع لا يؤمن بجدوى هذه النظرية السلمية.. التى تعتمد على الحجة، والإقناع، والتفاهم السهل.. أصبح الآن ـ وبسبب محنته ومحنة الإخوان الخاصة ـ يؤمن بضرورة الجهاد بالسيف للتخلص من هذا المجتمع الكافر، الذى يعيش فى جاهلية، وينطق الشهادتين ولايعمل بهما.

ومن الأمانة أن نذكر أن سيد قطب لم يتعرض داخل السجن لأى قهر مادى كالذى يؤكد الإخوان المسلمون أنه حدث لهم.. ولا يمكن إنكار أن السجن فى حد ذاته ـ حتى ولو كان فندقاً «خمس نجوم» ـ عقاب.. خاصة بالنسبة له.. ولطبيعته، وظروفه النفسية والصحية.. لكن.. الأمر لم يزد بالنسبة له عن الحبس.. بل إن وجوده الدائم فى مستشفى السجن، كان أرحم بكثير من الإقامة فى العنابر والزنازين.. وقد كان متاحاً له الاطلاع، والبحث، والتأليف وهو فى حبسه، بدليل أنه كتب الكثير هناك.. ولعل أبرز وأخطر ما كتب كان كتابه «معالم فى الطريق». كذلك لم تكن الرقابة صارمة عليه وعلى زواره، بدليل أن شقيقته «حميدة» ـ وكما سنعرف فيما بعد ـ نجحت فى تسريب فصول الكتاب من السجن إلى الإخوان فى الخارج، وهى مهمة ليست سهلة إذا كانت الرقابة شديدة.

لكن.. هذا لاينفى حقه فى الفزع، وفى القلق والترقب، وأن يتأثر بإعدام عدد من قادة الجماعة، والتعذيب الذى جرى لغيرهم.. وتلك المذبحة الرهيبة التى أطارت النوم من عينيه.

لقد فقد سيد قطب ـ منذ ذلك الوقت ـ وكما يقول جيل «الحرس القديم» من الإخوان اعتقاده أن نظام حكم عبدالناصر يمكن أن يحمل صفة من صفات الإسلام.. وكان أن رماه بالكفر!

وقد بدأ مسلسل التكفير.. بتكفير «الجلاد».. «لأنه لايمكن أن يكون مسلماً من يعذب المسلمين على هذا النحو».. ثم.. امتد التكفير إلى « مأمور الليمان » .. « لأنه هو الذى أعطى أمر التنفيذ إلى الجلادين » ثم .. امتد إلى مدير مصلحة السجون.. فمدير المباحث العامة.. فوزير الداخلية.. ثم راحت الدائرة تتسع حتى شملت القيادة العليا.. حتى شملت جمال عبدالناصر نفسه.. ثم راحت الدائرة تتسع وتتسع حتى شملت المجتمع المصرى كله .. فهو يؤيد عبد الناصر، أو لا يتخلص منه.. مشاركة بالصمت.. والساكت عن الحق شيطان أخرس.. ومنذ ذلك الوقت، وحتى الآن لم تتوقف لعبة التكفير، ولا هواية التكفير، ولا بدعة التكفير، وبدأت أجيال جديدة

تمارسها، وتقتل فى سبيلها.. أجيال شابة لم تكن فى ثقافة سيد قطب، ولا حتى قادرة على فهم ما توصل إليه.. ولم تستطع أن تفهم ظروفه العامة والخاصة، ولا كانت قادرة على ربط تلك الأفكار بهذه الظروف.. فأخطأت فى حق نفسها وفى حقنا.. وفى حق سيد قطب أيضاً (٢).

فى تلك الأيام كان سيد قطب مهموماً بالبحث عن الوصف الذى يريحه لنظام عبد الناصر.. ولا يمنع أن يكون قد فكر فى كيفية الانتقام منه.. ورد الصاع - له - صاعين.. وفى رواية تحيط بها هالات «مقدسة» تمنحها دعم «السماء» يقول البعض: إن زميل وتلميذ وصديق وحليف سيد قطب فى زنزانة العلاج «محمد حواش» قد أنقذه من هذه الحيرة.. وألهمه الوصف المناسب لنظام حكم عبدالناصر.

قال له محمد حواش:

إن سيدنا «يوسف» عليه السلام، جاء له فى المنام، وطلب منه أن يبلغه (سيد قطب) أنه سوف يجد ما يبحث عنه فى سورة «يوسف» (الآيات ٣٥ - ٤١)!

الآيات المحددة تروى أن يوسف (عليه السلام) دخل السجن معه فتيان من خدم الملك.. قال له أحدهما : لقد رأيت فى منامى أنى أعصر عنباً ليكون خمراً، وقال له الآخر: لقد رأيت أنى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل منه الطير.. خبرنا يا يوسف بتفسير هذا الذى رأيناه.. قال لهما: ذلكما التأويل للرؤيا، والإخبار بالمغيبات مما علمنى ربى، وأوحى به إلىّ لأنى أخلصت له عبادتى.. ورفضت أن أشرك به شيئاً، وابتعدت عن دين قوم لا يصدقون بالله، ولا يؤمنون به على وجه صحيح، وهم بالآخرة وحسابها منكرون، كافرون.. تركت ملة هؤلاء الكافرين، واتبعت دين آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب، فعبدت الله وحده، فما صح لنا أن نجعل لله أى شريك من أى شىء كان.. من ملك أو جنى أو إنسى، فضلاً عن الأصنام التى لا تنفع ولا

---

(٢) لم يعد خافياً أن كل القوى الوطنية تعرضت فى السجون لما تعرض له الإخوان من قتل وتعذيب، إلا أن تلك القوى التى ملكت تفسيراً سياسياً لما حدث لها، استطاعت تجاوز المحنة إلى ما هو أبعد من الصدمات النفسية، الفردية.

تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ذلك التوحيد مما تفضل به الله علينا وعلى الناس. إذ أمرنا بتبليغه إليهم، ولكن أكثر الناس لا يتلقون هذا الفضل بالشكر بل بالكفر.. ياصاحبى فى السجن: أرباب شتى كثيرة يخضع المرء لكل واحد منها، خير: أم الله الواحد الذى لا يغالب؟.. ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ - صدق الله العظيم.. وفسر يوسف (عليه السلام) المنامين.. الأول سيكون ساقى الملك، والثانى سيصلب ويترك مصلوباً فتقع عليه الطير وتأكل من رأسه(٣).

﴿ إن الحكم إلا لله﴾.. (٤)

تلك هى الخلاصة.. شعاع الضوء فى ظلام الحيرة والسجن..

أى.. «الحاكمية لله».. وهى القاعدة التى سارت عليها - وكأنها حد السيف - جماعات العنف السلفية.. من «التكفير والهجرة» إلى «الجهاد» وما بينهما.. وما بعدهما.

لقد آمن سيد قطب أن الذين سجنوه، وعذبوا رفاقه، نسوا الله.. لم يعودوا يعبدونه.. أصبحوا يعبدون السلطة والنظام والبشر.. وهذا - فى رأيه - كفر.. شرك.. جاهلية.. وبعد كثير من التأمل كان اعتقاده أن الجاهلية قد بدأت قبل الآن بقرون.. بدأت بعد ٣٠، سنة فقط من الإسلام.. بذرة الجنين التى وضعها - عابراً - فى كتابه «العدالة الاجتماعية فى الإسلام» راحت تكبر، وتكبر، وتكبر حتى طلبت الاستقلال والحياة.. وفى كتاب «معالم فى الطريق».. وجدت الفكرة نفسها تصرخ الصرخة الأولى.. تلك الصرخة التى يستقبل بها الوليد الدنيا.. ثم.. بحرية مطلقة راحت تعبر عن نفسها. (٥)

---

(٣) المنتخب فى تفسير القرآن - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - يونيو ١٩٨٤.
(٤)سورة «يوسف» الآية ٤٠.
(٥) لابد أن نلاحظ أن معظم أفكار سيد قطب لا تظهر مرة واحدة. وإنما تبدو بذرة فى مرحلة. ثم جنيناً فى مرحلة أخرى. وقبل أن تكتمل، تكون قد نبتت بذرة أخرى وهكذا.

«معالم فى الطريق» ليس كله جديداً..

أربعة فصول منه على الأقل مستخرجة من كتاب سيد قطب الأشهر «فى ظلال القرآن».. والفصول الأربعة هى:

«طبيعة المنهج القرآنى» - الفصل الثانى.

«نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» - الفصل الثالث.

«الجهاد فى سبيل الله» - الفصل الرابع.

«التصور الإسلامى والثقافة» - الفصل الثامن.

أما الفصول الثمانية الأخرى وهى: جيل قرآنى فريد (ف - ١).. لا إله إلا الله منهج الحياة (ف - ٥).. شريعة الكون (ف - ٦).. الإسلام والحضارة (ف - ٧).. جنسية المسلم عقيدته (ف - ٩).. نقلة بعيدة (ف - ١٠).. استعلاء الإيمان (ف-١١).. هذا هو الطريق (ف - ١٢).. فقد كتبها - على حد قوله - «فى فترات حسبما أوحت به اللفتات المتوالية إلى المنهج الربانى الممثل فى القرآن الكريم».. «وكلها يجمعها - على تفرقها - أنها معالم فى الطريق كما هو الشأن فى معالم على الطريق، وهى فى مجموعها تمثل المجموعة الأولى من هذه المعالم، والتى أرجو أن تتبعها مجموعة أخرى، أو مجموعات أخرى، كلما هدانى الله إلى معالم، هذا الطريق». (٦)

أى أن ما قاله سيد قطب - باعترافه - لا يعد نهائياً.. فهو «مجموعة أولى» من «مجموعات» كثيرة.. من «معالم هذا الطريق».. لم يمهله القدر ولا الظروف أن يضع يده عليها.. وربما.. لو أن هذا قد حدث لغير الكثير منها.. أو لتحول عنها.. أو لتوصل إلى أفكار غيرها.. فالتحولات المتتالية، المتأثرة بالمجتمع الذى حوله، والمتأثرة بما كان يصل إليه من علم وإضافة، كانت أبرز صفاته.. وأشهر خصاله.. فالتراجع عن الخطأ، والإثابة إلى الصواب، من أهم مميزاته.. أو كما قال د. يوسف

(٦) من مقدمة سيد قطب - «معالم فى الطريق» - طبعة دار الشروق ١٩٨٠.

القرضاوى: إنه كان «رجاعاً إلى الحق».

لذلك .. فإن الذى يقرأ ما انتهى إليه سيد قطب فى هذا الكتاب:

١ - لابد - أولاً - ألا يعزله عن الظروف النفسية والصحية والقهرية التى كتبه فيها وإلا كان كمن يفصل الأكسوجين عن الأيدروجين، ثم يتحدث عن الماء.. والأنهار.. والسيول بعد ذلك !

٢ - ولابد - ثانياً - ألا يعزله عن السياق العام لكل كتاباته الإسلامية الأخرى.. وإلا كان كمن يفسر الكتاب على طريقة «لا تقربوا الصلاة..» دون أن يكمل الآية.

٣ - ولابد - ثالثاً - ألا يعامل الكتاب معاملة الفكرة النهائية.. التى لا ترد.. وإلا كان كمن يعتبر إسدال الستار فى نصف الفصل الأول - بسبب انقطاع الكهرباء - نهاية المسرحية.

ثم ... لابد أن نسجل أن الأفكار الأساسية فى الكتاب مقتبسة من كتابات مفكرين آخرين - على رأسهم المفكر الباكستانى أبو الأعلى المودودى - تسربت إلى السجن، وقرأها سيد قطب، وانفعل بها، وتركت بصمات كبيرة واضحة عليه، وعلى أفكاره.. إن تلك الكتابات جاءت فى وقت المحنة، فتلقفها، وكررها دون أن يربطها بظروف البيئة والأحداث التى خرجت منها ودفعت إليها.. أى أنه - مع كل التقدير والاحترام - كان كمن يفصل الأيدروجين عن الأكسوجين، ثم يتحدث عن السيول وشلالات المياه.

إن هذا النقد، يكاد يكون أشد ما يوجه إلى الأفكار التى انتهى إليها سيد قطب وهو يرصد معالم طريقه.. لذلك.. فإنه يكون من الصعب (لا نقول من المستحيل) أن نفهم سيد قطب بدون أن نعرف الشيخ المودودى.

■■

قبل أن يولد سيد قطب بثلاث سنوات، ولد الشيخ أبو الأعلى أحمد حسن المودودى.. كان ذلك فى ٢٥ سبتمبر ١٩٠٣ فى مدينة «أورنج آباد» التى تسمى الآن

فى الهند «أندرها براداش»(٧).. وهناك - بالصدفة البحتة - الكثير من الظروف المشتركة والمتشابهة التى أثرت فيهما (المودودى - وقطب) وجعلتهما يلتقيان فكرياً.. رغم آلاف الأميال التى تفصل بينهما.. فكل منهما ولد فى بيت محافظ.. جار الزمن على أصحابه.. وكل منهما عاش الازدواج الثقافى والتعليمى والحضارى.. وكل منهما اشتغل بالصحافة.. ثم إن كلا منهما كان ابن المجتمع الذى حوله.. وتغيرت أفكاره بتغير طبائعه.

فى بيت والده العالم المتصوف، الزاهد فى الحياة، تلقى أبو الأعلى علوم اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه واللغة الفارسية وحفظ الموطأ للإمام مالك عن ظهر قلب.. وفى المدرسة الثانوية عرف علوم الكيمياء والطبيعة والرياضة وغيرها من العلوم المدنية الحديثة.. التحق بكلية «دار العلوم» لكنه قطع الدراسة بسبب بقائه بجانب والده الذى أصيب بالشلل حتى مات.. ثم راح يتنقل من مدينة إلى أخرى بحثاً عن الرزق والثقافة، حتى وصل مدينة «دلهى» فتعلم فيها آداب اللغة الإنجليزية والفلسفة والعلوم الاجتماعية الغربية !!

فى تلك الفترة كان المسلمون فى الهند (٥٠ مليون نسمة) يعيشون فى ظروف اقتصادية تحت خط الفقر.. وفى ظروف اجتماعية جعلتهم أسفل السلم الطبقى.. إن الاستعمار الانجليزى كان السبب.. فعندما احتل الهند كان المسلمون أرقى السكان عقلاً وعلماً.. فحاربهم بضراوة.. أغلق مدارسهم.. نزع أوقافهم.. روع أغنياءهم.. عمل على اضطهاد الهندوس لهم.. تحول المسلمون إلى أقلية تعيش خيبة الأمل ومشاعر الاضطهاد.. ثم راح بكافة وسائل الترهيب والترغيب ينزع من علماء الدين الفتاوى: بأن الجهاد فى حالة عدم التكافؤ بين قوة المسلم وقوة المستعمر عبث ومضيعة للنفس والمال، وأن المستعمر ما دام لا يتدخل فى إقامة الصلاة وأداء الفرائض، فلا تكون البلاد بلاد حرب.

---

(٧) لعل أفضل المراجع التى حصلت عليها عن أبو الأعلى المودودى، الكتاب الذى ألفه عن حياته وفكره حمد بن صادق الجمال - كلية الشريعة بالرياض.. وإليه أستند هنا - الناشر دار المدنى - جدة.

استفزت مثل هذه الفتاوى المودودى، رغم أنه كان حائراً بين تيارين سياسيين راحا يفرضان نفسيهما بقوة.. تيار ينادى بقوة بالقومية الهندية، بصرف النظر عن الدين، وتيار آخر ينادى بقوة أيضا بالقومية الإسلامية.. وبعد تردد حسم الأمر، وانضم إلى «حركة المحافظة على الخلافة الإسلامية».. ثم أصبح رئيس تحرير جريدة «المسلم» التى كانت تصدرها جمعية «علماء الهند» منذ عام ١٩٢١.. ثم أصدر كتابيه «مصدر قوة المسلم» و«الجهاد فى الإسلام».. إن ذلك الطريق الذى اختاره كان - كما قال - لإنقاذ الأماكن الإسلامية من أيدى «الكفار».. وإنقاذ المسلمين من بطشهم.. وخاصة أنه فى صدر شبابه شهد المذابح التى راح ضحيتها مئات المسلمين (مثل المذبحة المعروفة باسم «جليا نوالة» التى وقعت فى بنجاب).. ثم.. إنه أدرك - كما قال - أن الزعماء «الهندوس يعتقدون أن أى نظام يقوم فى الهند على مبدأ ديمقراطى كان الهندوس «الأغلبية» هم الذين يكونون أكثر المستفيدين منه، والمسلمون تابعون لهم خاضعون لنظامهم» وزاد الطين بلة - كما أضاف - نشاط حركة «تهنيد المسلمين».. التى قادها الزعيم الهندوسى الشهير «شارمانند» ، كل هذا دفعه إلى تبنى فكرة «القومية الإسلامية» وإلى تكفير المجتمع من حوله.. وإلى الدعوة إلى «الأمة العقائدية» ، وحتى ينشر الدعوة أصدر فى «حيدر آباد» مجلة «ترجمان القرآن» تحت شعار : «احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن فى أيديكم، وأضيئوا حياتكم وانهضوا وحلقوا فوق العالم».. وكان ذلك منذ عام ١٩٣٢ وحتى آخر يوم فى حياته.

وحتى يوقظ المسلمين الهنود من رقدتهم الطويلة.. كان يردد دائما:«إننى لا أدعو غير المسلمين فقط بل أدعو المسلمين أيضا إلى الإسلام.. إنها دعوة ونداء للجميع: أن تعالوا نقضى على هذا الظلم والطغيان اللذين انتشرا فى العالم، ونحطم عبودية الإنسان للإنسان».

وحتى تتحول الدعوة إلى حركة بدأ تأسيس «الجماعة الإسلامية» يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤١ من خمسة وسبعين رجلاً.. إن تلك الجماعة حدد مواصفاتها عندما قال : «لابد من وجود جماعة صادقة فى دعوتها إلى الله، جماعة تقطع صلاتها بكل شىء

سوى الله.. وطريقه.. جماعة تتحمل السجن والتعذيب والمصابرة.. وتلفيق الاتهامات.. وحياكة الأكاذيب وتقوى على الجوع والعطش والحرمان والتشريد.. وربما القتل والإعدام.. جماعة تبذل الأرواح رخيصة.. وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار.. وتقدم كل ما تملك قربانا فى سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه».

انتخب «أميراً للجماعة».. وكان رأس ماله حوالى ٧٠ روبية.. وحدد أهدافها بدعوة البشر كافة «والمسلمين خاصة» أن «يعبدوا الله وحده ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره».. ودعوة الجميع «أن يحدثوا انقلابا عاما فى أصول الحكم الحاضر الذى استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً.. وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم، حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويدينون بدين الحق ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً»(٨).

ثم.. راحت هذه الجماعة تكافح من أجل إقامة دولة إسلامية، تستقل عن المحيط الاستعمارى والهندوسى الذى يحاصرها من جميع الجهات.. وكان أن تحقق لها ما أرادت.. وقامت دولة باكستان سنة ١٩٤٧.. لكن المودودى لم يكن مرتاحا لأن مؤسسى باكستان - على حد قوله - لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وأنهم سيكونون أول من يحارب الإسلام فى دولة باكستان المسلمة.. فكان أن طلب من الجماعة الهجرة إلى قرية هادئة فى الصحراء.. ليقوم - كما أضاف - على تربيتهم وتنظيمهم وتدريبهم ليتمكنوا من مواجهة أية متاعب يثيرها الهندوس.. أو قادة باكستان!

فى مارس ١٩٤٨، طالب فى اجتماع عام بمدينة كراتشى بمطالب محددة: أن يكون الحكم فى باكستان لله وحده، وأن تكون الشريعة القانون الأساسى، وإلغاء القوانين المنفذة التى تتعارض معها، وأن تستخدم الحكومة سلطاتها وفق حدود الشريعة.. فكان أن اعتقلته الحكومة لمدة ٢٠ شهراً على ذمة التحقيق.. ثم.. تطورت الأمور أكثر

---

(٨) خليل أحمد الحامدى - «نظرة عابرة على الجماعة الإسلامية بباكستان» - ص ١٧ نقلا عن حمد بن صادق الجمال - المرجع السابق .

فكاد أن يعدم لولا تدخل الدول الإسلامية الأخرى.. فصدر حكم المحكمة العليا بالعفو عنه سنة ١٩٥٥.. واستمر على حاله حتى توفاه الله.. عن ستين سنة.. وتحول قبره إلى مزار.

ترك المودودى ١٥٠ كتابا وكتيبا، ووصلت محاضراته وبياناته الصحفية إلى الألف، محفوظ منها الآن ٧٠٠ فقط.. لكن.. لعل أكثر مؤلفاته تحديداً لأفكاره كتابه «المصطلحات الأربعة» الذى نشره فى صحيفة «ترجمان القرآن» فى نفس عام تأسيس الجماعة الإسلامية.. عام ١٩٤١.

إن المصطلحات الأربعة هى : الإله. الرب. الدين. العبادة. وقد قال عنه فى مقدمة الكتاب : «هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآنى وقوامه والقطب الذى تدور حوله دعوة القرآن، فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى.. هو الإله الواحد الأحد، والرب الفرد الصمد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.. ولا يشاركه فى ألوهيته ولا فى ربوبيته أحد، وأن نتخذه دون سواه ربا، ونكفر بألوهية غيره، ونجحد ربوبية من سواه، وأن يُعبد وحده ولا يُعبد أحد غيره، ويخلص الدين لله تعالى.. ويرفض كل دين غير دينه سبحانه».(٩)

وقد أثار الكتاب الكثير من الجدل.. ولا يزال.. وخاصة أنه كان أول من طرح تعبير «حاكمية الله».. أو «الحاكمية لله».. وذلك فى مواجهة الهندوس الذين كانوا يرفعون شعار «السيادة للأمة».. أو «الأمة مصدر السلطات ».. ثم إنه كان أول من استخدم تعبير الجاهلية، وأطلقه على خصومه، حتى من المسلمين، الذين رماهم بالإلحاد، وبأنهم يتعاملون خطأ مع المصطلحات الأربعة.

ويمكن تلخيص الانتقادات التى وجهت إليه فى :(١٠).

١ - أن الهدف الحقيقى له.. هدف سياسى.

---

(٩) المودودى - المصطلحات الأربعة فى القرآن - طبعة «دار القلم» الكويت - ١٩٧٧ - ص ٥
(١٠) المرجع السابق «ص ٢٨٨».

٢ - أنه سخر كل المفاهيم الإسلامية الأساسية لخدمة أهدافه السياسية.

يقول الكاتب الإسلامى «محمد يوسف البنورى»: (١١).. عن المودودى.. «إن الرجل سياسى داهية يجتهد أن يكون زعيما للمملكة، ولكن الزعامة فى مثل شعب باكستانى متصلب فى الدين لا تتم إلا باسم الدين، ولو فرضنا أن نيته صالحة وأنه حاول الإصلاح وأنه كان مخلصا فى نيته وطويته، يمكن أن يكون ذلك، ولكنه لعدم استفادته من أهل الفضل والتقوى والعلم والدين، ولعدم حصوله على علوم النبوة على طريقة أهلها سقط فى مهاو من الضلال والزيغ، وأصبحت نهضته ثم جماعته التى تربت على هذه الأصول والقواعد وسيلة لكل إلحاد وزندقة، ومن الممكن أن ينجو هو نفسه من هذه الموبقات ولكن أتباعه المغرمين برسائله غير ممكن أن يخرجوا من هذه المخزيات المرديات، حيث انتهج لهم منهاجا يبلغ بهم إلى الضلال، وخط لهم خطة توصلهم إلى النار والعياذ بالله».

■ ■

تلقف سيد قطب فى محنته كتابات وأفكار المودودى فقد كان بمثابة المرهم المهدئ لجروحه وآلامه النفسية فى تلك الأيام السوداء بالنسبة له ولباقى الإخوان.. إن تلك الأفكار التى كانت تعبر عن حالة سياسية خاصة جداً استهوت سيد قطب لتعميمها.. فكان أن قرر نقلها من تربة إلى تربة أخرى مختلفة تماماً.. ومن مناخ إلى مناخ آخر لا يناسبها!!

إن سيد قطب «عزل نصوص المودودى عن ملابساتها»(١٢)، وحول الحالة الخاصة إلى «نظرية إسلامية» عامة (١٣)، وساعد على ذلك أن المودودى «لم يقدم مقولاته باعتبارها: الرؤية الإسلامية لمناضل مسلم فى بيئة محددة، وإنما قدمها باعتبارها: الإسلام»(١٤).. ثم إن صياغاته «ساعدت على كثير من اللبس والغموض

---

(١١) نقلا عن الجمال - المرجع السابق - ص ٢٨٨.

الاقتباسات (من ١٢ إلى ١٧) د. محمد عمارة - مقال «من أمراض الصحوة الإسلامية، مجلة «الهلال» - سبتمبر ١٩٨٦ وقد شخص هذه الأمراض بأنها : التفرق. التشرذم. التطرف. الغلو. الغرور. الانغلاق على الذات. السطحية. الارتجال. وتقديس التراث - ص ٦٨.

والإبهام»(١٥) ثم .. إنه «غير آراءه فى الموضوع الواحد عندما تبدلت الظروف.. والملابسات»(١٦).

يضيف د. محمد عمارة : «والأستاذ المودودى زعيم شعبى وخطيب مفوه». «يستثير عزائم الجماهير ويستنهض هممهم، ويستجيش مشاعرهم.. وضرورى لهذه الأسباب أن يستخدم الأسلوب الخطابى الحماسى الذى من طبيعته المبالغة فى التحذير من التقصير فى الواجبات والترهيب فى الواقع من شعب الكفر، والشدة فى إصدار الأحكام العامة»(١٧)..

المثير للدهشة أن أفكار المودودى تسللت عبر زنازين الإخوان بعد محنتهم الأولى (عام ١٩٤٨) وسحرت عقول بعض الشبان الصغار منهم.. ورغم أن تلك المحنة صاحبتها ظروف مشابهة لمحنة ١٩٥٤ (سجن، اعتقال، تعذيب، وتلفيق قضايا) فإن قيادة الإخوان الفكرية، اعتبرت «التعميم عبث يجب وقفه» ونجح مفكرو الإخوان بسهولة فى وقف السيل قبل أن ينهمر ويجتاح كل ما يقابله.. على أن الأمر كان هذه المرة أكثر صعوبة، فالأفكار لا ينادي بها الشباب، وإنما ينادى بها سيد قطب، القيادة الفكرية - للإخوان!

إن هذه الأفكار - على عمومها - لم تلق قبولاً مدة طويلة عند جمهور وقادة الإخوان. الذين كانت لهم نظرة واقعية بالنسبة للعالم الإسلامى.. لكن.. الأمر اختلف مع سيد قطب.. تماماً..

■ ■

تبدو فكرة الحاكمية واضحة فى «معالم فى الطريق» قبل تجاوز المقدمة.. «إن العالم يعيش اليوم فى «جاهلية» من ناحية الأصل الذى تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها، جاهلية لا تخفف منها هذه التيسيرات المادية الهائلة وهذا الإبداع المادى الفائق».. «هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله على الأرض، وعلى أخص خصائص الألوهية.. وهى الحاكمية.. إنها تسند الحاكمية إلى البشر. فتجعل بعضهم لبعض أربابا لافى الصورة البدائية الساذجة التى عرفتها الجاهلية الأولى،

ولكن فى صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة. وفيما لم يأذن به الله.. فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان البشر اعتداء على عباده» (١٨).

هكذا.. قال!

«نحن اليوم فى جاهلية كالجاهلية التى عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، مراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية» (١٩).

هكذا أضاف ! ولابد «لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلى، والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية».. «مهمتنا الأولى هى تغيير واقع هذا المجتمع. مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه. هذا الواقع الذى يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامى، وبالتصور الإسلامى، والذى يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش» (٢٠).

وهكذا ... اقترح!

لكن .. كيف ؟!

لا يحدد سيد قطب بصورة منظمة الإجابة.. ولا يحدد بدقة الخطوات.. وربما كان الاستعجال السبب.. ربما كان خوفه من أن ينسب ما قاله إلى المودودى.. ربما كان الحماس الشديد - كعادته - لتلك الأفكار والذى جعل عباراته تتداخل مع مقترحاته .. ربما كان خوفه من أن تعتبر السلطة الكتاب خطة انقلابية!!

على أن القراءة المتأنية يمكن أن توصل إلى صورة مما انتهى إليه، مع بعض

---

(١٨) معالم فى الطريق - ص ١٠.
(١٩) معالم فى الطريق - ص ٢١.
(٢٠) معالم فى الطريق - ص ٢٢.

الاجتهاد.

إن الحل عنده يبدأ بمبادئ عامة أهمها:

١ - الاعتراف بأن العالم اليوم فى جاهلية كالتى كان عليها العرب قبل الرسالة المحمدية.

٢ - الإيمان بحاكمية الله، لا بحاكمية البشر.. أو إعلان «ربوبية الله وحده رب العاملين».

٣ - الاستعداد للثورة الشاملة «على حاكمية البشر فى كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع فى أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور».

٤ - رفض كل النظم الوضعية التى توصل إليها البشر.. الديمقراطية.. الديكتاتورية.. الرأسمالية.. الاشتراكية. الشيوعية. فالحكم فى كل هذه النظم ليس لله وإنما للبشر.

٥ - الإيمان المطلق بأن يعتنق الناس الدعوة - حتى ولو كانوا مسلمين - لوجه الله، أى أنها دعوة عقائدية مطلقة، ليست فى حاجة إلى أى دعوة أخرى - قومية أو اجتماعية أو اقتصادية - تدعمها.. حتى ولو كان فى الدعوة العقائدية الكثير من صفات أو ميزات هذه الدعوات.

٦ - لا يمكن التعايش بين حاكمية الله وحاكمية البشر (كما لا يمكن التعايش بين الخير والشر، والحق والباطل)، ولا بقاء لطرف إلا بالقضاء على الطرف الآخر.

هذه المبادئ العامة الأساسية، لا يمكن أن تتحقق إلا باتباع الخطوات التالية:

١ - الاستعلاء على المجتمع الجاهلى وقيمه وتصوراته. أى مقاطعته. أى لا يناقش، ولا يتعامل معه، ولا يقترب منه بصورة من الصور. أى هجره. كأنه لم يكن.

٢ - قصر النبع الذى يستقى منه على كتاب الله وحده، لتخلص النفوس له

وحده، ويستقيم عودها على منهجه وحده. أى مقاطعة كل منابع الثقافة والفكر مهما كانت. بما فى ذلك كتب الفقه الإسلامى.

٣ - عدم التفكير والانشغال بالصورة التى سيكون عليها نظام الحكم.. فنظام «الحكم لا يأتى إلا بعد استقرار الدعوة، ومن الجاهلية أن يكون هذا النظام قبل نشر العقيدة».. «هذه مناورة للإحراج » يقوم بها الجاهليون «ولابد من الاستعلاء عليها».

٤ - إزالة الأنظمة والحكومات التى تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان، وإعادة مملكة الله لا تكون إلا بالقوة.. بالحركة.. بالسيف، لا بالبيان وحده.

٥ - الجهاد ضرورة للدعوة.. وعندما كف المسلمون عن الجهاد لم يعد للمسلمين إسلام، وهو مفروض، وبدونه لا يكون الإسلام إسلاما.

باختصار لابد من ثلاث مراحل رئيسية:

الأولى : مرحلة «القناعة».. القناعة بجاهلية البشر وحاكمية الله.

الثانية : مرحلة «الاستعلاء».. الاستعلاء على المجتمع الجاهلى.

الثالثة : مرحلة «التمكن» التمكن لقتال المجتمع الجاهلى وإسقاط نظامه، والجهاد لفرض العقيدة وحاكمية الله!

من الذى يتولى هذه المهمة ؟!

١ - تتولاها جماعة من الناس لا تدين بالعبودية لغير الله (فى الاعتقاد، والتصور، وفى العبادات، والشعائر، وفى النظام والشرائع).

٢ - على هذه الجماعة «المسلمة» أن تطهر كل ما علق بأفرادها من شوائب المجتمع الجاهلى.

٣ - ثم عليها أن تنظم حياتها على أساس حاكمية الله.. وبغير ذلك لا تكون هذه الجماعة مسلمة.

٤ - لابد أن تتوقع هذه الجماعة أن يحاربها المجتمع الجاهلى حربا لا هوادة فيها، وأن تقوم فى وجهها عقبات مادية من سلطة الدولة ونظام المجتمع، وأوضاع البيئة، وهذا طبيعى لأن عليها أن تحطم كل هذا، بالقوة، كى يخلو للمذهب الإلهى وجه الأفراد من الناس، وكى يخاطب ضمائرهم وأفكارهم بعد أن يحررها من الأغلال المادية ويترك لهم بعد ذلك حرية الاختيار.

٥ - المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغت الجماعة الإسلامية القوة التى تمكنها من التغلب على المجتمع الجاهلى، أو على الأقل الصمود فى وجهه.

٦ - يمكن أن تبدأ الجماعة الإسلامية حين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر.. فالثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفا.. وهكذا.. حتى يبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامى!

ولا شك أن دعوة سيد قطب هذه لا تختلف عن الدعوة الخاصة التى تبناها المودودى لأسبابه الخاصة، ثم تراجع عنها قبل أن يموت.. فهو مثل المودودى افترض أن المسلمين يعيشون فى جاهلية، ولابد من إعادة فرض العقيدة عليهم حتى لو أعلنوا الشهادتين.. وهو مثله أعطى لأفكاره صفة العمومية.. أى أنه تحدث عن العالم كله.. والنظم كلها.. والأفراد كلهم، ولم يستثن أحداً.. وهو مثله يرى أن البداية فى تكوين الجماعة الإسلامية وأن على هذه الجماعة أن تقتنع بالعقيدة ثم تستعلى على المجتمع الجاهلى، ثم تتمكن من قوتها، ثم تحاربه. نفس الأفكار. نفس المنهاج. ونفس التنظيم. ونفس أسلوب الحركة. وإن لم تكن نفس الأسباب. ونفس الظروف ، ونفس النهاية.

ولا شك أن دعوتى المودودى وقطب ترفضان ١٤ قرنا من الإسلام.. وتشطبان كل هذا التـــاريخ - بما له وما عليه - لتبدأ من الصفر. من النقطة التى بدأ عندها الرسول (ﷺ). جماعة صغيرة آمنت به. عقيدة تنتشر سراً فى مكة ١٣ سنة. اضطهاد لاحد له من المجتمع الجاهلى. هجرة إلى المدينة.. تمكن من القوة. العودة لقتال المجتمع الجاهلى وفرض العقيدة بالسيف.

ومثل هذه النظريات التى تبدو متماسكة، تقوم على فرض أساسى، إذا سقط، سقطت.. وإذا انهار انهارت.. هذا الفرض هو أن المسلمين ليسوا مسلمين.. وهو فرض غير دقيق.. إن لم يكن غير صحيح.. إن هذا الفرض - الذى نترك الفرصة لغيرنا من رجال الدين وزعماء الإخوان لمناقشته فيما بعد - لا يبدو مثل «النواة» التى تسند «زيراً» يمتلئ إلى حافته بالمياه، وإنما يبدو مثل «قطعة صغيرة من الحصى» تسند جبلاً كبيراً، على الأقل مثل جبل «المقطم»!

وإذا كان الربط بين ما قاله المودودى والنظام غير الإسلامى الذى كان حوله ضرورة، فالربط بين ما قاله سيد قطب والنظام الناصرى ضرورة أيضاً.. إن سيد قطب كان يرى أن نظام عبد الناصر الذى يرفع شعار الإسلام والاشتراكية معا لا علاقة له بالإسلام.. كان يرى أن «الادعاء بأن دولة عبدالناصر دولة إسلامية نوع من الدعاية لا أكثر ولا أقل».. فكان ما كان!

لم يكن سيد قطب وحده الذى يرى فى النظام الناصرى نظاما غير إسلامى.. فأكثر الإخوان اعتدالا يصفونه بالعلمانية وإن لم يرموه بالكفر.

إن العلمانية هى فى أبسط تعريفاتها فصل الدين عن الدولة، فهل فعل عبدالناصر ذلك ؟!

إن من المؤكد أن عبدالناصر لم يكن علمانيا كما قال البعض (من الإخوان إلى د. لويس عوض) فهو فى فلسفة الثورة يتحدث عن الدائرة الإسلامية التى تتداخل مع الدائرة العربية التى تعد مصر جزءاً منها.. وفى أزمة مارس ١٩٥٤ بينه وبين الإخوان قال : إن ما فعله ليس خروجا على القرآن! (٢١) وفى أزمة ١٩٦٥ بينه وبينهم أيضا، قال : «لم تكن الرجعية أبداً شريعة الله، ولكن شريعة الله كانت دائماً هى شريعة العدل» وفى وقت آخر قال : «إن الإسلام ثورة والتضامن الإسلامى تحتاجه الشعوب»(٢٢).

---

(٢١) رفعت سيد أحمد «الدين والدولة والثورة» - كتاب «الهلال» - فبراير ١٩٨٥ - ص ٨٨.

(٢٢) المرجع السابق - ص ١٩٣ .

وبعد الهزيمة «يونيو ١٩٦٧» ركز عبدالناصر على الدين لمواجهة ما حدث، فقال فى حديثه إلى الجنود والضباط «١٠ مارس ١٩٦٨» : «عاوز كل عسكرى يكون مؤمن بالدين وبالمبادئ والقيم»(٢٣) وفى خطاب له فى اليوم التالى ، قال : «بالإرادة والإيمان بالله، والثقة بالنفس، وبالتدريب وبالجهد وبالعلم نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر»(٢٤).

على أن عبدالناصر - الذى اعتبر الدين أداة من أدوات حكمه - لم يتردد فى إعطائه البعد الاجتماعى الذى رآه مناسبا له.. أو كما يقول محمد حسنين هيكل فى «خريف الغضب» فإن: «الدين لم يكن عقبة ضد التحولات الاجتماعية التى حدثت فى عصر جمال عبد الناصر، وبالعكس، فقد خرجت أقوال النبى والصحابة تؤيد كلها مطالب العدل الاجتماعى، وشاع فى كتابة الكتاب والمفكرين القول المأثور عن الصحابى الجليل «أبى ذر الغفارى»: «ثلاث للناس جميعا : النار والماء والكلأ».. كانت تلك وسائل الإنتاج فى العصر الذى قيلت فيه، واعتبرها «أبو ذر الغفارى» ملكاً للجميع، وبهذا القول فإن «أبا ذر الغفارى» سبق الفكر الاجتماعى التقدمى بأربعة عشر قرناً كاملاً».

وأضاف العصر الناصرى للمؤسسة الدينية فروعاً جديدة.. المؤتمر الإسلامى (١٩٥٤).. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (١٩٦٠).. وكان للمؤسسة الأخيرة دور كبير فى نشر الدعوة بمختلف لغات الأرض «بما فى ذلك اللغات الأفريقية المحلية، محدودة الانتشار» وقد كان من أشهر إنجازاتها موسوعة «جمال عبدالناصر للفقه الإسلامى».

وبعد إعلان الاشتراكية الناصرية سجلت الإحصائيات ارتفاعا فى عدد المساجد من ١١ ألف مسجد إلى ٢١ ألف مسجد.. وأصبح الدين مادة إجبارية فى المدارس.. وانتشرت المعاهد الدينية فى كل المراكز والمدن الرئيسية وأصبح للفتيات معاهد دينية خاصة بهن (٢٥).

---

(٢٣) المرجع السابق - ص ٩٤.

(٢٤) المرجع السابق - ص ٩٥.

(٢٥) لمزيد من الاطلاع حول موضوع عبدالناصر والدين - انظر رفعت سيد أحمد - مرجع سبقت الإشارة إليه - وعبدالله إمام، مرجع سبقت الإشارة إليه، ود. محمد عمارة - العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار الشروق - ١٩٨٦ - من ص ١٨٣.

بل.. إن هناك من يؤكد أن النظام الناصرى قد منح الأفكار الدينية حرية التعبير أكثر من غيرها.. فقد لاحظ د. فؤاد زكريا [٢٦] اتساع نطاق الإعلام الدينى فى العهد الناصرى «اتساعا هائلاً بالقياس إلى ما كان موجوداً من قبل، وأعطيت فرص كبيرة لوجهات النظر الدينية كيما تعبر عن نفسها بقدر من الحرية لم يكن مسموحا به على الإطلاق لوجهات النظر العلمانية، التى كانت تدلى بآرائها بحرية فى الفترة السابقة على قيام الثورة، لذلك ازدادت كثافة المقررات الدينية فى مراحل التعليم العام والخاص، وحدث توسع كبير فى حركة تشييد المساجد وتزويدها بوسائل الدعوة والبلاغ».

ومن جديد ينفى د. فؤاد زكريا : أن الصدام بين الثورة والإخوان كان صداما دينيا، أو على خلاف فى التفسير أو فى أسلوب نشر الدعوة، وإنما كان صداما سياسيا.. «كان انعكاسا للصراع على السلطة بين الضباط والجهازين العام والخاص (للإخوان) كل طرف أراد استغلال الطرف الآخر للوصول إلى السلطة أو للبقاء بها»[٢٧].

النقد الذى وجهه د. فؤاد زكريا لتحجيم الآراء العلمانية فى العهد الناصرى وزيادة حرية التعبير للآراء الدينية يعد نقداً مخففا بالقياس للنقد الذى وجهه غيره. إن هذا الغير اعتبر عبدالناصر مفرطا فى التدين إلى حد تغييب العقل المصرى.. ويستند هؤلاء إلى أنه، «وفى حمى المعركة الدائرة بعث رسالة لاسلكية سريعة إلى الملك حسين، جاء فيها: إن تاريخ الأمم فيه الأخذ والعطاء، فيه التقدم والتراجع، فليكن فيما نختاره فى هذه اللحظة الحاسمة ، وإن كان اختيارنا عصيبا ، علينا خطوة نستطيع أن نتقدم منها وهذه إرادة الله لعل فى إرادته خيراً. إننا نؤمن بالله ولا يمكن أن يتخلى الله عنا، ولعل الأيام القادمة تأتينا بنصر من عنده»[٢٨] أى أنه لم يفسر الهزيمة تفسيراً عسكريا، أو سياسياً، وإنما تفسير دينى.

(٢٦) د. فؤاد زكريا - الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة - كتاب الفكر - القاهرة ١٩٨٦.

(٢٧) د. زكريا - المرجع السابق .

(٢٨) سعد جمعة - المؤامرة ومعركة المصير - دار الكتاب العربى - بيروت - ١٩٦٨ - ص ٢٣٦.

وفى ٥ مايو ١٩٦٨، وصل العهد الناصرى إلى الذروة فى هذا الاتجاه، بقصة ظهور «العذراء» فى كنيسة «فقيرة» بالزيتون.. فقد أعلن البابا كيرلس السادس أن ظهور «العذراء» حقيقة.. كان ذلك فى مؤتمر صحفى حشدت له وسائل الإعلام المصرية كل إمكاناتها ومواهبها.. وأشارت جريدة «الأهرام» إلى أن «ظهور العذراء يشير بأن الله سيكون فى نصرتنا وأن السماء لم تتخل عنا»(٢٩). وقيل : «إن هذا الظهور يعنى أن السيدة العذراء لا ترضى عما ارتكبه ويرتكبه اليهود فى الأراضى المقدسة بمدينة القدس.. وأن ما يقع هناك قد أحزنها وهى حامية الأرض المقدسة، فجاءت لتعلن للبشر غضبها وحزنها وتدعو لتخليص القدس من مغتصبيها» (٣٠) ولم تمنع هذه «المعجزة» اندساس عناصر غير بريئة وسط الازدحام. فكان أن تدخل التنظيم السياسى «الاتحاد الاشتراكى العربى» لتنظيم صفوف المشاهدين حتى لا يكون الزحام فرصة للعناصر غير البريئة.. وفى هذا الصدد أشارت صحيفة «وطنى» إلى «اهتمام رجال المباحث والاتحاد الاشتراكى العربى بصيانة المعجزة من أى تلفيق أو كذب أو اختلاق»(٣١).

إلى هذا الحد كان النظام الناصرى علمانياً!!

إلى هذا الحد كان لا يؤمن بالدين !!

■■

فيما بعد ..

فى منتصف الستينيات ..

وصف سيد قطب بعد «معالم فى الطريق» بأنه «إنسان مسرف فى التشاؤم، ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود، ويصورها للناس كما يراها هو.. أو أسود مما يراها».

---

(٢٩) جريدة «الأهرام» - ٥ مايو ١٩٦٨.
(٣٠) الأهرام - المصدر السابق .
(٣١) جريدة «وطنى» - ٥ مايو ١٩٦٨.

الوصف سجله رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، الشيخ محمد عبداللطيف السبكى»، فى رده على الكتاب المرفوع إلى شيخ الأزهر - فى ذلك الوقت - الشيخ حسن مأمون(٣٢).

الرد طويل.. عباراته حادة.. والمنطق الذى يحكمه مقبول:

١ - موضوع الكتاب دعوة إلى الإسلام، لكن أسلوبه أسلوب استفزازى.. يهيج المشاعر الدينية.. خاصة عند الشباب.. والبسطاء الذين يندفعون فى غير روية إلى دعوة الداعى باسم الدين ، ويتقبلون ما يوحى إليهم من أحداث، ويحسبون أنها دعوة الحق الخالصة لوجه الله، وأن الأخذ بها سبيل الجنة.

٢ - إن المؤلف ينكر وجود أمة إسلامية منذ قرون طويلة، ومعنى هذا أن عهود الإسلام الزاهرة، وأئمة الإسلام، وأعلام العلم فى الدين، أنهم جميعا كانوا فى جاهلية، وليسوا من الإسلام فى شىء .. «حتى يجئ إلى الدنيا سيد قطب».

٣ - المؤلف يدعو مرات إلى بعد جديد فى الرقعة الإسلامية ثم يتوسع فيجعلها دعوة فى الدنيا كلها.. وليس أغرب من هذه النزعة الخيالية «وهى نزعة تخريبية يسميها طريق الإسلام».

٤ - ما معنى الحاكمية لله وحده؟ هل يسير الدين على قدمين بين الناس ليمتنع الناس جميعا عن ولاية الحكم؟ «أو يكون الممثل لله فى الحكم هو شخصية هذا المؤلف الداعى. والذى ينكر وجود الحكام، ويضع المعالم فى الطريق للخروج على كل حكام الدنيا» . إن القرآن نفسه يعترف بالحكام المسلمين، ويفرض لهم حق الطاعة علينا، كما يفرض عليهم العدل فينا، والإسلام نفسه لا يعتبر الحكام رسلا معصومين من الخطأ ، بل فرض لهم أخطاء تبدر من بعضهم، وناشدهم أن يصححوا أخطاءهم بالرجوع إلى الله وسنة الرسول، وبالتشاور فى الأمر مع أهل

(٣٢) لم نشأ التوسع فى هذا الرد لأن صاحبه يحمل صفة رسمية، لكننا فيما بعد سنعرض لرأى مرشد الإخوان فى الكتاب.

الرأى من المسلمين.. ومن المقررات الإسلامية:إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . فكيف يستقيم أن تقوم طليعة مزعومة لتجريد الحكام جميعا من سلطانهم؟ «وهذا شطط من الخيال يجمح بمؤلف الكتاب إلى الشذوذ عن الأوضاع الصحيحة والتصورات المعقولة».

٥ - يخيل إلينا أن المؤلف شطح شطحة جديدة، فزعم لنفسه الهيمنة العليا الإلهية فى تنظيم الحياة الدنيا، حيث يقترح أولاً هدم النظم القائمة. دون استثناء، وطرد الحكام، وإيجاد مجتمع جديد، ثم التشريع من جديد لهذا المجتمع الجديد.

٦ - عندما يدعو المؤلف إلى الجهاد ويعتبره ضرورة لتحرير الإنسان فهذه دعوة إلى إشعال الحروب مع الغير، ولو كان الوطن الإسلامى آمنا، مع أن نصوص القرآن وتوجيهات الإسلام عامة لا تدعو إلى مثل هذا الانفعال الغاشم، وإنما تعتبر الحرب وسيلة علاجية لاستقرار الحياة وقمع الفتن وشق طريق الدعوة إذا وقف فى سبيلها خصوم يعاندونها، ويعوقونها.

٧ - ومهما يكن أسلوب الكتاب مزيجاً بآيات قرآنية، وذكريات تاريخية إسلامية فإنه كأساليب الثائرين للإفساد فى كل موقع يخلطون بين حق وباطل ليموهوا على الناس. والمجتمعات لا تخلو من أفراد بسطاء ، يحسنون الظن بما لا يكون كله حقا ولا إخلاصا، وقد يسيرون وراء ظل ناعق، وخاصة إذا كان يبدى الغيرة باسم الدين ووجدوا فى غضون هذه الدعوة تلميحا بالأمل فى المراكز، والأوضاع، والقيم الجديدة فى المجتمع الجديد.. وهذه الحيلة هي نفسها حيلة إبليس فيما صنعه مع آدم وحواء، وفيما يدأب عليه دائما فى فتنة الناس عن دينهم، وعن الخير فى دنياهم والله أعلم!

لم يسمع الشباب إلا ما قاله «الأستاذ».

لا سمعوا رأى الأزهر، ولا رأى الإخوان أيضاً.

لا استجابوا لنقد المتدينين، ولا لنقد المفكرين أيضاً.

ساروا على طريق سيد قطب وكأنه الصراط المستقيم. أصبح هو القائد وهو المعلم.. ورفعوا كتابه دستورا لهم.. وكونوا الجماعات الإسلامية المتعددة الأمراء، المختلفة الأمراء، مع أنهم لابد - حسب تعاليمه - أن يكونوا جماعة لا جماعات.. طليعة لا طلائع.. وقد اتفقوا جميعا على تكفير المجتمع وقتاله، لكنهم اختلفوا على من تكون له القيادة.. بل إنهم لم يتفقوا على من منهم المسلمون فعلا.. فأضافوا لقتال المجتمع قتال بعضهم البعض.. ثم إنهم اختلفوا حول طبيعة المرحلة التى هم فيها.. هل لاتزال مرحلة استضعاف، أم تخطتها إلى مرحلة القوة والتمكن؟.

ثم.. توالت التنظيمات والجماعات التى تؤمن بالعنف.. وتعتقد أن «الأستاذ» على حق، وأن أمراءها فهموه جيداً.. فالأستاذ قد قال، وما قاله لايرد.. رغم أنه بشر .. يخطئ ويصيب .. يتأثر وينحاز.. يسعد ويغضب.. ويعود إلى الحق إذا لزم الأمر.. ورغم هذا التقدير، والتقديس للأستاذ، فإنه كان نوعا من الافتراء عليه!

وإذا كان المودودى قد أراد أن يكون زعيما سياسيا. فهل أراد سيد قطب ذلك أيضا!

وإذا كان تلاميذ المودودى قد بالغوا فى تكفير كل من يعترضهم، ثم تبركوا بضريحه.. فهل كان يسعد سيد قطب أن يفعل تلاميذه ذلك أيضاً؟!

وإذا كان المودودى قد تراجع عن أفكاره بعد أن تبدلت الظروف، وتغيرت الأحوال.. فهل كان سيد قطب سيفعل ذلك أيضا؟!

أغلب الظن أنه كان سيفعل .. طبيعته الإنسانية تقول ذلك.. تضاريس خريطة حياته تقول ذلك.. لكنها إرادة الله أن يموت قبل أن تموت الظروف. يرحل قبل أن

ترحل.. ثم إنه الموت شنقا الذى جعله شهيدا.. والشهداء لهم الخلود فى الجنة.. ودوام السيرة والأفكار على الأرض.

لقد دفعوا الثمن غالياً، دماءهم، أنفاسهم، حقهم فى الحياة، ومن ثم ، فهم المثل والنموذج مهما كانت أفكارهم، هذه سنة الحياة وتصورات الشباب وهى حكمة - كما أقول - لايدركها إلا العقلاء.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧

تنظيم مستشفى « طرة » !

- القوى الخفية التى أفسدت العلاقة بين الإخوان والثورة
- اعتزال المجتمع
- أخطاء الحركة الإسلامية
- مجموعات فدائية لرد الاعتداء
- الإخوان يغيرون طريقهم
- برنامج عقائدى من وراء الأسوار
- لاالتكفير المسلمين
- رأى عمر التلمسانى
- نقله إلى مستشفى خارج السجن
- تقرير عن حالته الصحية
- الحكومة تنشر كتبه وهو فى السجن
- عبدالسلام عارف يتوسط للإفراج عنه

نكون أو لا نكون!

يكون الإخوان.... أو لايكونون!

هكذا ..... على مايبدو كانت القضية كما انتهت إلى سيد قطب وهو لايزال وراء الأسوار.. فى غياهب السجن.

استقر فى يقينه تصور، كان من رابع المستحيلات تخليصه منه.. استقر فى يقينه أن السلطة بعد محنتى المنشية (١٩٥٤) وليمان طرة (١٩٥٧) تنفذ مخططاً لم ينته بعد.. ستسعى إلى إضعاف جماعة «الإخوان» بمزيد من اختلاق المحن.. حتى تقضى عليهم.. وتشرد نساءهم.. وتخرب بيوتهم.. وتيتم أطفالهم.. ثم إن هذا اليقين الذى ملك كيانه لم يلبث أن انقلب إلى استنفار وتحد.. فلا يمكن أن يعرف الإخوان ذلك المخطط ولايتحركون.. لايمكن أن يعرفوا ويقفوا مكتوفى الأيدى.. فذلك معناه الاستسلام للذبح دون مقاومة.. لابد من المواجهة.. فإما أن نكون أو لا نكون.. لامفر من الاختيار على هذا النحو!

ازداد هذا اليقين رسوخاً فى كيانه بعد أن أصبح مقتنعاً أن هناك من يعكر صفو المياه الجارية بين السلطة والإخوان، ثم يبدأ الصيد فى الماء العكر.. إن هناك من يفسد الهواء النقى بينهما.. فتتحول النسمات إلى زوابع.. ثم فى هذا الجو «الخماسينى» يكون البطش والإرهاب.. وحتى آخر يوم فى عمره كان مقتنعاً أن «جمعية الفلاح» كانت السبب فيما حدث من توتر وصدام بين الثورة والإخوان سنة ١٩٥٤ ... وحتى آخر يوم فى عمره كان مقتنعاً أن هناك قوى خفية هى التى شحنت الجو بين السلطة والإخوان سنة ١٩٥٧ .. أى أن المؤامرة أكبر من رغبة النظام، وأخطر من صراعاته وحساباته.. أى أن جريمة النظام أنه برىء إلى حد السذاجة.. إلى حد الغفلة.. ومن الممكن أن يكون ضحية هو الآخر مثله مثل جماعة الإخوان تماماً، مهما بدت الصورة مختلفة.(١)

---

(١) المصدر: إقرار سيد قطب الذي كتبه بنفسه في السجن الحربي يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٦٥ - ملف القضية رقم ١٢ لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا والقضية رقم ٤٨٤ حصر ٦٥، والتي سنرمز لها بتعبير «القضية» عند الاقتباس منها بعد ذلك .

من الجانى الحقيقى؟!

فى رأى سيد قطب: الصهيونية والصليبية الاستعمارية!

وحسب ماقال: إنها «تكره حركة الإخوان وتريد تدميرها».. وأن «مخططاتها ودسائسها» واضحة.. معروفة.. منشورة.. فهى «تريد محو العقيدة الإسلامية» والإخوان حراسها.. وهى «تريد محو الأخلاق الإسلامية» والإخوان حماتها.. وهى تريد نشر الإلحاد والانحلال «وبالتالى تدمير العقائد والأخلاق، والمقومات الأساسية فى هذا المجتمع» والإخوان هم العقبة الرئيسية أمامها.. ومن ثم.. لابد من التخلص من الإخوان.. من وقف نموهم.. من نسفهم.. من القضاء عليهم، حتى تصبح الساحة خالية، والملاعب جاهزة، والطرق مفروشة بالرمال.

هذه هى الصورة التى أصبحت جاهزة أمام خيال وعقل ونظر سيد قطب فى بداية الستينيات.. أو.. «هذه هى الحصيلة التى تجمعت لدى فيما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٢».. كما قال(٢)..

«ومن ثم.. امتلأت نفسى اقتناعاً بضرورة وجود حركة إسلامية كحركة الإخوان المسلمين فى هذه المنطقة وضرورة عدم توقفها بحال من الأحوال»(٣).

«إن الحركة الإسلامية يجب أن تستمر. إن القضاء عليها فى مثل تلك الأحوال يعد عملاً فظيعاً جداً يصل إلى حد الجريمة»(٤).

وتحت هذه الشعارات والتحديات بدأت حركته الجديدة!

■■

لم يجد سيد قطب ـ بعد حادث طرة ـ من الإخوان حوله فى السجن، من يمكنه أن يستوعب أفكاره، وينضم إلى جماعته.. قضى الحادث على معظم الإخوان الذين كان من الممكن تجنيدهم.. وكان الوحيد الذى يمكن أن يطاوعه، ويناقشه، تلميذه وصديقه ورفيقه فى الحبس لمدة ١٠ سنوات؛ محمد يوسف حواش.

بعد جلسات طويلة من البحث والنقاش، راجعا فيها حركة الإخوان المسلمين،

---

(٢) و (٣) و(٤) سيد قطب – القضية..

وقارناها بالحركة الإسلامية الأولى التى كانت فى فجر الإسلام، انتهيا معاً إلى : «أن الحركة الإسلامية اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التى كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية».. و«البعد عن القيم والأخلاق الإسلامية ـ وليس فقط البعد عن النظام الإسلامى والشريعة الإسلامية ـ وفى الوقت نفسه تواجه معسكرات صهيونية وصليبية استعمارية تحارب كل محاولة للدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها عن طريق الأنظمة والأجهزة المحلية، بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض»(٥).

هذه القناعة، جعلت سيد قطب، يؤمن بأن أسلوب الإخوان كان خطأ.. كان يمتلىء بالثقوب والعيوب.. فالحركة شغلت «نفسها أحياناً كثيرة بالاستغراق فى الحركات السياسية المحدودة المحلية».. مثل: محاربة معاهدة أو اتفاقية.. مثل: محاربة حزب أو تيار أو اتجاه.. ومثل: التورط فى المناورات الانتخابية..... إلخ.... «كما أنها تشغل نفسها بمطالبة الحكومة بتطبيق النظام الإسلامى والشريعة الإسلامية، بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية، والغيرة عليه، وعن الأخلاق الإسلامية»(٦)...

كانت هذه الانتقادات نوعاً من التقييم الذى أجراه سيد قطب هو ومحمد حواش لحركة الإخوان المسلمين من أيام حسن البنا إلى أيام حسن الهضيبى.. وكانت نوعاً من محاسبة الذات أيضاً.. فهو فى مرحلته السابقة رفض اتفاقية الجلاء.. وسعى إلى التخلص من حكومة الثورة.. وتحالف مع الشيوعيين فى أزمة مارس ١٩٥٤ .. الخ.. لكن.. كل هذه الانتقادات كانت – فى رأيه – أخطاء حركية «يمكن أن تستبعد ويمكن الاستفادة من التجربة فى تجنبها»(٧)

وقبل أن نتجاوز هذه النقطة لابد أن نشير أنه تصرف – كالعادة – بطبيعته الذاتية.. فالفكرة التى يثبت له أنها خاطئة لابد أن يؤمن الآخرون أنها كذلك.. والمرحلة التى يتجاوزها بحكم تجربته الخاصة، يجب أن يتجاوزها الآخرون أيضاً..

---

(٥) و(٦) و(٧) سيد قطب – القضية.

ولأنه مثقف فهو مقنع.. ولأنه مرتب الذهن فهو مؤثر.. ولأنه جرب بنفسه فالناس لابد أن تثق فيه.. ثم إنه كان بارعا فى التقاط الأدلة من الظروف التى تحاصره.

■■

لم يتردد سيد قطب - كطبعه - فى أن يحول قناعاته إلى برنامج.. وأفكاره إلى منهاج.. وتصوره إلى تنظيم.. تنظيم جديد مستقل عن الإخوان، داخل الإخوان.. لم تمنعه أمراضه ولا جدران السجن من تشكيله.

تنظيم يقوم على «العقيدة النقية».. يتجنب ضياع الوقت فى الأحداث السياسية الجارية.. ولا يفرض «النظام الإسلامى عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة فى المجتمعات هى التى تطلب النظام الإسلامى لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به»(٨)..

لكن.... هذا لا يمنع من ضرورة وجود «مجموعات مدربة تدريباً فدائياً» ..«تتدخل عند الاعتداء على الحركة والدعوة والجماعة لرد الاعتداء وضرب القوة المعتدية بالقدر الذى يسمح للحركة أن تستمر فى طريقها».. (٩)

وكان السؤال الصعب الذى طرحه على نفسه: «كيف يجند الشباب لتنظيمه وليمان طرة ليس فيه من يصلح؟».. وكانت الإجابة السهلة خدمة من ظروفه الصحية.. إن الإخوان المسلمين كانوا موزعين علي معظم سجون البلاد.. من سجن القناطر إلى معتقل الواحات.. إلا أن بعضهم - وعلى فترات متفاوتة - كانوا يحضرون للعلاج، إما فى مستشفى سجن مصر أو فى مستشفى ليمان طرة.. ولأنه يقيم إقامة كاملة فى مستشفى ليمان طرة، فمن الممكن أن تتاح له الفرصة مع من يأتون إليه.. وكان أن سعى إلى الذين قدموا للعلاج وكان أغلبهم من سجن «القناطر».. وحسب مدة العلاج كان يجد حجم الفرصة.. أحياناً تمتد إلى شهور.. وأحياناً لا تزيد على أيام.. وفى كل الأحيان كانت فترات الرياضة هى أنسب الأوقات للاتصال والحوار وربط «الكلام».. ولأن الفرصة - فى الغالب - كانت

---

(٨) و(٩) سيد قطب - القضية.

ضيقة، فقد كان لا يملك - على حد قوله - سوى أن يفتح لمن يحادثه «نافذة للتفكير من جديد والقراءة فى الكتب التى تساعده» على التصور الجديد.. وكان يسمى له عدداً من الكتب.. بعضها كان عنده.. وأغلبها كان فى مكتبات السجون.

لم يكن سيد قطب فى ذلك الوقت سوى «أخ مسلم».. (١٠).. صحيح أن له فى نفوس الإخوان «قيمته ومكانته الشخصية بوصفه كاتباً ومفكراً إسلامياً له خبرته وتجربته فى المجالات العامة، وله شهرته ومكانته فى العالم الإسلامى».. (١١) .. لكن صحيح أيضاً أنه لم تكن له «صفة حركية إدارية فى الجماعة تعطى له الحق الشرعى فى رسم خطة حركية».. (١٢) فهذا من حق مكتب «الإرشاد» وهو ليس عضواً فيه.. ولأنه كان يعرف أنه يقلب فلسفة الجماعة، ويغير خططها، دون استئذان القيادة، ولأنه كان يعرف جيداً أن الإخوان يتبعون بصراحة ما تقوله وما تأمر به القيادة، فإنه كان يبدأ مع كل شاب من الجماعة بحذر.. ببطء.. بهدوء، حتى لا يفشل التنظيم قبل أن يبدأ.. حتى لا يضرب من داخل الجماعة قبل أن يتعرض للضغوط من خارجها. كان يعرف ما يفعله جيداً..

كان يبدأ بالحوار.. وكان الحوار ينحصر فى ترك الأمور الجارية.. تنشيط العقيدة.. تقوية أفرادها.. وإعدادهم للوقت المناسب للانقضاض على المجتمع الجاهلى..

وبعد الحوار.. تبدأ مرحلة الدراسة من خلال برنامج قراءة أولى، معين، قدره البعض بستة شهور، وقدره البعض الآخر بسنة ونصف.

وقد بدأت هذه البرامج - فى نفس الوقت تقريباً - داخل وخارج السجون!

ففيما بعد قال «على عشماوى» أحد قادة الإخوان فى تنظيمات حركة ١٩٦٥ :

- «أذكر أنه فى الاجتماع الأول بينى وبين أعضاء القيادة، محمد فتحى رفاعى (مسئول التنظيم فى الغربية) جاب نشرة مطبوعة وقال إنها من سيد قطب فى السجن، وإنه جابها عن طريق اسماعيل الهضيبى (ابن المرشد العام حسن الهضيبى) وعرضها علينا لقراءتها، وكان فيها مشروع برنامج دراسى إسلامى مؤداه إنه لازم

---

(١٠) و(١١) و(١٢) سيد قطب - المصدر السابق.

تدرس خلال سنة ونص مجموعة كتب سماها فى النشرة، منها على ما أذكر تفسيره «فى ظلال القرآن»، وبعض كتبه، وكتب شقيقه محمد قطب وكتب أبو الأعلى المودودى الباكستانى». (١٣)

وفيما بعد، قال عضو التنظيم عباس حسن السيسى:

- كان البرنامج فى «الأسر» قراءة كتب معينة مثل : «معالم فى الطريق» و«فى ظلال القرآن» ـ سيد قطب «الإسلام والجاهلية» ـ أبو الأعلى المودودى.. و«الإيمان» - ابن تيمية.. (١٤). وفيما بعد، قالت زينب الغزالى:

«طلبت من حميدة قطب أن تبلغ الأخ سيد قطب تحياتنا ورغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامى فى الاسترشاد بآرائه.. وأعطيتها قائمة بالمراجع التى ندرسها وكان فيها «تفسير ابن كثير»، و«المحلى لابن حزم»، و«الأم للشافعى»، وكتب «التوحيد لابن عبدالوهاب» «وفى ظلال القرآن لسيد قطب»، وبعد فترة رجعت إلىّ حميدة وأوصت بدراسة مقدمة سورة الأنعام.. الطبعة الثانية وأعطتنى ملزمة من كتاب قالت : إن سيد يعده للطبع واسمه «معالم فى الطريق».. وكان سيد قد ألفه فى السجن وقالت لى شقيقته، إذا فرغتم من قراءة هذه الصفحات سآتيكم بغيرها».. (١٥).

فى ذلك الوقت (١٩٦٢) كان قد أفرج عن حسن الهضيبى إفراجاً صحياً، وقد وصل إليه كتاب سيد قطب على أجزاء.. على مسئولية زينب الغزالى، اطلع الهضيبى على الكتاب وأذن بطبعه.. وقال: «على بركة الله.. إن هذا الكتاب حصر أملى كله فى سيد، ربنا يحفظه، لقد قرأته. وأعدت قراءته، إن سيد قطب هو الأمل المرتجى للدعوة الآن، إن شاء الله». (١٦).

---

(١٣) ص ٢١٠ - الجزء الثالث - ملف القضية.

(١٤) ص ١٠٤٠ - جـ١١ - القضية.

(١٥) زينب الغزالي - أيام من حياتي - دار الشروق - الطبعة الثامنة - ص ٣٦,

(١٦) زينب الغزالي - المرجع السابق - ص ٣٦ وذلك مع ملاحظة أن الهضيبي قد رد فيما بعد علي أفكار قطب والمودودي في كتاب أعده خصيصاً هو كتاب «دعاة لا قضاة» وسوف نتعرض له في الوقت المناسب.

خلال الفترة ما بين ١٩٦٢، و ١٩٦٤ تكونت فى السجون التى كان فيها الإخوان خلايا التنظيم الجديد.. وقد سميت هذه الخلايا باسم «الأسر».. ولم يعرف أحد العدد الحقيقى للتنظيم.. وتراوحت التقديرات بين ٢٥ و ١٠٠ عضو.. ويبدو أن هذا التفاوت الكبير فى التقديرات يرجع إلى سرية التنظيم وعدم كشف معظم أفراده، أو ربما كان سيد قطب قد فاتح مائة شخص، ولم يثق إلا فى ربعهم.. فقد قال بنفسه: إنه خلال تلك الفترة تكونت مجموعة فى سجن القناطر عددها حوالى المائة : ٢٥ اندمجوا فى الدراسة وأصبحت لهم مفهومات واضحة فى العقيدة والمنهج و ٢٣ عارضوا مبدأ السماع إلا من قيادة الجماعة فى الواحات و ٥٠ درسوا ولم يصلوا إلى الوضوح الكافى.. (١٧) أى أنهم كانوا فى الطريق.. ولم يعرف ما انتهوا إليه لأنه كان قد خرج من السجن..

فيما بعد.. خرج سيد قطب من السجن، وعرضت عليه قيادة التنظيمات الإخوانية الجديدة التى كانت فى انتظاره، وفى حاجة إلى قيادة.. فكان أن قال للخمسة الكبار فى هذه التنظيمات:

«أنا شكلت مجموعة آمنت بعقائدى وأفكارى داخل السجن من سنة ١٩٥٩ وأن المجموعة متصلة بى».. غير أنه يرى عدم دمجها بباقى المجموعات «لأنهم مكشوفين للبوليس».. (١٨)، لأنهم مساجين سابقون، وتحت العين والمراقبة.

لقد راحت المجموعة التى كونها فى السجن تواصل الاتصال به بعد الخروج منه.. لكن المدة التى قضاها خارج السجن لم تكن تكفى لمزيد من التوسع، لأنها لم تزد على ثمانية أشهر بالضبط.. كانت علاقته أكثر بمحمد حواش خلال تلك المدة القصيرة.. وقد كان يرشحه لأن يتولى إكمال عملية التوعية للمجموعات الخارجة من السجون، كما كان يرشحه لتولى المسئولية القيادية من بعده. (١٩)

---

(١٧) سيد قطب - القضية.
(١٨) أقوال علي عشماوي - القضية.
(١٩) سيد قطب - القضية.

كما تحمس بعض شباب الإخوان لأفكار سيد قطب بشدة، تحمس البعض الآخر ـ وبشدة أيضاً ـ ضد هذه الأفكار.. وأغلب الظن أن الذين عارضوه اعتبروا خطه «مخالفاً للخط الحركى الذى سارت عليه الجماعة من قبل». واعتبروه صادراً «عن جهة غير شرعية بالنسبة لهم»(٢٠).

وأغلب الظن أيضاً، أن قصر مدة الحوار بين سيد قطب، والشباب الذى تحمس له، جعل بعضهم ـ كما قال ـ يفهم أفكاره خطأ.. وبسبب هذا الفهم الخاطىء راح عدد منهم يبرز ـ لأول مرة ـ خناجر التكفير!

أقام المعارضون لأفكار سيد قطب وتنظيمه، ضجة كبرى داخل صفوف الإخوان.. ووصفوا ما يفعله بأنه «فتنة» ستعصف بالبقية الباقية من الجماعة.. وحسب ما أتذكر، كان أبرز المعارضين: أمين صدقى، وعبدالرحمن البنان وعبدالعزيز جلال.. وبسبب هذه الضجة وخوفاً من الفتنة، انزعجت قيادة الإخوان مما انتهت إليه أفكار سيد قطب من تكفير وتحريض واستفزاز.. وقد شاء المرض أن يحضر للعلاج فى ليمان طرة شخصية إخوانية لها احترامها، هو عبدالرءوف أبو الوفا.. وكان أن قال لسيد قطب فور أن اختلى به:

«نحن منزعجون، لأنه ليس فى نيتنا أن نكفر الناس!»

رد سيد قطب(٢١):

«إننا لم نكفر الناس، وهذا نقل مشوه، إنما نحن نقول: إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة وعدم تصور مدلولها الصحيح، والبعد عن الحياة الإسلامية ـ إلى حال يشبه حال المجتمعات الجاهلية، وأنه من أجل هذا لاتكون نقطة البدء فى الحركة هى قضية إقامة النظام الإسلامى، ولكن تكون إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية.. فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس».

أى أنه ـ بصريح العبارة ـ لايكفر أحداً.

---

(٢٠) سيد قطب ـ القضية.

(٢١) قطب ـ المصدر السابق.

التقى سيد قطب ـ بعد ذلك ـ فى مستشفى ليمان طرة بعمر التلمسانى، وعبدالعزيز عطية، وكانا فى ذلك الوقت من أعضاء مكتب الإرشاد.. تكرر النقاش.. وامتد.. وحسب ما قال: إنهما فهما حقيقة المسألة.. فاستراحا لها! وفيما بعد.. قال عمر التلمسانى(٢٢):

ـ إنه لايعتقد أن كتاب «معالم فى الطريق» فيه جديد.. «ولكن بما أن «معالم فى الطريق» كتبه سيد قطب فى السجن بعد أن ذاق ألوان العذاب على مختلف قسوتها ووحشيتها، فقد بدأت نقمته على مخالفة الشرع أوضح وأظهر، وما أراد الأستاذ سيد قطب فى يوم من الأيام أن يكفر مسلماً لأنه أعلم المسلمين بأن رسول الله(ﷺ) قال فى أكثر من حديث: إن من قال لاإله إلا الله مؤمنا بها قلبه فلن يخلد فى النار.. ونحن نعلم أنه لن يخلد فى النار إلا الكافرون.. وهم الذين ينكرون وحدانية الواحد القهار.. هذه واحدة، والثانية أن كثرة ترداده لكلمة «المجتمع الكافر» أو «المجتمع الجاهلى» لم يقصد بها تكفير المجتمع ولكن تشديد النكير على الظلمة والطغاة والمستغلين والمشككين».

وأضاف التلمسانى:

«والذين يعرفون سيد قطب ودماثة خلقه وجم أدبه وتواضعه ورقة مشاعره، يعرفون أنه لايكفر أحداً. إنه داعية إسلامى من عيون دعاة المسلمين، فظلمه من أخذ كلامه على غير مقاصده»(٢٣).

والذين ظلموا سيد قطب، وأخذوا كلامه على غير مقاصده هم ـ فى رأى التلمسانى ـ الشبان الذين رفعوا راية التكفير، وعجزت قيادات الإخوان داخل وخارج السجون عن إقناعهم بأن طريقهم لايؤدى أبداً إلى الإسلام.

■■

بالتأكيد..

أدت دعوة سيد قطب إلى فتنة فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين.. ولعل

---

(٢٢) و(٢٣) عمر التلمساني – ذكريات لا مذكرات – دار الاعتصام – ١٩٨٥ .

الصواب لايبتعد كثيراً عنا، لو أضفنا أن الفتنة اتسعت لتشمل الحركة الإسلامية المعاصرة.

لقد انقسم الإخوان من جديد إلى فريقين.. فريق يطالب بضبط النفس، وفريق يطالب بالمواجهة والتحفز.. فريق يؤمن بفرض النظام الإسلامى بالوسائل التى يمكن أن يسمح بها النظام، وفريق لا يرى إلا الانقضاض والانقلاب، فريق يسيطر عليه ما تبقى من جيل «الحرس القديم» وفريق يسيطر عليه الشباب.. وسواء فهم الفريق الشاب المتفجر بالغضب والحركة أفكار ودعوة سيد قطب فهماً صحيحاً، أو فهماً خاطئاً، فإنه أصبح منقسماً على الإخوان. وأصبح أعلى صوتاً.. وأسرع تكفيراً.. وأكثر رغبة فى العنف والصدام.. ولايزال!

وبالتأكيد...

لأن ما قاله سيد قطب - فى ذلك الوقت - بداية تحولات لاحد لها فى جماعة الإخوان المسلمين.. فى التكفير.. فى التنظيم.. وفى الحركة.. وامتدت هذه التحولات - كالعادة - من القلب فى مصر إلى الفروع والأطراف فى معظم البلاد العربية.

إن الأدلة على وقوع هذه التحولات كثيرة.. ومتنوعة.. وتبدأ من منتصف الستينيات وتمتد إلى الآن.

فى قضية الإخوان - ١٩٦٥، اعترف عبدالفتاح إسماعيل - الذى ساهم فى إحياء التنظيم كما سنعرف فيما بعد - أن هذه التحولات قد وقعت فعلاً.. وكان أن سأله المحقق:(٢٤)

س: كيف يتسنى الوصول لهدفكم النهائى فيما اتفقتم عليه؟

جـ: الهدف مكانش محدد له مدة وكان المهم أن نسير على الطريق ونبدأ بإعداد الأمة المسلمة، ولما تتكامل قوتها يبقى ممكن نعمل انقلاب لقلب نظام الحكم القائم وقتها وتنصيب حكومة من أمتنا المسلمة تستند فى حكمها إلى قاعدة إسلامية صحيحة.

---

(٢٤) القضية ص ٤١٥ .

س: مفهوم هذا القول أن الاتفاق كان على قلب نظام الحكم القائم بالقوة وتغيير دستور الدولة وشكلها الحالى.

جـ : أيوه الهدف النهائى إننا نقلب نظام الحكم القائم بالقوة.

س: وهل هذا يتفق مع ما كانت عليه دعوة حزب الإخوان المسلمين قبل الحل؟

جـ: لا.. وده تغيير فى المفاهيم حصل نتيجة الحوادث لأن الإخوان قبل الحل كانوا عاوزين الإصلاح عن طريق الدولة وكانت دعوتهم مكشوفة وكان ممكن إنهم يوصلوا للحكم عن طريق البرلمان، أما فى الظروف الحالية، وبالنظر إلى حظر نشاط الإخوان، فإنه لايمكن فى رأينا الوصول للحكم إلا بطريقة سرية نكبر بها أنفسنا حتى يمكن أن نتولى مقاليد الأمور فى يوم من الأيام وذلك بطريق قلب نظام الحكم القائم وقتذاك بالقوة.

س: وهل تدارستم فى البرنامج الذى يزمع السير عليه إذا ما توليتم مقاليد الحكم فى البلاد؟

جـ : إحنا لم نفكر فى الموضوع لأن وقته مش دلوقت، وهذا هدف بعيد إنما الهدف القريب هو التربية.

فى نفس القضية قال عضو التنظيم أحمد عبدالمجيد عبدالسميع:(٢٥)

- «سيد قطب كان بيتكلم فى النشرات (التى كان يرسلها من السجن) عن الإخوان والجماعة المسلمة».. والكلام اللى «كان مكتوب فى النشرة عجبنا لأنه كان كلام جديد علينا».

وقال عضو التنظيم عباس حسن السيسى:(٢٦)

- تنظيم الإخوان المسلمين عموماً يسعى إلى هدفين: أولهما تجميع الإخوان مع بعض فى تنظيم على شكل أسر ومجموعات يتدارسون الدعوة الإسلامية ويتفقهونها، وهى تخليص الوطن الإسلامى من كل سلطان أجنبى، وإحلال الشريعة

(٢٥) ص ٥٢٩ - القضية - الجزء السادس.
(٢٦) ص ١٠١٥ - القضية - الجزء الحادي عشر.

الإسلامية محل القوانين الوضعية وقيام حكومة إسلامية تحمل لواء الإسلام وتدعو له. والهدف الثانى إعداد هؤلاء الإخوان مادياً وروحياً لتحقيق هذه الدعوة والجهاد فى سبيلها، فأما الإعداد الروحى فيكون بتربية الأفراد على أسس إسلامية. وأما الإعداد المادى فيكون بتربية أجسامهم بالرياضة. ويشمل أيضاً التدريب على السلاح، وطبعاً بنجمع اشتراكات للصرف على التنظيم. والغرض فى النهاية هو تطبيق أحكام الإسلام والحكم بما أنزل الله».

■■

فى نهاية سنة ١٩٦٠، ساءت حالة سيد قطب الصحية إلى حد كبير.. إنها نفس الفترة التى ازدهرت فيها آخر الأفكار التى انتهى إليها وعليها.

لم تكن إمكانات العلاج فى مستشفى ليمان طرة تناسب أمراضه، ولم تكن قادرة على وقف تدهور صحته.. فالرئة تتعرض لحالات من النزيف المفاجىء.. والمعدة والأمعاء تتعرض لنوبات لاتتوقف من التقلصات.. والقلب بدأ يضاعف من ضرباته إلى أن وصل لمرحلة الأزمة..

وكان أن بذلت محاولات عديدة من خارج السجن لنقله إلى مستشفى متخصص للعلاج.. لكن كل هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح.

وكان ـ بعد حد من التدهور ـ أن قررت اللجنة الطبية العليا لمصلحة السجون نقله إلى مستشفى «المنيل» الجامعى.. وفى هذا المستشفى كشفت الخبرة والأجهزة الحديثة أنه يقترب من حالة الذبحة الصدرية.. وبعد ستة شهور قضاها هناك عاد إلى مستشفى ليمان طرة.. وفى العام التالى تدهورت صحته من جديد فعاد إلى مستشفى «المنيل» الجامعى مرة أخرى لمدة ستة شهور أخرى.. رجع بعدها إلى السجن..

وخلال وجوده فى السجن، رفض سيد قطب أن يشغل نفسه بشىء آخر يبعده عن أفكاره الأخيرة.. حتى أنه رفض عرضاً وصله من سعيد رمضان للكتابة فى مجلة «المسلمون» التى كان يصدرها فى الخارج.. إن سعيد رمضان من الإخوان الذين فروا إلى الخارج، ونظموا ومولوا حملات ضد عبدالناصر والثورة.. وفى موسم الحج سنة ١٩٥٩ قابلته زينب الغزالى فى السعودية، وعرض عليها الاتصال بسيد قطب

وإقناعه بكتابة مقالات لمجلته.. ولما عادت زينب الغزالى إلى مصر أبلغت حميدة قطب برغبة سعيد رمضان، فراحت زارته فى السجن، ونقلت إليه الرسالة، فرفض، وقال: «إن الحكومة هنا فى مصر مصرحة له بطبع كتبه هنا، ولما يكتب فى مجلة «المسلمون» بتاعة سعيد رمضان ربما تمنع طبع الكتب بتاعته فى مصر».. وفى سنة ١٩٦٠ ذهبت زينب الغزالى للحج مرة أخرى وقابلت سعيد رمضان وأبلغته برفض سيد قطب.. فغضب وقال: «والله عال ياسيد، الله هو الرزاق، وهو اللى بيوكل الناس مش عبدالناصر أو الحكومة»(٢٧).

ويبدو أن رد سيد قطب أغضب سعيد رمضان، فقال لزينب الغزالى:

«قولى للمرشد فى مصر إن الإخوان فى الخارج معدوش ح يبعتوا فلوس للأسر فى مصر لأن المسألة ماتتحولش لمسألة لاجئين، ولازم إخوان مصر يقوموا بيها»..(٢٨) وتضيف زينب الغزالى: إنه «كان متضايق جداً من إخوان مصر وكان زعله إنهم مالهمش نشاط وإنهم انتهوا، وكان بيقول إيه الإخوان وإيه قيمتهم فى مصر دلوقت وأنا فهمت من هذا إن سعيد رمضان كان بيبعت فلوس مصر وعاوز يقطعها، ولما قلت للمرشد مردش علىّ وهذه عادته»(٢٩)

س: طلب منك سعيد رمضان مقالات سياسية تهاجم الحكم الحاضر فى مصر وإرسالها إليه لنشرها فى مجلة «المسلمون» التى يصدرها فى الخارج؟

جـ: لا.. هو محددليش نوع المقالات.. وأعتقد إنه كان عاوز مقالات من سيد قطب لأنه من مفكرى الإخوان وكتابهم(٣٠).

وفى أثناء وجوده فى السجن، كانت الإذاعة السعودية تذيع أحاديث مقتبسة من كتابه «فى ظلال القرآن».. وبعد أن خرج من السجن بشهرين فوجىء برسالة منها مرفق بها تحويل بمبلغ ١٤٣ جنيهاً على بنك «بورسعيد» قيمة الأحاديث التى أذيعت.. ولأنه عرف أن الإذاعة السعودية تذيع أحاديث منتظمة مقتبسة من كتابه منذ سنوات وأنها مستمرة فى ذلك، قرر أن يطالبها بكل حقوقه السابقة واللاحقة كمؤلف.. فأرسل إلى وزير الإعلام السعودى رسالة بهذا المعنى لكنه لم يتسلم أى

---

(٢٧)و(٢٨)و(٢٩)و(٣٠) أقوال زينب الغزالي– القضية – ص ٢٧٦٢، وص٢٧٦٣ – جـ٢٨ .

رد، وأنه عرف من بعض العائدين من الحج.. «أنه تقرر هناك تخصيص مكافأة عن الإذاعات السابقة تودع تحت تصرفى مع الاستمرار فى إرسال المكافآت التى تستجد بالطريقة التى أرسل بها المبلغ السابق.. إلا أن شيئاً من هذا لم يتحقق» كما قال(٣١).

ولابد أن نذكر أنه كان حريصاً على أن تطلع المباحث العامة (مباحث أمن الدولة) على كل هذه التفاصيل ـ كما أضاف ـ وكان ذلك أولاً بأول(٣٢).

■■

فى سنة ١٩٦٤ تعرض سيد قطب لانهيار حاد جديد فى صحته استدعى نقله مرة ثالثة إلى مستشفى «المنيل» الجامعى.. لكنه هذه المرة لم ينقل.. لأنه قد أفرج عنه إفراجاً صحياً.

إن كثيراً من الروايات تؤكد أن الرئيس العراقى الأسبق عبدالسلام عارف هو الذى توسط عند جمال عبدالناصر للإفراج عنه.. وتؤكد هذه الروايات أيضاً: أن الرئيس عبدالسلام عارف قد قال: إن كتاب «فى ظلال القرآن» كان أنيسه فى فترة اعتقاله.

بل.. إن سيد قطب نفسه يقول: إن الرئيس عبدالسلام عارف قام بهذه الوساطة و«نجحت والحمد لله» (٣٣).

لا ننكر أنه كان للرئيس عبدالسلام عارف عند الرئيس جمال عبدالناصر ما يجعله يقبل وساطته للإفراج عن سيد قطب، لكن هذا لايعنى أن الرئيس عبدالناصر لم ير أن حالة سيد قطب الصحية لم تعد تحتمل المزيد من الحبس.. كما أنه ـ على ما يبدو ـ تصور أن تدهور صحته لن يعيده إلى التنظيمات والحركة.. ومن المؤكد أنه لم يتخيل أنه يقود تنظيماً جديداً، وأن كتابه «معالم فى الطريق» سيكون الراية الجديدة للإخوان المسلمين، فقد أمر عبدالناصر بالإفراج عن الكتاب بعد أن طبع، وصادرته الرقابة على الكتب. وجاءته عينات وقوائم الكتب المصادرة.. ومن المؤكد أن جمال عبدالناصر تصور أن الإخوان المسلمين المفرج عنهم يمكن أن يدخلوا فى نسيج

---

(٣١) و(٣٢) سيد قطب - المصدر السابق.
(٣٣) سيد قطب - المصدر السابق.

المرحلة الجديدة، التى كان يمر بها المجتمع المصرى، كما فعل غيرهم ممن دفعوا نفس الثمن..

لقد حاول عبدالناصر أن يفتح صفحة جديدة مع الإخوان، بدأت سنة ١٩٥٦ بالإفراج عن المعتقلين الذين لم يحكم عليهم بعقوبة.. ثم حدثت إفراجات أخرى فى سنة ١٩٦٠، وسنة ١٩٦١ .. وفى سنة ١٩٦٤ كان سيد قطب يعبر بوابة السجن إلى الضوء والحرية والخضرة..

بعد أن خرج من السجن زاره سفير العراق فى القاهرة فحمله رسالة شكر إلى الرئيس عارف.. طلب فيها أن يواصل مساعيه لإنهاء قضية الإخوان بجملتها(٣٤).. وقد عرض عليه السفير العراقى ـ الذى أصبح وزيراً للتربية والتعليم ـ أن يعمل فى العراق كخبير فى التربية ومناهج التعليم.. وقد كان من رأى الشيخ عمر التلمسانى: أن يقبل ويسافر ـ بلا تردد إلى بغداد.. لكن سيد قطب آثر البقاء فى مصر «ليدافع عن رأيه»(٣٥).

وكان إصراره على البقاء فى مصر نوعاً من إرادة القدر.. الذى أفصح عما يخبئه له، بعد شهور قليلة، وقبل أن يحتفل بالسنة الأولى على عودته إلى الشمس..

---

(٣٤) سيد قطب - القضية.

(٣٥) عمر التلمساني - المرجع السابق.

٨

الطـــريـــق إلى المشنقة !

■ الإخوان يحلمون بالحياة والانتقام
■ التنظيمات الجديدة لهم
■ البحث فى الدفاتر القديمة عن زعيم
■ رأيه فى نظام حكم عبدالناصر
■ اعترافات بخط يده فى السجن الحربى
■ شمس بدران تلميذه
■ ضربة وقائية
■ تحذير منير الدالة: المخابرات المركزية اخترقت التنظيم
■ العنف ليس زوبعة فى فنجان
■ الهضيبى يرد: دعاة.. لاقضاة
■ ملاحظات على أبواب غرفة الإعدام
■ الشيخ القرضاوى: نحن لانعيش فى جاهلية

تغيرت ملامح الحياة فى مصر بينما الإخوان المسلمون فى عالم ما وراء الأسوار.

راهنت الثورة على الاستقلال الوطنى.. أصبحت شوكة فى حلق وعين وأنف الاستعمار.. كسرت احتكار السلاح.. قاومت سياسة الأحلاف.. طرحت حلم القومية العربية.. وأصبحت القاهرة عاصمة العالم الثالث.

وسط أشواك الديكتاتورية العسكرية، خرجت أزهار «الصبار».. ووسط معارك حرب «السويس» خرج عبدالناصر زعيماً شعبياً.. ووسط إحباطات الماضى، وجد الفقراء به الأرض، والمصنع، والكتاب، والقلم والكراسة، فرض القفز على الوعود الحزبية القديمة التى لم تتحقق.

ملامح جديدة، جعلت معظم فصائل القوى التقدمية ـ التى رفضت الثورة ـ تراها بعيون مختلفة.. وأصبح جمال عبدالناصر فى نظرها زعيماً وطنياً، بعد أن كان ضابطاً فاشياً.!

لم تصل الصورة الجديدة لمصر والثورة وجمال عبدالناصر إلى الإخوان المسلمين، ليس بسبب حوائط السجن السميكة وأسواره العالية فقط، وإنما بسبب رغبتهم فى الثأر والانتقام ورد الصاع صاعين أيضاً.

إن مساحة عريضة من جماهير الإخوان وجدت مصلحتها فى العهد الجديد، فراحت تؤيده وتناصره وتدافع عنه بإيمان وصدق وحماس، وبقيت القيادات الوسيطة ـ التى لم تدخل السجن ـ على عدائها.. وأضيف لها أسر وأبناء المعتقلين والمسجونين الذين نالهم جزء من العقاب، فكانوا بمثابة «خميرة» لجيل جديد، مقاتل من الإخوان.. جيل جديد كان يعد نفسه ويتحين الفرصة للانتقام والانقضاض!

وخلال فترة الإعداد لم ينقطع اتصال ذلك الجيل ـ كما عرفنا قبل صفحات ـ بقيادته الروحية، الفكرية، الجديدة؛ سيد قطب.. لم تمنع الحوائط والأسوار والأسلاك ذلك الجيل أن يعرف أفكار معلمه الجديد أولاً بأول.. بل إنه ـ كما عرفنا قبل صفحات أيضاً ـ غير أسلوب وفلسفة الإخوان، وقلبها، فكان أن تغيرت نظرتهم إلى المجتمع... وبدلاً من أن كانوا يسعون إلى إصلاحه أصبح الهدف القضاء على جاهليته!

إن الإخوان قبل أن تصلهم أفكار سيد قطب كانوا:

١ـ يتجمعون أحياناً لمساعدة أسر المسجونين والمعتقلين... وفى هذه التجمعات كانوا يفرضون ٥ ٪ من دخلهم لهذا الغرض.. كما كانت الأموال تأتيهم من بعض الإخوان الذين فروا إلى الخارج.. عند الاتصال بهم فى مواسم الحج.. وقد كانت هذه التجمعات نواة التنظيمات الجديدة التى انفجرت فيما بعد.. ويبدو أن أجهزة الأمن كانت تقف بالمرصاد لكل من يقوم بهذه المساعدة.. وكان أن اعتقلت بعض من قاموا بهذا العمل.. مثل مبارك عبدالعظيم عياد المدرس بالأزهر، الذى قال: إنه دفع عشرة قروش لمساعدة عائلات الإخوان فاعتقل، وقدم للمحاكمة أمام محكمة «الشعب» وحكم عليه بالسجن خمس سنوات(١) وبعد أن خرج من السجن لم يتردد فى أن يحول دراسته إلى متفجرات يضعها فى خدمة التنظيم الذى ينتمى إليه.

٢ـ وكانوا يحلمون بإعادة الجماعة إلى الحياة مرة أخرى.. وإثبات الوجود مرة أخرى.. وأن يؤكدوا لأنفسهم أن المحنة الأخيرة مثل المحنة التى كانت قبلها، لابد أن تمضى.. وأنهم رغم كل ما حدث لن يموتوا.. فبدأت عملية البحث عمن تبقى منهم.. وبدأت حبال الاتصال تمتد بينهم من جديد.. وكان ماكان.

٣ـ وكانوا أيضاً يفكرون فى الانتقام ورد الصاع صاعين للنظام الناصرى.. ففى سنة ١٩٥٩ كون المهندس بالمساحة محمد عبدالفتاح الشريف تنظيماً إخوانياً كان الهدف منه الانتقام.. فقط الانتقام.. وحدث أن التقى فى «لوكاندة» فى المنصورة فى صيف ١٩٦٣ بمجموعة أخرى من الإخوان.. وقال لهم:(٢)

«إننا ينبغى أن نتحرك ونثبت وجودنا ولازم نتقم من ضربة سنة ١٩٥٤، ونعمل عمليات اغتيالات سرية».

وسئل :

«طيب والبلد حايكون مصيرها إيه؟ ومين اللى حايحكم بعد كده؟!»

قال:

---

(١) ص ـ ١٠٥١ ـ جـ ١١ ملف القضية.

(٢) ص ـ ٢٠٧ ـ الجزء الثالث ـ ملف القضية.

«إحنا حالياً كإخوان ما نقدرش نحكم البلد وأى واحد ييجى ما يهمناش»!

أى أن الهدف كان ـ فقط ـ الثأر!

هكذا... كانت الصورة النفسية والتنظيمية التى كان عليها الإخوان خارج السجون خلال سنوات الخمسينيات التالية على محنة ١٩٥٤ .. رغبة فى البقاء.. دفاع عن الذات.. إحساس عارم بالانتقام.. وتجمعات صغيرة عشوائية تساعد قدر الإمكان وتشد الأزر قدر الإمكان.. لكن بعد ذلك راحت هذه التجمعات تتلامس، ثم تتشابك، ثم تتوحد.. وراحت بعد ذلك أيضاً تغير من أحلامها ومن أحزانها.. حتى أصبحت تنظيماً واحداً.. يقوده سيد قطب فى سنة ١٩٦٥ .

■■

عندما قبض على «كاتب الحسابات» على أحمد عبده عشماوى سنة ١٩٦٥، كان عمره ٢٨ سنة.. وقد راح يروى للمحقق[٣] بإسهاب كيف كون تنظيمه؟! وراحت التفاصيل تقفز من بين سطور اعترافه..

فى سنة ١٩٥٣ انضم إلى تنظيم الإخوان.. شعبة «ميت غمر».. كان عمره ١٧ سنة.. لم يكن عضواً نشطاً.. ولم تتح له ظروف الحل ذلك أيضاً.. وحتى سنة ١٩٥٧ لم يزاول أى نشاط سياسى أو دينى.. فى تلك السنة خرج من المعتقل زميله الذى ضمه إلى الإخوان، وطلب منه أن يجتمعوا بمجموعة إخوان سابقين من جديد.. والتقت المجموعة المكونة من أربعة شبان دون أن تكون لديهم صورة واضحة عن كيفية العمل.. وقبل أن يصلوا إلى هذه الصورة فر الثلاثة الآخرون خارج البلاد.. وبقى هو.

فى سنة ١٩٦٠ قرر على عشماوى بينه وبين نفسه أن يبدأ العمل «على إعادة إحياء الجماعة بحيث إنها تقوم قوية مرة أخرى»[٤].. فبدأ الاتصال ببعض من كان يعرفهم من الإخوان.. أحدهم كان «كاتم أسرار فى وزارة الحربية» وكان هناك طالب بكلية الهندسة.. وفى منتصف سنة ١٩٦٢ التقى الثلاثة أمام ضريح «أحمد

---

(٣) أقوال على عشماوى ـ ص ٢٠٤ ـ القضية.

(٤) أقوال على عشماوي ـ ملف القضية ـ ص ـ ٢٠٨ .

ماهر» فى منطقة «العباسية»، وتعاهدوا أن يكونوا نواة لتنظيم الإخوان المسلمين الجديد.. وتعاهدوا أن يعيدوا التنظيم السابق إلى الحياة.. ثم.. بدأوا النقاش.. وكانت أولى القضايا التى اختلفوا عليها ـ قبل أن يصبحوا أربعة ـ هى: نبدأ بالسلاح أم بالرجال؟.. بالتجنيد أم بالتدريب؟.. وقرروا أن يبدأوا فى كل الاتجاهات معاً.. ثم وزعوا الاختصاصات الرئيسية فيما بينهم.. ولم تمض ستة شهور حتى كان التنظيم يتسع لمجموعتين من الأعضاء.

فى صيف ١٩٦٣ جرى تعارف بين على عشماوى وعبدالفتاح الشريف لم ينته إلى شىء.. لكن.. بعد لقاء التعارف جاء شخص من طرف الشريف يبلغ عشماوى أنه «يعرف واحد ضابط من مجموعة رشاد مهنا وإنهم عاوزين يعملوا انقلاب بس مش لاقيين واحد يقتل الريس(عبدالناصر) فعاوزين واحد إخوانى يقوم بالدور ده وهم يكملوا الانقلاب لصالح الإخوان ويجيبوا رشاد مهنا رئيس جمهورية»

سأل عشماوى: «مين هم الضباط دول»؟..

فكان الرد: «مش عاوزين يقولوا أى تفاصيل»!

قال عشماوى : «المسألة بالشكل ده تبقى مفيش فيها أمان والإخوان حاتبقى مخلب قط لأن فى حالة الفشل إحنا اللى حاننضر، والضباط مش حايجرى لهم حاجة وفى حالة النجاح هم اللى حاياكلوها»(٦)..

وفى أواخر سنة ١٩٦٣، وصلت عشماوى رسالة أخرى تفيد بضرورة أن يلتقى بشخص اسمه عبدالفتاح إسماعيل.. فى مسجد بميدان «باب الحديد».

■■

بدأت صلة عبدالفتاح إسماعيل بالإخوان، بسماع خطاب للشيخ حسن البنا فى دمياط سنة ١٩٤٨، وفى سنة ١٩٥٢ افتتح شعبة للإخوان فى كفر البطيخ وأصبح سكرتيراً لها.. فى سنة ١٩٥٤ اعتقل ـ ولم يحاكم ـ ١١ شهراً .. فى فترة الاعتقال بالسجن الحربى عرف الكثير عن الجماعة.. خرج ليعمل بالتجارة.. وراح بقدر ما

---

(٥) و(٦) أقوال علي عشماوي ـ ملف القضية ـ والصفحات بالترتيب هى ص ـ ٢٠٨، ص ٢٠٨

تسمح به ظروفه يساعد أسر المعتقلين والمسجونين.. وفى سنة ١٩٥٩ كون مع عبدالفتاح الشريف تنظيمه لإحياء الجماعة.. ولمساعدة الأسر.. كانوا يجمعون النقود ويرسلونها إلى زينب الغزالى التى كانت تتصرف فيها بمعرفتها..

كانت زينب الغزالى قد تعرفت به وهى فى طريقها إلى الحج[٧] عام ١٩٥٧، على ظهر مركب أبحرت من ميناء السويس إلى ميناء جدة.. وقد وصفته بأنه «أحب شباب الإخوان إلى حسن البنا».. فى المركب طلب منها اللقاء فى «مكة» لوجه الله.. للتحدث.. وفى مكة بعد ركعتى الطواف جلسا خلف مبنى بئر «زمزم» بالقرب من مقام إبراهيم، وقال لها: إن قرار حل جماعة الإخوان المسلمين باطل.. ثم كان كلامه «عن وجوب تنظيم صفوف الجماعة وإعادة نشاطها».. وقبل العودة تبايعا «على الجهاد والموت فى سبيل دعوته».. وعندما عادا إلى مصر وجدا فى انتظارهما فتوى تقول: «إن جمال عبدالناصر ليس له أى ولاء ولا تجب له طاعة على المسلمين حيث إنه يحارب الإسلام ولايحكم بكتاب الله تعالى».. وأيد الهضيبى الفتوى، وأذن ببدء الحركة من أجل إعادة التنظيم.

التقى بعبد الفتاح الشريف ومحمد هلال سالم وحافظ الزينى وغيرهم، وتوالت الاجتماعات والمناقشات، وكلها كانت تدور حول: كيف تكون البداية؟.. وكيف يواصلون المسيرة؟

وبعد الكثير من الأخذ والرد اتفقوا على ضرورة الوقوف فى وجه الحكومة التى تمنع الإخوان عن العمل.. واتفقوا على أنهم فى حاجة لرجال يتراوح عددهم بين ١٠٠ ـ ٣٠٠ رجل... وكان أن سعى عبدالفتاح إسماعيل للقاء على عشماوى فى مسجد بميدان «باب الحديد» لتدبير الأمر.

فى الموعد المحدد التقى الرجلان.. واتفقا على «أساس أن التنظيمين يتحدا فى تنظيم واحد قيادته جماعية»[٨].. ثم أعادوا توزيع المسئوليات والاختصاصات.. وقال عبدالفتاح إسماعيل: إن هناك ٤ آلاف جنيه موجودة للتنظيم أخذها من زينب الغزالى، التى أخذتها من الإخوان فى السعودية بواسطة تجار من غزة!

---

(٧) زينب الغزالى ـ أيام من حياتى ـ ص ٣٠.

(٨) عشماوى ـ ٢٠٩ و ٢١٠ ـ التفضية.

بعد وقت قصير على هذا الاتفاق ظهر من داخل التنظيم من يعترض على أن يتولى عبدالفتاح إسماعيل القيادة، لأنه لايصلح لها.. ولأنه.. «معروف للمباحث ومتبوع».. ولأنه لابد من قيادة كبيرة لأن «أى تشكيلات من غير قيادة كبيرة حاتجيب ضرر»(٩).

وكان أن بدأ التنظيم رحلة البحث عن زعيم!

إن حسن الهضيبى المرشد العام لم تسقط بيعته، لأنها لاتسقط إلا بالموت أو بالتنازل، لكن ظروفه السياسية والصحية تمنعه من قيادة التنظيم.. لقد قال: «إنه من ناحيته لايستطيع أن يمنع أحداً يعمل للإسلام»(١٠).. لكنه هو كان غير قادر.. فمن الذى يقدر؟!

■■

يقول عبدالفتاح إسماعيل:.(١١)

- فى سنة ١٩٦٤ كنا نسير فى طريق التنظيم بخطى متعثرة بسبب قلة الخبرة وعدم وضوح خطوط عريضة لما قمنا من أجله، لذلك كان هناك شعور بالعجز عن تحمل هذه المسئولية.. ولم يعارض الجميع فى البحث عن قيادة تستطيع توجيهنا وتحمل المسئولية معنا.

وفى يوم كنا نزور زينب الغزالى فوجدنا هناك عبدالعزيز على وحرمه، فعرفتنى به، ثم قالت لى بعيدا عنه: إنه رجل مسلم ووطنى ويعرف المرشد وأنه كان وزيراً ثم استقال من أول حكومة للثورة بدون معاش وزير.. وطبعاً كان اسمه معروفاً فى تاريخ الحزب الوطنى وجماعة الشبان المسلمين.. وبعد أن تعرفت عليه، قلت له: إن الإخوان الآن بحاجة إلى قيادة.. وكان أن قال: «ربنا يفعل اللى فيه الخير»..

مجموعات من شباب التنظيم قابلوا عبدالعزيز على، وبهروا بتاريخه السرى، وبهروا أكثر عندما قال: زمان كان الواحد يموت وسره معاه، ثم أخرج من جيبه

(٩) عشماوى - ٢٠٩ و٢١٠ - القضية.

(١٠) أقوال عبد الفتاح إسماعيل - ص ٣١٤ - القضية.

(١١) عبد الفتاح إسماعيل - ص ٣٣٣ - القضية.

زجاجة صغيرة فيها مادة سامة تقتل فى ثوان.. أخذها منه أحدهم فى فرح.. وأحس الجميع أنهم عثروا على القيادة المطلوبة.. الحكمة.. الخبرة.. والسمعة الطيبة.. لكن.. سرعان ما صرف التنظيم نظره عن عبدالعزيز على، لأنه ليس إخوانيا أصلا.. ولأنه كان يريد قلب التنظيم إلى جمعية سرية.. ولأن هناك من راح يشيع أنه ـ وزينب الغزالى ـ على علاقة بالأمريكان.. ثم.. إن سيد قطب كان ـ فى ذلك الوقت ـ قد خرج.

قبل أن يخرج سيد قطب من السجن، كانت هناك اتصالات أخرى تجرى بقيادة أخرى.. وكانت القيادة الأخرى الضابط الإخوانى السابق معروف الحضرى.. طلبوا منه مراجعة برنامج وضعوه للتدريب.. لكنه قال: إنه لم يعد يثق فى الإخوان بعد ما حدث فى الماضى.. وأنه غير مستعد لأن يبذل قطرة من دمه فى سبيل هذا الشعب!

وكان أن ظل التنظيم على حاله بقيادته الجماعية ـ الخماسية، المكونة من على عشماوى وأحمد عبدالمجيد وصبرى عرفة ومجدى عبدالعزيز متولى وعبدالفتاح إسماعيل، حتى انضم إليهم سيد قطب بعد ذلك.

■■

قبل أن يخرج سيد قطب من السجن، خرجت أفكاره.. وقبل أن يلتقوا به التقوا بفلسفته.. وغيروا فلسفتهم إليها.. لم تعد القضية مساعدة المحتاجين.. ولا إعادة الجماعة للحياة.. ولا إثبات الذات والوجود.. ولا حتى الثأر والانتقام.. أصبحت القضية إعداد العدة.. إعادة نشر العقيدة.. تجهيز مجموعات فدائية ترد العدوان.. والاستعداد للانقضاض على المجتمع «الجاهلى».

لقد تغيرت فلسفة الإخوان بعد أن وصلت إليهم رسائل سيد قطب وتعليماته وبرامجه الدراسية ـ الإسلامية.. وتغيرت أيضاً نظرتهم إلى المجتمع من حولهم.

إن سيد قطب كان يرى أن نظام عبدالناصر نظام أمريكى.. وكان يعتبر هجوم عبدالناصر على أمريكا وسياستها.. ورد أمريكا عليه بقطع المعونة الاقتصادية ووقف شحنات القمح مجرد مناورات للتمويه.. ثم.. إنه وفى نفس الوقت كان يرى أن الاشتراكية العربية التى كان يطبقها، هى فى الأصل اشتراكية كارل ماركس..

والموجود منها فى مصر هو مجرد تطبيق لها محور بحسب الظروف الواقعة(١٢).. وأن معسكرات قادة الشباب والتى أصبحت فيما بعد منظمة «الشباب» غلب عليها «التوجيه الشيوعى، والاتجاه الانحلالى الخلقى»(١٣) بجانب ما «ينشر فى الصحف عموما وخاصة مجلة الطليعة، ومجلة الكاتب ومجلة روزاليوسف ومجلة صباح الخير.. مما يوجد جوا وبيئة فكرية لايقف فى وجهها التوجيه التقليدى الهزيل القليل الذى يتمثل فيه الفكر الإسلامى»(١٤).. ولابد - إذن - من ثورة فى الفكر الإسلامى للمواجهة.. وتمثلت هذه الثورة فى تغير الرؤية للمجتمع على النحو الذى ذكره.. وقد سيطرت هذه الرؤية بالفعل على الإخوان الجدد.

ففيما بعد سئل العضو مبارك عبدالعظيم:

س: ما مفهوم جماعة الإخوان فى نظام الحكم القائم؟

جـ: نظام الحكم القائم لايحكم بكتاب الله وبالتالى فهو حسب كتاب الله يمثل طاغوت. والمجتمع حاليا هو مجتمع جاهلى.

س: هل كان هذا مفهوم جميع أفراد الأسرة الذين ضممتهم؟

جـ: حسب ما شرحته لهم وحسب ما اقتنعوا به، كان هذا مفهومهم جميعاً بلا استثناء(١٥).

وفيما بعد سئل عباس حسن السيسى:

س: ما رأيك فى نظام الحكم القائم؟

جـ : النظام القائم فى مصر لايطبق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً، وإن كانت بعض مظاهر الإسلام موجودة واحنا بندعو إلى تطبيق حكم الإسلام كاملاً (١٦).

س: وما الغرض من إعادة تكوين الجماعة؟

جـ: الهدف الحقيقى هو أن تتحقق العبودية لله بمعنى الخضوع من الحاكم

---

(١٢) و(١٣) و(١٤) قطب - القضية.
(١٥) ص ١١٧٠ - القضية.
(١٦) ص ١٠١٦ - القضية.

والمحكوم لله وحده ـ وما الحكم والحكومة إلا وسيلة لتحقيق الحاكمية لله. ولكن الحكم فى حد ذاته ليس هدفاً إنما وسيلة فقط لتحقيق الحاكمية أو العبودية وهو قدر بمعنى أنه بيد الله يعطيه من يشاء.

س: أترى فى مجتمعنا الحالى أو فى الدولة عبودية لغير الله؟

جـ : أرى وأعتقد أنه إذا رضى البشر بشريعة غير شريعة الله تحكمهم فهذه عبودية لغير الله وشرك به (١٧).

وفيما بعد أيضاً سئلت زينب الغزالى:

س: ما الأسباب التى من أجلها قبلت الموافقة على قلب نظام الحكم فى مصر بالقوة المسلحة؟

جـ: لإقامة حكم القرآن!

س: وما مفهومك عن الحكم الحاضر ومدى التزامه بأحكام القرآن؟

جـ : أنا أعتقد أنه غير ملتزم لأحكام القرآن.

س: وما الأساس الذى استندت إليه للخلوص بهذا الرأى؟

جـ : لأن أجهزة الحكم فعلا لا تحكم بالقرآن، وحكم ربنا واضح، ومن يحكم بغير ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، ومعنى ذلك أن الحكم الحالى فى مصر غير ملتزم بحكم القرآن فهو حكم فاسق وظالم وده أضعف الإيمان.

س: وما مظاهر الفسق والظلم فى الحكم الحالى حسبما تقررين؟

جـ: طبيعى هذا واضح فى إباحة الخمر والقمار والربا فى البنوك اللى بيقوم عليها نظامنا الاقتصادى وعرى النساء والأفلام السينمائية والتمثيليات الخليعة والرقص والباليهات وإباحة الاختلاط فى المدارس والجامعات، وهذه هى مظاهر الجاهلية فى المجتمع بالإضافة إلى انتشار الشيوعية فى مصر والإفراج عن المسجونين منهم وتوليهم مناصب قيادية فى الدولة وخاصة أجهزة الإعلام كالتليفزيون والإذاعة والصحافة، ومش فاكرة أسماء منهم وده فيه ضرر على الشعب لأن معندهمش

(١٧) ص ١٠٧٣ ـ القضية.

اعتقاد فى الله وعشان كده مش ح يدوا الشعب المفاهيم الأساسية بل على العكس حيدوا له المفاهيم الجاهلية وأنا الآن أدعو الله بتوفيق الحكومة للعمل بالإسلام(١٨).

هكذا.. انتقلت فلسفة ورؤية وأفكار سيد قطب إلى الجماعة.. ثم.. كان أن توافق أسلوبه فى الحركة مع أسلوبهم وأن تغير التوقيت بعض الشيء.

فهذه التنظيمات منذ اللحظات الأولى لتكوينها كانت تسعى إلى العنف والاغتيالات.. وتسعى للتدريب على السلاح وعلى المصارعة.. وأقامت معسكرات خاصة لذلك فى بلطيم.. وكانت تسعى للحصول على السلاح من خارج البلاد عن طريق ليبيا والسودان وبتمويل من الإخوان الهاربين فى الخارج، ومن داخل البلاد أيضاً، خاصة الخناجر، والأسلحة البيضاء، كما كان هناك شباب عبقرى، راح يصنع المتفجرات وزجاجات المولوتوف..إلخ.. لكن سيد قطب كان يرى أن ذلك العنف المطلوب ليس أوانه.. وأن المجموعات الفدائية التى تتكون لا تتحرك إلا لرد الاعتداء على الجماعة.

إن هذه التنظيمات كانت منذ بدايتها تفكر فى اغتيال عبد الناصر.. بتفجير قطاره لاسلكيا.. بالسم.. بالقنابل.. بحزام ناسف يلف حول صدر أحدهم.. وكانت تفكر فى قلب نظام الحكم بالقوة.. وكانت تفكر فى اغتيال رءوس النظام وأركانه.. وكانت تفكر فى نسف محطات الكهرباء والقناطر الخيرية لشل حركة الدولة.. ولم يعترض سيد قطب إلا على التوقيت.. وحسب ما قاله، تحولت هذه الأفكار والخطط من

---

(١٨) يرد الناصريون على نقطة سيطرة الإعلام الشيوعى فى عهد عبد الناصر بالقول أن الأهرام كان يشرف عليه محمد حسنين هيكل وهو ليس ماركسيا وأشرف فترة على «الأخبار». وكان أنور السادات وصلاح سالم وحلمى سلام وكمال الحناوى وفتحى غانم مشرفين على دار التحرير وكان إحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وأحمد فؤاد وكامل زهيري مشرفين على دار روزاليوسف وتولى الإشراف على «أخبار اليوم» كمال رفعت وإحسان عبد القدوس.. وتولاها لمدة محددة خالد محيى الدين ومحمود أمين العالم ولم تستمر تجربتهما طويلاً. وكان محمد صبيح مشرفا على دار التعاون وكان د. أحمد حسن الزيات مسئولاً عن هيئة الاستعلامات وكان د. عبد القادر حاتم مسئولا عن التليفزيون ـ انظر عبد الله إمام ـ عبد الناصر والإخوان ـ ص ١٤٤ . وانظر ما قالته زينب الغزالى ـ ص ٢٧٧٣ ـ ملف القضية.

هجومية، انتحارية، إلى دفاعية للرد على اعتداء الدولة.. أى إذا «وقع الاعتداء كان الرد عليه من جانبها» ضرورة (١٩).

■■

خرج سيد قطب من السجن..

وعلينا الآن أن نتركه يروى ما حدث بنفسه:(٢٠)

«حدث أن التقيت بعد خروجى على التوالى بالشبان الآتية أسماؤهم - من بين من التقيت بهم من الإخوان وغير الإخوان ممن لهم اتجاه إسلامى: عبد الفتاح إسماعيل - على العشماوى - أحمد عبد المجيد» وقد عرفت بقية اسمه هنا فى السجن الحربى» - مجدى صبرى.. وعلمت منهم بعد لقاءات متعددة أنهم مكونون بالفعل تنظيما يرجع تاريخ العمل فيه إلى حوالى أربع سنوات أو أكثر، وأن أقلية منه ممن سبق اعتقالهم من الإخوان والأكثرية ممن لم يسبق اعتقالهم أو ممن لم يكونوا من الإخوان من قبل»(٢١)

(ملحوظة - ١ - تم اللقاء الأول بين سيد قطب والخمسة الكبار بترتيب بين عبدالفتاح إسماعيل وزينب الغزالى وكان فى عشته برأس البر فى حوالى يوليو ١٩٦٤ - وباتوا عنده الليلة بعد أن تناقشوا فى أفكاره)(٢٢).

ويضيف سيد قطب: إن هذا التنظيم تم بأن كلا منهم على انفراد فكر فى ضرورة العمل لإعادة حركة الإخوان.. وأنهم فى أثناء تحركهم التقوا بعضهم ببعض.. فكونوا هذا التنظيم الواحد.. ولأنهم كلهم شبان قليلو الخبرة، ولأنهم حتى الآن لم يجدوا قيادة لهم.. فقد عرضوا «أن أتولى أنا هذا بعد خروجى. ذلك أنهم بعد أن قرأوا كتاباتى وسمعوا أحاديثى معهم قد تحولت أفكارهم وتوسعت رؤيتهم إلى حد كبير.

---

(١٩) سيد قطب - القضية.

(٢٠) رغم أننا نملك النص الكامل لما قاله سيد قطب فى القضية، إلا أننا لن نعتمد إلا على الجزء المنشور فى كتاب «لماذا أعدمونى» وخاصة أن الناشر يؤكد أنه بخط يد سيد قطب، كما أنه قد تم الجزم بصحته من عدد كبير ممن يثق فيهم الناشر.

(٢١) سيد قطب - لماذا أعدمونى؟ - ص ٤٦ - فقرة ثانية.

(٢٢) أقوال عشماوى - ص ٢٥٩ - القضية.

وقد كانوا يفكرون من قبل على أساس أن المسألة مسألة تنظيم مجموعة فدائية لإزالة الأوضاع والأشخاص التى ضربت جماعة الإخوان المسلمين وأوقفت دعوتهم وإقامة النظام الإسلامى عن هذا الطريق.. أما الآن فقد فهموا أن المسألة أوسع من ذلك بكثير وأن طريق العمل طويل، وأن العمل فى المجتمع يجب أن يسبق العمل فى نظام الدولة»[٢٣].

«وكنت أمام أمرين: إما أن أرفض العمل معهم.. وهم على النحو الذى أنا مقتنع به».. و«إما أن أقبل العمل على أساس تدارك ما فاتهم من المنهج الذى أتصوره للحركة وعلى أساس إمكان ضبط حركاتهم بحيث لا يقع اندفاع فى غير محله خصوصا وبعضهم ينوى فعلاً».. وقررت اختيار الطريق الثانى والعمل معهم وقيادتهم[٢٤].

«ولكنى قلت لهم مخلصا فى ذلك: حقيقة أن الحركة الإسلامية فى الظروف الحاضرة تحتاج إلى نظرة واسعة وفهم ووعى الإسلام ذاته وتاريخ حركته وكذلك فهم للظروف العالمية المحيطة بالإسلام وبالعالم الإسلامى.. إلخ. وأنتم تقولون إنكم لم تجدوا قيادة، وتريدون أن أقوم لكم بهذا الدور.. ولكننى كما تعلمون رجل مريض بأمراض مستعصية على الطب حتى الآن وخطيرة والآجال نعم بيد الله ولكن قدر الله يتم بأسباب يوجدها الله.. لذلك يجب أن تعتمدوا على الله وتحاولوا أن تكونوا أنتم قيادة ومهمتي الحقيقية معكم هى بذل كل ما أملك لتوعيتكم وتكوينكم العقلى لتكونوا قيادة»[٢٥].. ثم راح يدرس معهم تاريخ الحركة الإسلامية، خلال لقاءاته معهم التى كانت تتم مرة كل أسبوع.. أو أسبوعين أو حسب الظروف.

«كنا قد اتفقنا على استبعاد استخدام القوة كوسيلة لتغيير نظام الحكم أو إقامة النظام الإسلامى، وفى الوقت نفسه قررنا استخدامها فى حالة الاعتداء على هذا التنظيم الذى سيسير على منهج تعليم العقيدة وتربية الخلق وإنشاء قاعدة للإسلام فى المجتمع، وكان معنى ذلك البحث فى موضوع تدريب المجموعات التى تقوم برد الاعتداء وحماية التنظيم منه، وموضوع الأسلحة اللازمة لهذا الغرض وموضوع

(٢٣) سيد قطب ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧ ـ فقرة أولى.
(٢٤) المرجع السابق ـ ص ٤٧ ـ فقرة أخيرة.
(٢٥) المرجع السابق ـ ص ٤٨ ـ فقرة أخيرة.

المال اللازم كذلك[٢٦].

«فأما التدريب فقد عرفت أنه موجود فعلا من قبل أن يلتقوا بى، لكن لم يكن ملحوظا فيه أن لا يتدرب إلا الأخ الذى فهم عقيدته ونضج وعيه، فطلبت منهم مراعاة هذه القاعدة، وبهذه المناسبة سألتهم عن العدد الذى تتوافر فيه هذه الشروط عندهم، وبعد مراجعة بينهم ذكروا لى أنهم حوالى السبعين، وتقرر الإسراع فى تدريبهم نظراً لما كانوا يرونه من ملل يتسرب إلى نفوس الشباب إذا ظل كل زادهم هو الكلام من غير تدريب أو إعداد..

«وأما السلاح فكان موضوعه له جانبان:

الأول: أنهم أخبرونى أنه نظرا لصعوبة الحصول على ما يلزم منه حتى للتدريب فقد أخذوا فى محاولات لصنع بعض المتفجرات محليا، وأن التجارب نجحت وصنعت بعض القنابل فعلاً ولكنها فى حاجة إلى التحسين والتجارب المستمرة[٢٧]

(ملحوظة ـ ٢ ـ يتضمن ملف القضية معلومات مذهلة عن كيف تمكن أعضاء التنظيم المتخرجون فى كليات العلوم من تحضير مواد مفجرة ومفرقعة بجنيهات قليلة اعتماداً على مواد كيماوية متوافرة فى الأسواق مثل نترات النوشادر ـ وقد شرح ذلك بالتفصيل مبارك عبدالعظيم محمود ـ انظر ملف القضية ـ الجزء الثانى عشر)

«الثانى: أن على عشماوى زارنى على غير ميعاد وأخبرنى أنه كان منذ حوالى سنتين قبل التقائنا قد طلب من أخ فى دولة عربية قطعاً من الأسلحة، حددها له فى كشف، ثم ترك الموضوع من وقتها، والآن جاءه خبر منه بأن هذه الأسلحة سترسل ـ وهى كميات كبيرة حوالى عربية نقل، وأنها سترسل عن طريق السودان مع توقع وصولها خلال شهرين..[٢٨]

«ولما كان الخبر مفاجئاً فلم يكن ممكنا البت فى شأنه حتى نبحثه مع الباقين.. فاتفقنا.. على موعد لبحثه معهم.. وفى اليوم التالى ـ على ما أتذكر ـ وقبل الموعد جاءنى الشيخ عبدالفتاح إسماعيل وحدثنى فى هذا الأمر، وفهمت أنه عرفه طبعاً من

(٢٦) المرجع السابق ـ ص ٤٩ ـ فقرة أولى.
(٢٧) ص ـ ٥٠ ـ فقرة ثالثة.
(٢٨) ص ـ ٥٠ ـ فقرة أخيرة.

«على عشماوى» وكان يبدو غير موافق عليه ومتخوفاً منه، وقال: «لابد من تأجيل البت فى الموضوع..»(٢٩)

(ملحوظة ـ ٣ ـــ دون الدخول فى التفاصيل ذكر سيد قطب أنه بعد أن تأكد أن ثمن السلاح من أموال إخوانية واشترى وشحن بطريق مأمون، قال لهم إنه يعرف من يستطيعون مساعدتنا فى نقل مثل هذه الأشياء، وكان يقصد اثنين من إخوان ليبيا تعرف عليهما من قبل، يملكان الوسائل الممكنة لنقل السلاح)(٣٠)

تحدث سيد قطب أيضاً عن مصادر التمويل وعن علاقته بالإخوان المسلمين فى عدد من البلاد العربية.. ثم.. تحدث عما سمى «خطة رد الاعتداء على الحركة الإسلامية».. فقال:(٣١) «كما تقدم كنا قد اتفقنا على مبدأ عدم استخدام القوة لقلب نظام الحكم، وفرض النظام الإسلامى من أعلى واتفقنا فى الوقت ذاته على مبدأ رد الاعتداء على الحركة الإسلامية». التى هى منهجها إذا وقع الاعتداء عليها بالقوة.

«وكان أمامنا المبدأ الذى يقرره الله سبحانه: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» وكان الاعتداء قد وقع علينا بالفعل فى سنة ١٩٥٤ وفى سنة ١٩٥٧ بالاعتقال والتعذيب وإهدار كل كرامة آدمية فى أثناء التعذيب ثم القتل وتخريب البيوت وتشريد الأطفال والنساء.. ولكننا كنا قد قررنا أن هذا الماضى قد انتهى أمره فلا نفكر فى رد الاعتداء علينا الآن، إنما المسألة هى مسألة الاعتداء علينا الآن وهذا هو الذى تقرر الرد عليه إذا وقع..

«لم يكن فى أيدينا من وسائل رد الاعتداء علينا التى يبيحها لنا ديننا إلا القتل والقتال: أولا: لرد الاعتداء حتى لايصبح الاعتداء على الحركة الإسلامية وأهلها سهلا يزاوله المعتدون فى كل وقت.

«ثانيا: لمحاولة إنقاذ وإفلات أكبر عدد ممكن من الشباب المسلم النظيف

«لهذه الأسباب مجتمعة فكرنا فى خطة ووسيلة ترد الاعتداء.

---

(٢٩) ص ـ ٥١ ـ فقرة أولى.
(٣٠) ص ـ ٥٢ ـ فقرة ثانية.
(٣١) راجع ص ٥٤ ـ ٦٥ ـ المرجع نفسه.

و«الذى قلته لهم: إننا إذا قمنا برد الاعتداء عند وقوعه فيجب أن يكون ذلك ضربة رادعة توقف الاعتداء وتكفل سلامة أكبر عدد من الشباب المسلم».

«ووفقا لهذا جاءوا فى اللقاء التالى ومع أحمد عبدالمجيد بقائمة اقتراحات تتناول الأعمال التى تكفى لشل الجهاز الحكومى عن متابعة الإخوان فى حالة إذا ما وقع الاعتداء عليهم..

«وهذه الأعمال هى الرد فور وقوع اعتقالات لأعضاء التنظيم بإزالة رؤوس فى مقدمتها رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ومدير مكتب المشير ومدير المخابرات ومدير البوليس الحربى، ثم نسف لبعض المنشآت التى تشل حركة المواصلات فى القاهرة لضمان عدم تتبع بقية الإخوان فيها، وفى خارجها كمحطة الكهرباء والكبارى، وقد استبعدت فيما بعد الكبارى».

(ملحوظة ٤ ـ قال على عشماوى إن الهدف من القيام بهذه العمليات انهيار النظام القائم فى البلاد، وأضاف أنهم لم يبحثوا من سيتولى السلطة فى البلد ـ ص ٢٦٢ من القضية. ويذكر عبدالفتاح إسماعيل: إن على عشماوى قال له مرة إن سيد قطب قال على شمس بدران إنه من النوع العنيد و«شخصية» ويعرف ذلك من أيام ما كان طالبا عنده فى المدرسة ـ ص ٤٤٦ من القضية).

■■

تلاحقت الأحداث بسرعة مذهلة بعد ذلك.

وطبقاً لما سجله سيد قطب بخط يده، وما اعترف به غيره:

١ـ إن إمكانات التنظيم لم تكن تكفى للأعمال التى اتفقوا عليها، ومن ثم وافق سيد قطب على الإسراع فى التدريب بعد أن كان يرى من قبل تأجيله، ولايتحمس له باعتباره الخطوة الأخيرة وليس الخطوة الأولى. «سيد قطب ـ ص ٥٦».

٢ـ سرت شائعات فى البلاد تقول إن الإخوان ينظمون أنفسهم وأنهم انتخبوا مرشداً جديداً لهم، قيل إنه مصطفى الملا، وقيل إنه منير وقيل إنه سيد قطب.. وقد نسب سيد قطب هذه الشائعات للشيوعيين حتى يستفزوا الحكومة لتضرب الإخوان

من جديد. «سيد قطب ص ٥٦ ـ وعلى العشماوى ص ٢٢٢».

٣ـ حذر منير الدالة سيد قطب من «شبان متهورين يقومون بتنظيم، ويعتقد أنهم دسيسة على الإخوان بمعرفة قلم مخابرات أمريكى عن طريق الحاجة زينب الغزالى وأن المخابرات كاشفاهم» (سيد قطب ـ ص ٥٨).. وعرف سيد قطب أنهم فى مكتب المشير بيفكروا إذا كانوا «يضربوا الإخوان والا يستنوا شوية»، فرد عليه على عشماوى: «إيه دخل مكتب المشير فى هذا؟ أنا أفهم أن المباحث أو المخابرات هى اللى تفكر فى هذا العمل».. فقال: «والله أنا وصلنى كده».. و«على أى حال إما الخبر مكذوب أو الأجهزة بايظة فتسرب منها هذا الخبر».. وكان من رأيه أن من المحتمل جداً أن تضرب الحكومة الإخوان «ولازم نعمل عمل كبير ولايبقاش زوبعة فى فنجال، إذا حسينا أن التنظيم انكشف أو إذا الحكومة حاولت تقبض على الإخوان مرة أخرى».. و«لانكون سلبيين خالص وما نعملش حاجة».. «على عشماوى ص ٢٢٣».

٤ـ قبل أن يكمل التنظيم تدريبه وتسليحه، قامت الحكومة بضربه ضربة وقائية، واعتقلت أفراده واحداً بعد الآخر.. تحركت أجهزة الأمن لإجهاض التخطيط قبل تنفيذه.. قبض على محمد قطب.. ثم على سيد قطب، وعبدالفتاح إسماعيل، ثم قبض على على عشماوى الذى أدلى باعترافات كاملة، جعلت التنظيم كله يسقط كثمرة ناضجة فى حجر النظام.. وحاصرت قوات من الجيش قرية «كرداسة» بحثاً عن عدد من أعضاء التنظيم وبحثاً عن السلاح وكان أن وقعت تجاوزات لامبرر لها تتخطى مستوى الخشونة.. وفى ٣٠ أغسطس ١٩٦٥، كشف عبدالناصر ـ فى خطاب ألقاه فى موسكو التى كان يزورها ـ عما كان سيحدث.. وفيما بعد اعتبر الإخوان كشف التنظيم فى موسكو دليلاً على أن ما حدث كان مدبراً بمعرفة الشيوعيين.

٥ـ ثم.. كانت عمليات التفتيش القاسية بحثاً عن باقى المتهمين، كما حدث فى بولاق فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر.

٦ـ ثم .. كانت حملات المؤسسة الدينية ورجال الأزهر على الإخوان.. فقد قال شيخ الأزهر حسن مأمون فى حديث للإذاعة: إن الإخوان بما فعلوه أعادوا إلى الأذهان إرهاب القرون الوسطى.

٧ ـ ثم .. كانت جولة جديدة من المحاكمات قادها «الدجوى».

■■

رغم كل الصور البراقة التى كانت على سطح الحياة فى مصر، كان عام ١٩٦٥ .. عام هذه الأحداث، عاما مناسباً لإحراج نظام عبدالناصر.. الجيش فى اليمن.. أجهزة الأمن تتصارع فيما بينها.. المشير عبدالحكيم عامر أصبح مركزا للقوى من الصعب إزاحته.. كم هائل من التوتر فرضه القريبون من السلطة فى صراعهم الخفى عليها، وصلت أنفاسه إلى الشارع.. فى ذلك الوقت كان الإخوان يحلمون بقلب نظام الحكم واغتيال أكبر رموزه، جمال عبدالناصر.

وكالعادة انقسم الطرفان واختلفا فى تفسير ما حدث.. الناصريون يؤكدون أنها مؤامرة لقلب نظام الحكم، ونسف محطات الكهرباء، وتوقف المستشفيات، وتعطيل المصانع، وانتشار الأوبئة.. باختصار «اغتيال لشعب ولحريته ولحياته ولتقدمه بل أيضاً لمعاشه اليومى(٣٢)». والإخوان يصرون على أن المؤامرة «مفبركة» من جهاز المخابرات الحربية (بقيادة شمس بدران) لمزيد من القمع والإرهاب، ولتقديم «كبش فداء» جديد لعبدالناصر يعيد التفاف الجماهير حوله.. أكثر من ذلك يؤكدون أن إخراج سيد قطب من السجن كان تخطيطاً من المخابرات ليسهل اغتياله، وأن هذه الخطة تشمل عبدالفتاح إسماعيل أيضاً (٣٣).

ولأن من عاشر المستحيلات إقناع كل طرف بحجة الطرف الآخر، فإننا وبأعلى مستويات الموضوعية الممكن توافرها نرى أن هناك حقائق لايمكن إغلاق ملف القضية دون رصدها.

---

(٣٢) انظر رسالة عبد الحكيم عامر إلى كمال الدين حسين ـ عبد الله إمام ص ١٣٧ .
(٣٣) زينب الغزالى ـ ص ٣٩ .

١ـ إن من المؤكد أنه كان هناك تنظيم إخوانى يؤمن بالعنف ويسعى إلى قلب النظام بالعنف والتخريب. وأن هذا التنظيم كان يتمتع بطموح يفوق إمكاناته.. ويرسم لنفسه خطة لايمكن أن يقدر عليها ولو كان يملك أضعاف ما كان يملك من رجال وإمكانات.

٢ـ إن سيد قطب كان الزعيم الروحى للتنظيم فى السجن والزعيم الفعلى له بعد الخروج من السجن.. وسواء كان قد أشار إلى المواجهة المسلحة لرد الاعتداء أو لعدم السلبية عند القبض على أعضاء التنظيم، فإن هذا لاينفى أن كل عناصر التنظيم التى يجرمها القانون كانت متوافرة: السلاح. التدريب. التمويل الخارجى. المفرقعات. الرجال والخطة.

٣ـ إن التعذيب الذى وقع على بعض المتهمين فى السجن الحربى لم يكن له ما يبرره.. وقد أفرط الإخوان فى نشر الكتب التى تصف ما حدث، وهذا حقهم، كما أن القضاء حكم لبعضهم بالتعويض، وعاقب من ارتكبوا هذه الجريمة، فيما بعد.

٤ـ إن من المؤكد أن جمال عبدالناصر قد استفزه أن يقود سيد قطب التنظيم قبل أقل من سنة على الإفراج عنه، وضاعف من استفزازه أنه أصبح المرشد الحقيقى للإخوان، أو أجيالهم الجديدة وإن لم يحصل على البيعة ولانستطيع بالقطع أن نحكم على مدى موضوعية المحاكمة وإن كان قاضيها قد تعرض إلى كثير من الطعن فى أحكامه، كما أننا لانستطيع أن نقبل بما قاله الإخوان من أن عبدالناصر أفرج عن سيد قطب ليتآمر على اغتياله، وأنه أفرج عنهم ليعذبهم من جديد، ويعتقلهم من جديد، وخاصة أنه بالقطع أفرج عن سيد قطب بعد أن تدهورت حالته الصحية، وخاصة أن الحكومة كانت قد انتهت من وضع قانون خاص للموظفين من الإخوان الذين فصلوا، للعودة إلى وظائفهم مع احتساب مدة السجن فى الترقى والأقدمية والمعاش.

٥ـ إن العنف الذى عومل به الإخوان بعد سنة ١٩٥٤ هو أحد الأسباب الهامة وراء محاولة التنظيم الجديد، للسعى وراء الاغتيالات، وقلب نظام الحكم.. إن العنف الرسمى يؤدى إلى عنف شعبى.. مع أن العنف الشعبى يجب أن يقابل بالقانون والمحاكمات العادلة.. لكنها حقيقة لاتفهمها النظم دائماً.

مرة أخرى حشرت أجيال جديدة من الإخوان فى السجون.

مرة أخرى تعرض الإخوان للظروف الصعبة وراء الأسوار.

مرة أخرى كان البحث عن الخلاص من المحنة الجديدة، حتى ولو أدى الأمر للوقوع فى محنة غيرها.

ومرة أخرى ولد جيل جديد من الشباب السلفى.. ولد فى السجون.. وصهرته المعاناة.. جيل قوت الظروف استعداده للتضحية.. جيل مختلف عن أجيال الإخوان المسلمين التى سبقته.. جيل اعتبر حسن البنا أياماً وانقضت.. زمانا ومضى.. جيل اعتبر أستاذه ومعلمه وقائده ومثله الأعلى سيد قطب.. إنه الأستاذ.. الذى أصبح أبرز معالم الطريق الذى عليهم السير فيه.

لقد دخلوا كما يقول هيكل(٣٤) إلى إطار الفكر المطلق «حيث لامساومة ولاتعايش بين مجتمعين، وعقيدتين، لم يعد أمامهم إلا الجاهلية والإسلام، وإلا حاكمية البشر تعترض الطريق إلى حاكمية الله».

إن هذا الفكر المطلق راح ـ بعد ذلك ـ يتجاوز المراحل التى وصل إليها الإخوان.. وكانت خطتهم العامة التى سار عليها أولئك الشبان تنقسم إلى مرحلتين.. مرحلة الاستضعاف ثم مرحلة الجهاد.. ومرحلة الاستضعاف هى مرحلة ينسحبون فيها من مجتمع الجاهلية الذى يكفرونه.. وهى مرحلة ـ فى تصورهم ـ مشابهة لمرحلة الرسول( ) فى مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة وفيها كانت الدعوة سرية، والتعامل مع المجتمع حراماً، وفيها كان المسلمون يعيشون وكأنهم فى «جيوب»، أو «جماعات» منفصلة.. وفيما بعد عبر عن هذه المرحلة بتطرف تنظيم جماعة المسلمين الذى اشتهر باسم جماعة التكفير والهجرة.. أما المرحلة الثانية فهى مرحلة الجهاد.. أى مواجهة المجتمع الجاهلى، الكافر بعد التمكن من القوة القادرة على إزاحته.. وفيما بعد عبرت تنظيمات مختلفة عن هذه المرحلة لعل أبرزها تنظيم «الجهاد».

ودون إرهاق للذهن فهم التلاميذ ما قاله الأستاذ حسب تصور كل منهم الخاص.. وحسب ثقافته.. وراح كل منهم يضع كتاباً يفرضه كمنهج على أتباعه.

---

(٣٤) هيكل ـ خريف الغضب..

ولم يكتف أولئك الشبان بتكفير النظام القائم، وتكفير الحاكم والخروج عليه، وإنما آمنوا بجواز قتاله، وجواز الاستيلاء على أموال الدولة ومحاربة سلطاتها واعتبار الخدمة فى قواتها مكروها يجب تفاديه، بل هى أيضاً نوع من الكفر لأن الطاعة ليست واجبة إلا لإمام «أو لأمير الجماعة» ولايمكن أن تكون هناك طاعة لإمارة الكفر والسفه والجاهلية كما يقولون، ومن ثم لابد من العنف والثورة والجهاد وذلك إلى أن يصلوا إلى المجتمع الإسلامى كما يتخيلونه.

ودون إرهاق للذهن أيضاً، راح الجيل السلفى الجديد يطبق تلك النصوص على الحياة حولهم، وراحت فتواهم تمتد إلى كل الأشياء وكل البشر.. فالمسلمون عندهم الآن (كما يقول د. كمال أبو المجد) ارتدوا عن الإسلام لأنهم ينطقون بشهادة لايعرفون معناها ولايعملون بمضمونها، ومهما صلوا وصاموا وحجوا وزعموا أنهم مسلمون، فلن يغير ذلك من كفرهم شيئاً.. المجتمعات المعاصرة عندهم «مجتمعات جاهلية كافرة.. والجاهلية ليست حالة دينية إنما حالة اجتماعية» .. «ومن ثم من لم يكفر الكافر فهو كافر».. «ومن يخرج عن الجماعة يستباح دمه وماله».. لاانتخابات ولابرلمان ولا ديمقراطية لأنها ليست فى القرآن.. المساجد القائمة «معابد للجاهلية» لأن الذين يصلون فيها ارتدوا عن الإسلام و«الصلاة معهم شهادة لهم بالإيمان مع أنهم كفرة».. وتحت شعار «تحطيم المجتمع الجاهلى» تتحول هذه الأفكار إلى عنف.. مع أن الرسول (ﷺ) أوصى جيوشه المتجهة للحرب فى الشام قائلاً: «لاتقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولاتخربوا عامراً ولا تعقروا نخلاً أو تحرقوه»...(٣٥)

■■

من جديد..

وداخل السجون أيضاً..

وقع الخلاف بين أولئك الشبان وزعماء الإخوان.. أو بين تلاميذ حسن البنا وتلاميذ سيد قطب أو بين المعتدلين والمتطرفين..

---

(٣٥) د. كمال أبو المجد ـ مجلة «العربى» ـ الكويت ١٩٨١ .

والخلاف بين الفريقين، كان ولايزال يبدأ من مبدأ «التكفير» وينتهى عند استخدام أسلوب «العنف».. ويعترف عمر التلمسانى: أن «فكرة التكفير رسخت فى ذهن بعض الشباب وآمنوا بها فى اقتناع غريب».. ويؤكد التلمسانى: إن هذه الفكرة اتسع نطاقها فى معتقل مزرعة ليمان طرة «حتى بلغت أخبارها فضيلة الأستاذ الهضيبى رضوان الله عليه، إذ كان معتقلاً هناك فاستدعى رؤساءهم وناقشهم فى الفكرة، وكانت الجلسة تنتهى بما يشعر باقتناعهم بكلامه، وما إن يخرجوا من عنده حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه، حتى يئس من إقلاعهم عن تلك الفكرة، فكتب كتابه «دعاة لاقضاة» مستعيناً بابنه مأمون الهضيبى المستشار فى محكمة الاستئناف العالى والأستاذ مصطفى مشهور، وكان الحق ما رآه لأن تكفير المسلم ليس بالأمر الهين فى العقيدة الإسلامية مهما بلغ المسلم فى انحرافه وقسوته»(٣٦).

نستطيع الآن أن نتعرض لأهم ما جاء فى كتاب الهضيبى «دعاة لاقضاة» حتى نكمل الصورة التى نحاول بإخلاص أن نرسمها(٣٧).

١ـ إن حكم الناطق بشهادتى: أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن نعتبره مسلماً تجرى عليه أحكام المسلمين وليس لنا أن نبحث فى مدى صدق شهادته. إذ أن ذلك متعلق بما استشعره واستيقنه بقلبه وهو أمر لاسبيل للكشف عنه والتثبت منه، ولكن ذلك من شأن الذى يعلم السر وأخفى. فمن استيقن قلبه ما نطق به لسانه، كان عند الله مسلماً مؤمنا ونفعه ما تلفظه بلسانه(٣٨).

٢ـ إن حكم الله تعالى أن يعتبر الشخص مسلماً فى ذات اللحظة التى ينطق فيها بالشهادتين ولايشترط أن تكون أعمال الشخص مصدقة لشهادته حتى يحكم بإسلامه، وأنه حال نطقه بالشهادتين يلزمنا اعتباره مسلماً ويحرم علينا دمه

---

(٣٦) عمر التلمسانى ـ ذكريات لا مذكرات.

(٣٧) حسن الهضيبى ـ دعاة .. لا قضاة ـ طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ـ ١٩٧٧ ويلاحظ أن الكتاب عبارة عن بحوث فقهية يرد بها على أبو الأعلى المودودى صراحة.. وعلى غيره دون تصريح أو حتى تلميح.

(٣٨) الهضيبى ـ ص ١٨ .

وماله[٣٩]. ومن تعدى ذلك إلى القول بفساد عقيدة الناس بما أخرجهم عن الإسلام قلنا له: إنك أنت الذى خرجت على حكم الله بحكمك هذا الذى حكمت به على عموم الناس[٤٠].

٣ـ ليست المعالنة بالمعاصى وشيوعها، وليست الظواهر العامة التى ركن إليها دعاة التكفير مما يجيز لهم شريعة الله أن تصدر حكماً على عموم الناس بخروجهم من الإسلام إلى الكفر أو بعدم دخولهم الإسلام أصلاً رغم النطق بالشهادتين[٤١]..

٤ـ إن لفظة الحاكمية لم ترد بأية آية من الذكر الحكيم ولا فى حديث من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام[٤٢] والغالبية العظمى تنطق بالمصطلح وهى لاتكاد تعرف من حقيقة مراد واضعيه إلا عبارات مبهمة سمعتها عفوا، هنا وهناك، أو ألقاها إليهم من لايحسن الفهم أو يجيد النقل والتعبير[٤٣].. وهكذا يجعل بعض الناس أساسا لمعتقدهم مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله أو سنة الرسول، أساساً من كلام بشر غير معصوم، وارد عليه الخطأ والوهم، علمهم بما قالوا فى الأغلب الأعم علم مبتسر مغلوط[٤٤].

٥ـ إن الحكم لله تعالى وحده وأنه سبحانه وتعالى وحده صاحب الأمر والنهى دون سواه، هذه عقيدتنا[٤٥] ولكن الله عز وجل قد ترك لنا كثيراً من أمور دنيانا ننظمها حسبما تهدينا إليه عقولنا فى إطار مقاصد عامة وغايات حددها لنا سبحانه وتعالى وأمرنا بتحقيقها.. وبشرط ألا نحل حراما أو نحرم حلالا. ذلك أن الأفعال فى الشريعة إما فرض أو حرام أو مباح[٤٦]. ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات

---

(٣٩) الهضيبى ـ ص ٤٣ .
(٤٠) الهضيبى ـ ص ٤٦ .
(٤١) الهضيبى ـ ص ٤٦ .
(٤٢) الهضيبى ـ ص ٨٣ .
(٤٣) الهضيبى ـ ص ٨٤ .
(٤٤) الهضيبى ـ ص ٨٤ .
(٤٥) الهضيبى ـ ص ٨٧ .
(٤٦) الهضيبى ـ ص ٩٦ .

تنظيم المرور من تشريع الله عز وجل، وفى هذا كفاية لإبطال قول من زعم أن التشريع صفة من صفات الله عز وجل، وأن من وضع تشريعا فقد انتزع لنفسه إحدى صفات الله وجعل نفسه ندا لله تعالى خارجاً على سلطانه(٤٧).

■■

فيما بعد..

رد الشيخ د. يوسف القرضاوى على الأفكار الأساسية لسيد قطب بعد أن عرضها..

وكان أبرز ما قاله فى التكفير والجاهلية(٤٨):

«إن المجتمع الذى نعيش فيه الآن ليس شبيهاً بمجتمع مكة الذى واجهه النبى (ﷺ) حين نشأة الدعوة الإسلامية الأولى.

«ذلك كان مجتمعاً جاهلياً صرفاً، أعنى مجتمعاً وثنياً كافراً، لايؤمن بـ«لاإله إلا الله» ولا بأن «محمدا رسول الله» ويقول عن القرآن: سحر وافتراء وأساطير الأولين.

«أما مجتمعنا القائم فى بلاد المسلمين، فهو مجتمع خليط من الإسلام والجاهلية، فيه عناصر إسلامية أصيلة، وعناصر جاهلية دخيلة.

«فيه أناس مرتدون صراحة....

«وفيه منافقون يتظاهرون أمام الشعب بالإسلام، وباطنهم خراب من الإيمان، فلهم حكم المنافقين.

«فيه ـ عدا هؤلاء وأولئك ـ جماهير غفيرة ـ تكون أكثرية الأمة الساحقة، ملتزمة بالإسلام، وجل أفرادها متدينون تدينا فرديا، يؤدون الشعائر المفروضة، وقد يقصرون فى بعضها، وقد يرتكب بعضهم المعاصى، ولكنهم فى الجملة ـ يخافون الله تعالى،

---

(٤٧) الهضيبى ـ ص ٩٧ .

(٤٨) د. يوسف القرضاوى ـ ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب ـ جريدة «الشعب» ـ القاهرة ـ ١١ و١٨ و٢٥ نوفمبر ١٩٨٦ .

ويحبون التوبة، ويتأثرون بالموعظة، ويحترمون القرآن ويحبون الرسول، إلى غير ذلك، مما يدل على صحة أصول العقيدة لديهم.

«ولهذا يكون من الإسراف والمجازفة الحكم على هؤلاء جميعا بأنهم جاهليون كأهل مكة الذين واجههم الرسول في فجر دعوة الإسلام، وأن واجبنا ألا نعرض عليهم إلا العقيدة، والعقيدة وحدها، حتى يشهدوا أن «لا إله إلا الله» بمدلولها الحقيقى، وألا نستجيب لاستفتاءاتهم فى شأن من شئون المجتمع الإسلامى.

«فالواقع كما قلنا أن هؤلاء غير مجتمع مكة المشرك، فكثير منهم يصلون ويصومون، ويزكون ويحجون، وكثير ممن قصر فى هذه الفرائض لا ينكرها، ولا يستخف بها، وهى أركان الإسلام ومبانيه.

«فهل كان مجتمع مكة يلتزم شيئاً من هذه الأركان؟!

«ثم هم يتزوجون ويطلقون، ويرثون ويورثون، ويوصون، على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله .

«ولايزال فى بعض البلاد من يقيمون الحدود الشرعية من الجلد والقطع والقتل ونحوها، ولاتزال القاعدة العريضة فى البلاد الأخرى تطالب الحكومات بإقامتها وتطبيق شرع الله تعالى.

«فهل ياترى إذا استفتى هؤلاء فى شأن من شئون الإسلام التى يمارسونها بالفعل ألا نفتيهم ونبين لهم؟

«إنهم يسألون فى كل صغيرة وكبيرة تتعلق بشئون العبادات، وما يسمى بـ «الأحوال الشخصية» ومن واجبنا أن نبين لهم ولا نكتم عنهم علما نافعا فيلجمنا الله بلجام من نار يوم القيامة.

«وهم يسألون أيضاً عما يعرض لهم فى حياتهم الشخصية والاجتماعية، فهم مسوقون إلى أن يتعاملوا مع البنوك، وأن يؤمنوا على المتاجر والمعامل والممتلكات، ويسألون عن حكم الشرع فى ذلك كله.

«هل نصم آذاننا عن هؤلاء المسلمين.. حتى لو سألونا عن الصلاة والزكاة والصيام؟

«أم نجيبهم عن أحكام العبادات وما يتعلق بها، ولا نجيبهم عن أحكام المعاملات؟».

■ ■

قبل أن يمر العام على كشف تنظيم ١٩٦٥، حوكم سيد قطب ومن معه، وكان أن حكم عليه ـ هو ومحمد يوسف حواش وعبد الفتاح إسماعيل ـ بالإعدام.. وبعد أن فشلت محاولات عديدة من بعض الدول الإسلامية لإنقاذهم من حبل المشنقة، نفذ الحكم.

وقبل إعدامه نشرت الصحف صورة له وهو يبتسم ابتسامة باهتة.. وفيما بعد كانت هذه الصورة، الصورة المفضلة للصحف، تنشرها إذا ما جاءت سيرته!

ومنذ لحظة الإعدام، وحتى الآن يحمل سيد قطب لقب شهيد..

ولأنه أعدم فقد أصبح بطلا.. ونموذجا.. وأستاذا.. ومعلما.. وبشرا غير البشر.

ولأن حياته كانت الثمن. فإن أفكاره وتعاليمه راحت تجد من يؤمن بها.. دون نقاش.. وبعد عزلها عن الظروف وبعد تجريدها من ظروفه الإنسانية.

ثم...

راحت الدوائر تدور.

■ ■

بعد أن قرأت..

إلي هنا انتهي الكتاب

إلي هنا انتهي الفصل الأول من هذه القصة المثيرة .

أما الفصل الثاني فلم يكتب بعد .

والفصل الثانى يبدأ بعد رحيل سيد قطب ، ويروى تأثير أفكاره على الذين حفظوها وآمنوا بها وحولوها من مطبوعات إلي متفجرات .

ولا مفر من الانتظار فترة من الزمن حتى تتاح مادة كتاب جديد تناسب هذا الفصل ويمكن أن يختتم بها هذا الكتاب .

عادل حمودة

شخصيات في الكتاب

أحمد حسين (دكتور)

ولد عام ١٩٠٢ .. تولى وزارة الشئون الاجتماعية فى الفترة من ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٢ .. سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٥١، وعاد منها ليقدم استقالته من حكومة الوفد التى كانت فى السلطة.. كون «جمعية الفلاح» بدعم معنوى هائل من أجهزة الإعلام الأمريكية.. عين سفيراً لمصر فى واشنطن من ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٤ .. زوجته السيدة عزيزة حسين التى تخرجت مثله فى الجامعة الأمريكية، وهى رئيسة جمعية من جمعيات تنظيم الأسرة التى تتلقى دعماً مالياً كبيراً من المعونة الأمريكية.

جمال عبدالناصر

ولد بمدينة الإسكندرية فى ١٥ يناير ١٩١٨ .. اعتقل وهو طالب بالمدرسة الثانوية بسبب اشتراكه فى مظاهرة ضد معاهدة ١٩٣٦ .. فى ١٧ مارس ١٩٣٧ قُبل بالمدرسة الحربية.. تخرج ضابطاً بعد حوالى العام.. خدم فى منقباد والسودان وحارب فى فلسطين سنة ١٩٤٨ .. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٤ وكان فى مجموعة واحدة مع الضباط : عبدالمنعم عبد الرءوف وكمال الدين حسين وخالد محيى الدين .. أسس تنظيم «الضباط الأحرار» الذى غير حكم مصر فى يوليو ١٩٥٢ .. يعد زعيماً

بارزاً على مستوى حركات التحرر الوطنى.. هزم فى يونيو ١٩٦٧ .. وتوفى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

حسن البنا

ولد فى قرية المحمودية ـ محافظة البحيرة فى أكتوبر ١٩٠٦ .. بدأ تعليمه فى كُتَّاب القرية.. شارك كطالب فى مظاهرات ثورة ١٩١٩ .. تخرج فى كلية دار العلوم .. أسس جماعة الإخوان المسلمين فى مدينة الإسماعيلية سنة ١٩٢٨ .. اغتيل فى فبراير ١٩٤٩ بتدبير من البوليس السياسى.

حسن الهضيبى

ولد فى قرية «عرب الصوالحة» إحدى قرى «شبين الكوم».. حفظ القرآن فى كُتَّاب القرية.. التحق بمدرسة الحقوق بعد إنهاء مرحلة التعليم الثانوى.. لم يشارك طوال فترة الدراسة فى أية مظاهرات سياسية باستثناء جنازة مصطفى كامل..

تخرج فى مدرسة الحقوق عام ١٩١٥ .. عاش فترة فى سوهاج بعد تخرجه.. شارك فى أحداث ثورة ١٩١٩ .. عين فى سلك القضاء سنة ١٩٢٤ وقضى ٢٠ سنة متنقلاً بين محاكم مصر.. قابل البنا سنة ١٩٤٤ وأصبح فى فترة وجيزة واحداً من مريديه.. فى أكتوبر ١٩٥١ عين مرشداً عاماً للإخوان فاستقال من سلك القضاء.. دخل السجن أكثر من مرة فى الخمسينيات والستينيات.. وبعد أن توفى خلفه – فى موقع المرشد – عمر التلمسانى.

زينب الغزالى

أسست جماعة السيدات المسلمات سنة ١٩٣٧ .. التقت بالشيخ حسن البنا بعد ٦ شهور من تأسيس الجماعة.. بعد دخول الإخوان السجون سنة ١٩٥٤، أقامت تنظيماً نسائياً لمساعدة أسرهم، وقد أخذ هذا التنظيم دعماً من الداخل والخارج.. شاركت

بصورة فعالة فى إحياء جماعة الإخوان منذ ١٩٥٧ حتى ١٩٦٥ .. اتهمت فى أحداث ١٩٦٥، ودخلت السجن.. وفى سنة ١٩٧١ خرجت من السجن.

سعد زغلول

ولد في سنة ١٨٦٠ .. درس فى الأزهر على يد الإمام محمد عبده.. عين وزيراً للمعارف (١٩٠٦ ـ ١٩١٠) ثم وزيراً للحقانية (١٩١٠ ـ ١٩١٣).. قاد ثورة ١٩١٩ وأسس حزب «الوفد» فى نفس العام.. عين رئيساً للحكومة عام ١٩٢٣، عام الدستور الأول فى مصر.. توفى سنة ١٩٢٧ ..

شمس بدران

كان تلميذاً لسيد قطب.. عين مديراً لمكتب المشير عبدالحكيم عامر.. تولى وزارة الحربية من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٧ .. أشرف على عملية كشف تنظيمات الإخوان سنة ١٩٦٥، واتهم بسببها - فيما بعد - بارتكاب جريمة التعذيب.. حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة بتهمة التآمر على الحكم بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ .. دخل السجن الحربى لسنوات.. يعيش الآن خارج البلاد.

عمر التلمسانى:

ولد فى حارة «حوش قدم» بحى «الغورية» - القاهرة فى ٤ نوفمبر ١٩٠٤ .. عائلته أصلاً من الجزائر من بلد اسمها تلمسان، وهذا سر اللقب.. دخل مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٤ .. ارتبط فى تلك الفترة بحزب الوفد.. تخرج محامياً ليعمل فى مكاتب المحامين الخاصة سنة ١٩٣١ .. بعد حوالى العامين انضم إلى الإخوان المسلمين.. دخل السجن فى فترات المحن المختلفة للإخوان.. أفرج عنه آخر مرة سنة ١٩٧١ .. عين بعد رحيل الهضيبى مرشداً عاماً للجماعة.. وفى سنة ١٩٨٦ توفى.

عبد الفتاح عبده إسماعيل

ولد بكفر البطيخ - محافظة دمياط سنة ١٩٢٤ .. درس بمعهد طنطا الدينى الثانوى

ولم يكمل تعليمه.. انقطع عن الدراسة سنة ١٩٤٦ لأسباب عائلية.. ارتبط بجماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٤٧ بعد زيارة قام بها حسن البنا فى نفس العام لبلدته.. انضم للجماعة رسمياً سنة ١٩٥٢ .. اعتقل سنة ١٩٥٤ لمدة ٨ شهور ثم أفرج عنه.. تعرف على زينب الغزالى فى رحلة حج سنة ١٩٥٧ وهناك تعاهدا على إحياء جماعة الإخوان.. أعدم بعد محاكمات ١٩٦٥ .

عبد السلام عارف

ولد فى سنة ١٩٢١ .. اشترك كضابط فى الفيلق العراقى الذى حارب فى فلسطين سنة ١٩٤٨ .. كان الساعد الأيمن لعبدالكريم قاسم فى انقلاب سنة ١٩٥٨ الذى أطاح بالملكية.. كان نائباً لرئيس الوزراء حتى اختلف مع عبدالكريم قاسم وحكم عليه بالسجن بتهمة التآمر.. فى سنة ١٩٦٣ قام بانقلاب ناجح ضد عبدالكريم قاسم.. تولى رئاسة الجمهورية من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦ .. وفى العام الأخير مات فى حادث طائرة.

عبدالعزيز على

ولد فى القرن الماضى.. من أعضاء الحزب الوطنى المتطرفين الذين لعبوا دوراً فى المقاومة بالعنف.. أحد أبطال ثورة ١٩١٩ .. قبل ثورة يوليو كان يكون تنظيماً وطنياً من المدنيين والعسكريين، كان من بينهم رشاد مهنا.. وكان وقتها موظفاً بمحافظة القاهرة.. بعد الثورة أصبح وزيراً فى أول حكومة شكلتها.. وخرج منها دون أن يحصل على معاش الوزير.. تعرفت عليه قيادات تنظيم الإخوان سنة ١٩٦٥ فى بيت زينب الغزالى، وعرضوا عليه قيادة التنظيم.. اعتقل فى زنزانة انفرادية فى السجن الحربى ثم أفرج عنه.

عبدالحكيم عامر

ولد سنة ١٩١٩ .. من أسرة صعيدية تعيش فى المنيا.. اشترك فى حرب فلسطين..

قدم محمد نجيب إلى عبدالناصر قبل الثورة.. كان عضواً فى مجلس قيادة الثورة (١٩٥٢ - ١٩٥٦) .. رقى من رتبة رائد إلى رتبة لواء سنة ١٩٥٣ وأصبح بعدها القائد العام للجيش المصرى.. عُين نائباً لجمال عبدالناصر سنة ١٩٦٤ .. قبض عليه بتهمة التآمر بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .. وأعلن فى شهر سبتمبر من نفس العام أنه انتحر.

على أحمد عبده عشماوى

ولد بميت غمر سنة ١٩٣٧ .. انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٣ وعمره ١٧ سنة تقريباً .. بدأ فكرة إحياء تنظيم الإخوان من جديد سنة ١٩٥٩ .. كان المسئول عن التدريب والنشاط العسكرى فى تنظيم الإخوان سنة ١٩٦٥ .. وكان عمره وقتها ٢٨ سنة، ويعمل كاتب حسابات بالشركة المصرية العامة للأساسات، وكان يقيم فى حى روض الفرج بالقاهرة.

كمال الدين حسين

ولد سنة ١٩٢١ .. تخرج من الكلية الحربية ليخدم فى سلاح المدفعية (١٩٣٩ - ١٩٥٣).. كان مندوب سلاح المدفعية فى مجلس قيادة الثورة (٥٢ - ١٩٥٦).. عين وزيراً للشئون الاجتماعية (١٩٥٤) ثم وزيراً للتربية والتعليم (٥٤ - ١٩٥٨) ثم وزيراً للتعليم فى حكومة الوحدة مع سوريا (٥٨ - ١٩٦١).. ثم وزيراً للإدارة المحلية والإسكان (٦١ - ١٩٦٤)..واختير عضوا بمجلس الرئاسة (٦٢ -١٩٦٤) طلب فى رسالة شهيرة لعبدالحكيم عامر بعد حادث الإخوان ١٩٦٥، أن يترك مصر ليعيش فى السعودية.. كان عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين قبل الثورة.. فى فترة حكم الرئيس أنور السادات دخل مجلس الشعب وأصبح نائباً فيه، وبعد رسالة شهيرة للسادات خرج من المجلس.

معروف الحضرى

من الضباط الأحرار الذين انتموا إلى الإخوان المسلمين.. حارب فى فلسطين.. اعتقل سنة ١٩٥٤ .. أفرج عنه سنة ١٩٥٦ .. كان طرفاً فى شركة تجارية مع عبدالفتاح إسماعيل، ثم انفضت.. عرضت عليه قيادة تنظيم الإخوان الجديد سنة ١٩٦٤ أن يتولى قيادته.. رفض مؤكداً : «أنه غير مستعد لأن يبذل قطرة من دمه فى سبيل هذا الشعب».

المراجع والمقالات والوثائق



■ سيد قطب : (كتب)

١ - طفل القرية - دار الشروق - ١٩٧٣ .

٢ - كتب وشخصيات - دار الشروق - الطبعه الثالثة- ١٩٨٣ .

٣ - التصوير الفنى فى القرآن - دار الشروق - الطبعة السادسة - ١٩٨٠ .

٤ - العدالة الاجتماعية فى الإسلام - لجنة نشر دار الكتاب العربى - ١٩٤٩ .

٥ - معركة الإسلام والرأسمالية - دار الشروق - الطبعة الثامنة - ١٩٨٢ .

٦ - نحو مجتمع إسلامى - دار الشروق - الطبعة الثالثة - ١٩٧٨ .

٧ - المستقبل لهذا الدين - الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الإسلامية-الكويت- ١٩٨٦

٨ - معالم فى الطريق - دار الشروق - ١٩٨٠ .

■ سيد قطب : (مقالات)

٩ - إلى الأستاذ توفيق الحكيم - مجلة الرسالة - العدد ٨٢٧ - الاثنين ٩ مايو ١٩٤٩ .

١٠ - أمريكا التى رأيت - فى ميزان القيم الإنسانية - المقال الأول - مجلة الرسالة العدد ٩٥٧ - ٥ نوفمبر ١٩٥١ .

١١ - أمريكا التى رأيت - المقال الثانى - الرسالة - العدد ٩٥٩ - ١٩ نوفمبر ١٩٥١ .

١٢ - أمريكا التى رأيت - المقال الثالث - الرسالة - العدد ٩٦١ - ٣ ديسمبر ١٩٥١ .

١٣ - أيها الفدائيون امضوا فى طريقكم - الدعوة - ٢٠ نوفمبر ١٩٥١ .

■ سيد قطب : (وثائق)

١٤ - لماذا أعدمونى ؟ - كتاب " الشرق الأوسط " - الشركة السعودية للأبحاث والتسويق .

١٥ - إقرار سيد قطب الذى كتبه فى السجن الحربى كاملا يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٦٥

١٦ - نص التحقيقات معه - ملف القضية رقم ٤٨٤ حصر / ٦٥ والقضية رقم ١٢

لسنة ١٩٦٥ أمن دولة عليا .
١٧ - سليمان فياض - مقال : سيد قطب بين النقد الأدبى وجاهلية القرن العشرين - مجلة الهلال - سبتمبر ١٩٨٦ .
١٨ - د. الطاهر مكي - مقال : سيد قطب وثلاث رسائل لم تنشر بعد - مجلة الهلال - أكتوبر ١٩٨٦ .
١٩ - د. سمير أمين - أزمة المجتمع العربى - دار المستقبل - ١٩٨٥ .
٢٠ - د. يوسف القرضاوى - دراسة منشـــورة بجريدة الشعب أعداد ١١ و ١٨ و ٢٥ نوفمبر ١٩٨٦ بعنوان : ملاحظات وتعقيبات على آراء الشهيد سيد قطب .
٢١ - ويلبر كرين ايفلاند - حبال من رمال - ترجمة على حداد - دار المروج - بيروت .
٢٢ - محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - مؤسسة الأهرام - ١٩٨٦ .
٢٣ - محمد حسنين هيكل - خريف الغضب - الطبعة السابعة - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت .
٢٤ - عباس خضر : رسائل متبادلة بينه وبين سيد قطب - مجلة الرسالة الأعداد ٨٨٧ (٣ يوليو ١٩٥٠) و ٨٩١ (٣١ يوليو ١٩٥٠) .
٢٥ - جيلس كيبل - النبى والفرعون - بالإنجليزية مترجم عن الفرنسية - دار الساقى - لندن .
٢٦ - حسين محمد أحمد حموده - أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمين - الزهراء للإعلام العربى - ١٩٨٥ .
٢٧ - الإخوان المسلمون - وثيقة - الإصلاح المنشـــود فى العهد الجديد - أول أغسطس ١٩٥٢ .
٢٨ - عبدالله إمام - عبد الناصر والإخوان المسلمون - الطبعة الثانية - ١٩٨٦ .
٢٩ - عادل حمودة - نهاية ثورة يوليو -مكتبة مدبولى - ١٩٨٤ .
٣٠ - محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ - دار الدعوة - ١٩٨٥ .
٣١ - د.عــبد العــظيم رمضــان- الإخـــوان المسلـــمون والتنظيـــم الســـرى - روز اليوسف - ١٩٨٢ .

٣٢ - نـاصر الديـن النشـاشـيبى وآخرون - هؤلاء هم الإخوان - الناشر مجهول - ١٩٥٥ .

٣٣ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - المنتخب فى تفسير القرآن - ١٩٨٤

٣٤ - حمد بن صادق الجمال - أبو الأعلى المودودى - دار المدنى - جدة - بلا تاريخ .

٣٥ - أبو الأعلـى المودودى - المصـطلحات الأربـعة - دار القلم- الكويت - ١٩٧٣ .

٣٦ - د . محمد عمارة - مقال : من أمراض الصحوة الإسلامية - مجلة الهلال- سبتمبر ١٩٨٦ .

٣٧ - د . محمد عمارة : العلمانية ونهضتنا الحديثة - دار الشروق - ١٩٨٦ .

٣٨ - رفعت سيد أحمد : الدين والدولة والـثورة - كتـاب الهـلال - فبراير ١٩٨٦ .

٣٩ - د . فؤاد زكريا : الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة - كتاب الفكر - ١٩٨٦ .

٤٠ - سعد جمعة : المؤامرة ومـعركة المصير - دار الكـاتب العـربى - بيروت ١٩٦٨ .

٤١ - جريدة الأهرام - ٥ مايو ١٩٦٨ .

٤٢ - جريدة وطنى - ٥ مايو ١٩٦٨ .

٤٣ - ملحق مجلة منبر الإسلام - رد الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى على كتاب معالم فى الطريق .

٤٤ - زينب الغزالى - أيام من حياتى - الطبعة الثامنة - دار الشروق .

٤٥ - عمر التلمسانى - ذكريات لا مذكرات - دار الاعتصام - ١٩٨٥ .

٤٦ - حسن الهضيبى : دعاة لا قضاة - الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الإسلامية - الكويت - ١٩٧٧ .

٤٧ - الأجزاء الكاملة للقضية رقم ١٢ / ١٩٦٥ أمن دولة عليا والقضية رقم ٤٨٤ / ٦٥ حصر .

الفهرس



عربية للطباعة والنشر
٧، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨





سيد قطب

من القـرية الى المشنقـة



سيرة الأب الروحي لجماعات العنف

■ يصوره البعض شيخا من مشايخ الطرق الصوفية.. ويصوره البعض مفكرا إسلاميا جاء في وقته للخروج من الجاهلية.. ويصوره البعض متمردا سياسيا يرمي الحجارة على شبابيك كل النظم الاجتماعية.. والسياسية.. والثورية.. ويتصوره البعض معقدا نفسيا خرج على السلطة الأبوية العسكرية.. لإحياء التقاليد القبلية.

لقد كان لسيد قطب أكثر من وجه.. وأكثر من لون.. وأكثر من لقب.. فهو معلم.. وشاعر.. ومفكر.. ومفسر.. وملحد.. ومسلم.. ومتطرف.. ومصلح.. ومبدع.. ومجاهد.. ومجتهد.. وشهيد.. تحولاته حادة.. وتغيراته مذهلة.. وصورته لم تحبس نفسها في إطار ثابت.. وأفكاره لم تجمد في قالب واحد.. ولو لم يعدموه لواصل رفضه لما سبق واستقر عليه.. ولخرج من جلده.. وفكره.. فهو أشبه بممثل متميز الشخصية.. يرفض دائما النص المكتوب في السيناريو حتى ولو كان هو كاتب السيناريو.. وهو أشبه بقائد دراجة نارية يقودها بأقصى سرعة في شوارع المدن النائمة ويستعمل آلة التـ[illegible]ـمحظور فيها استعمالها.. ويكتب بالطباشير كلاما ع[illegible]ل الأبواب المغلقة.

عادل حمودة

دار الخيال - القاهرة